

لفت الأنظار لما جاء في معركتي الفلوجة من أخبار

تصنيف: أبي بكر المدني
عمر بن عثمان بن علي

الطبعة الأولى - 1446 هـ

دار الأمان



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَفْتُ الْأَنْظَارَ لِمَا جَاءَ فِي
مَعْرَكَتِي الْفُلُوجَةِ
مِنْ أَخْبَارِ

تصنيف:

أبي بكر المديني

عمر بن عثمان بن علي

الطبعة الأولى ١٤٤٦ هـ

مؤسسة صرح الخلافة



مركز إنتاج الأنصار



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وناصر عباده الموحدين، والصلاة والسلام على خير المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

خاض أهل الإسلام معارك لا تعد ولا تحصى في قتال أعداء الله، وحروبهم سجلت من نصر أو شهادة أو تحيز لفئة أو هزيمة، ويكون في تلك المعارك حقائق مهمة ودروس وعبر لمن سيلحقهم من خلفهم، وكان أهل الإسلام يحرصون على تدوين أحداث المعارك.

في زماننا؛ تسعى طائفة من أهل الإسلام إلى إقامة الدين بالسيف والسنان؛ إلا إنه لتكالب الأمم وعداوة القريب والبعيد واستشهادهم لم يدونوا في مصنفات حوادث معاركهم وغزواتهم كما كان من قبل، وما وُجد من أخبار المعارك وُجد متفرقاً بين بطون الصفحات وأثير الصوتيات ومخازن المرئيات، ومن أراد أن يطالع أخبار معارك المسلمين تلقاها من حطاب الليل، ومتلقفي الكذب، والمدلسين والواضعين حسب مصالح الكفار والطواغيت، فكان لا بد أن تحيا سنة التدوين لمعارك المسلمين لقطع الطريق على المتربصين.

في هذا المصنف جمعتُ روايات وأخبار معركتي الفلوجة ممن عاشها ورأى أهوالها وقاتل ضد الكفار الصليبيين والمرتدين، وأكثرَ بعض الرواة من تفاصيل الأحداث أو العبارات الأدبية، فاختصرتها لما لا يضر سياق الحوادث، وأهل الإسلام في تدوينهم الحوادث ينقلون ما لهم وما عليهم، وليسوا ممن يكذب من أجل أن تظهر الحوادث مبهجة للنفس، ويتعامى عن الابتلاءات والتمحيص اللذين لا نصر ولا فهم للحوادث إلا معهما.

قد كان للأمير أبي مصعب الزرقاوي -تقبله الله- رغبة بتدوين أخبار المعركتين

ممن شهدهما، وقام بذلك عدد ممن خاض غمارهما، لكن كتاباتهم متفرقة في عدة كتابات لهم أو صوتيات ومرئيات، ووجدت أنه لم يُقَمَّ أحدٌ بجمع المفرق وتصنيفه في مصنف واحد مما يعين على فهم أطراف المعارك من عدة رواة.

فأما المعركة الأولى، فأغلب الروايات من عمر بن يوسف جمعة المكنى بأبي أنس الشامي؛ ودوّنها باسم كتاب (معركة الأحزاب)، ثم روايات أحمد منصور؛ وهو لم يخض المعارك فيها بل كان شاهداً لأحوال الناس وبعضٍ من أحوال الصليبيين في المعركة، وقد أسرف الراوي بذكر أمور هي أقرب للثرثرة من الرواية؛ وعلة ذلك تأثره بمنهج الأعاجم في التأريخ للحوادث، والعرب يميلون في ذكر الروايات، وروى بعضاً من الأخبار والحوادث عبد المنعم بدوي المكنى بأبي حمزة المهاجر، وأبو مصعب الزرقاوي، وغيرهم.

وأما المعركة الثانية، فأغلب الروايات من أبي حمزة المهاجر، ونظم طه بن صبحي فلاحه المكنى بأبي محمد العدناني قصيدة ذكر فيها روايته لأخبار المعركة، وكذلك روى الزرقاوي بعضاً من الأخبار عمّن شهد المعركة، وكذلك أبو جعفر الأنصاري، وغيرهم، وأما روايات أبي حمزة فمنها ما شهدها بنفسه ومنها عمّن شهدها.

حولتُ التواريخ الأعجمية إلى الهجرية، ووضعتُ صفحة لموارد الروايات.

الفهرس

١١.....	بَابُ مَعْرَكَةِ الْفُلُوجَةِ الْأُولَى
١١.....	فَصْلٌ فِي حَوَادِثَ جَرَتْ قَبْلَ الْمَعْرَكَةِ
١٣.....	فَصْلٌ فِي بَدْءِ أَوَارِهَا
١٥.....	فَصْلٌ فِي دُخُولِ ابْنِ مَنْصُورٍ أَرْضَ الْمَعْرَكَةِ
٢١.....	أَحْدَاثُ لَيْلَةِ الْاِثْنَيْنِ ١٥ صَفَرٍ
٢١.....	مَنْ أُصِيبَ وَاسْتُشْهِدَ
٢٤.....	الْقَصْفُ الْأَمْرِيكِيُّ
٢٥.....	حَوَادِثُ يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ
٢٥.....	فَصْلٌ فِي مَعَارِكِ حَيِّ الْجَوْلَانِ
٣٢.....	مَذَابِخُ حَيِّ الْجَوْلَانِ
٣٧.....	حَيِّ الْجَوْلَانِ مَضْرَبٌ لِلشَّجَاعَةِ
٣٨.....	فَصْلٌ فِي حَيِّ نَزَّالٍ
٤٠.....	فَصْلٌ فِي أَحْوَالِ النَّاسِ بِدَايَةِ الْمَعْرَكَةِ
٤٢.....	غَضَبُ النَّاسِ
٤٣.....	مَصَادِرُ الْأَخْبَارِ
٤٣.....	إِهَانَةُ الْأَمْرِيكَانِ لِشُيُوخِ الْعَشَائِرِ
٤٤.....	أَحْوَالُ الْمُسْتَشْفِيَّاتِ فِي الْحَرْبِ
٤٧.....	مِنْ آلَامِ الْحَرْبِ
٤٨.....	مَنْبُذُونَ فِي الْمَدِينَةِ
٤٩.....	حَوَادِثُ يَوْمِ الثَّلَاثَاءِ (١٦ صَفَرٍ)
٥١.....	الْمُحَاوَلَةُ الْإِعْلَامِيَّةُ لِأَبِي أَنْسَ
٥٢.....	رِوَايَةُ أَبِي حَفْصٍ الْمَقْدِسِيِّ لِأَحَدِ الْمَعَارِكِ وَطَرَفٌ مِنْ أَخْبَارِهِ
٥٣.....	اسْتِشْهَادُ أَبِي هُرَيْرَةَ
٥٣.....	فَصْلٌ فِي سُكُونِ الْمَعْرَكَةِ
٥٤.....	فَصْلٌ فِي تَدْبِيرِ الزَّرَقَاوِيِّ لِلْمَعْرَكَةِ
٥٥.....	فَصْلٌ فِي حَوَادِثِ اللَّيْلِ
٥٧.....	حَوَادِثُ يَوْمِ الْأَرْبَعَاءِ (١٧ صَفَرٍ)
٥٩.....	الْخُطَّةُ الْعَسْكَرِيَّةُ لِلْجَيْشِ الْأَمْرِيكِيِّ

- ٦٢.....فَصْلٌ فِي آثَارِ الْمَعْرَكَةِ خَارِجَهَا.
- ٦٣.....فَصْلٌ فِي مُجَرِّياتِ الْأَحْدَاثِ فِي الْأَيَّامِ التَّالِيَةِ.
- ٦٣.....أَخْبَارُ الْمُجَاهِدِينَ خَارِجَ الْفُلُوجَةِ.
- ٦٤.....فَصْلٌ فِي خِيَانَةِ الْإِخْوَانِ الْمُرتَدِّينَ.
- ٧٠.....حَوَادِثُ يَوْمِ الْخَمِيسِ (١٨ صَفَر).
- ٧٠.....فَصْلٌ فِي اسْتِشْهَادِ أَبِي حَفْصٍ وَإِخْوَانِهِ.
- ٧١.....فَصْلٌ فِي شَرَّاسَةِ الْمَعْرَكَةِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ.
- ٧٥.....اسْتِشْهَادُ أَبِي مَارِيَّةَ.
- ٧٥.....فَصْلٌ فِي الْأَمِيرِ الْجَدِيدِ.
- ٧٦.....طَرَفٌ مِنْ أَخْبَارِ الْمُقَاتِلِينَ وَقَادَتِهِمْ.
- ٧٧.....فَصْلٌ فِي اتِّخَاذِ الْكُفَّارِ الْمَنَارَاتِ لِلتَّقْنِيصِ.
- ٨٠.....إِعَانَةُ الْمُسْلِمِينَ لِإِخْوَانِهِمْ.
- ٨٢.....حَوَادِثُ يَوْمِ الْجُمُعَةِ (١٩ صَفَر).
- ٨٤.....فَصْلٌ فِي مَعَارِكِ اللَّيْلِ.
- ٨٥.....الْإِغَاثَةُ الْمُنْقَطِعَةُ.
- ٨٦.....حَوَادِثُ يَوْمِ السَّبْتِ (٢٠ صَفَر).
- ٨٦.....فَصْلٌ فِي الْهُدْنَةِ مَعَ الْكُفَّارِ.
- ٨٨.....حَوَادِثُ يَوْمِ الْأَحَدِ (٢١ صَفَر).
- ٨٩.....حَوَادِثُ يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ (٢٢ صَفَر).
- ٩٠.....فِتْنَةُ الرَّهَائِنِ.
- ٩٢.....حَوَادِثُ يَوْمِ الثَّلَاثَاءِ (٢٣ صَفَر).
- ٩٢.....فِتْنَةُ الْمُرْجِفِينَ.
- ٩٣.....فَصْلٌ أَخْبَارٍ وَمَوَاقِفَ مُتَفَرِّقَةٍ يَرْوِيهَا أَبُو أَنْسَ.
- ٩٣.....اسْتِشْهَادُ أَبِي الْبَرَاءِ الْأَنْصَارِيِّ.
- ٩٤.....الْجَوَاسِيسُ.
- ٩٤.....مِنْ أَحْوَالِ الثَّابِتِينَ.
- ٩٥.....الرُّؤْيَى.
- ٩٦.....فَصْلٌ فِي رُعبِ الْكُفَّارِ مِنَ الْمُجَاهِدِينَ الْأَبْرَارِ.
- ٩٨.....حَوَادِثُ يَوْمِ الْأَحَدِ (٥ ربيع الأول).
- ٩٩.....حَوَادِثُ يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ (٦ ربيع الأول).

- فَصْلٌ فِي غَزْوَةِ الْغُبَيْرِ ١٠٠
- حَوَادِثُ يَوْمِ الثَّلَاثَاءِ (٧ ربيع الأول) ١٠١
- حَوَادِثُ يَوْمِ الْحَمِيسِ (٩ ربيع الأول) ١٠٢
- حَوَادِثُ يَوْمِ السَّبْتِ (١١ ربيع الأول) ١٠٣
- حَوَادِثُ يَوْمِ الْأَحَدِ (١٢ ربيع الأول) ١٠٤
- فَصْلٌ فِي مَأْسَاةِ الْأَمْوَاتِ ١٠٥
- فَصْلٌ فِي دَوْرِ وَمَوَاقِفِ أَبِي أَنْسٍ ١٠٩
- فَصْلٌ فِي أَمِيرِ الْحَرْبِ فِي الْفُلُوجَةِ الْأُولَى ١١٣
- فَصْلٌ فِي بَعْضِ أَخْبَارِ الْجُنْدِ فِي الْمَعْرَكَةِ ١١٤
- فَصْلٌ طَرَفٍ مِنْ أَخْبَارِ الْأَمِيرِ عُمَرَ حَدِيدٍ ١١٧
- فَصْلٌ طَرَفٍ مِنْ أَخْبَارِ أَبِي فَارِسٍ الْأَنْصَارِيِّ ١١٩
- فَصْلٌ طَرَفٍ مِنْ أَخْبَارِ الْأَمِيرِ أَبِي عَزَّامٍ ١٢٢
- فَصْلٌ فِي أَخْبَارِ الْأَمْرِيكَانِ ١٢٣
- عَدَدُ الْجَيْشِ الْأَمْرِيكِ ١٢٣
- الْحُلُّ الْخَذَرِ ١٢٤
- لَوْنُ الطَّائِرَةِ الْأَمْرِيكِ ١٢٤
- وَصْفُ الْجُنْدِيِّ الْأَمْرِيكِ ١٢٤
- فَصْلٌ فِي مَسَكِ الْأَرْضِ وَالْمُنَافِقِينَ ١٢٦
- فَصْلٌ فِي أَقْوَالِ الْأَمْراءِ فِيهَا ١٢٧
- فَصْلٌ فِي مَا قِيلَ فِي مَعْرَكَةِ الْفُلُوجَةِ الْأُولَى مِنْ شِعْرِ ١٢٩
- كَوَاكِبُ النُّورِ ١٢٩
- بَابُ مَا جَرَى بَيْنَ الْمَعْرَكَتَيْنِ مِنْ أَحْدَاثٍ ١٣٣
- فَصْل ١٣٣
- الْإِعْدَادُ ١٣٣
- أَصْحَابُ أَلَمِ نَكُنْ مَعَكُمْ ١٣٣
- مَرَحَلَةُ الْبِنَاءِ ١٣٤
- فَصْلٌ فِي اسْتِشْهَادِ أَبِي أَنْسٍ الشَّامِيِّ ١٣٨
- مَعْرَكَةُ سَجْنِ أَبِي غَرِيبٍ ١٣٨
- اسْتِشْهَادُهُ ١٤١
- فَصْلٌ فِي بَيْعَةِ الزَّرْقَاوِيِّ لِأُسَامَةَ ١٤٤

١٤٦.....	بَابُ مَعْرَكَةِ الْفُلُوجَةِ الثَّانِيَةِ.....
١٤٦.....	التَّاسِعُ مِنْ رَمَضَانَ.....
١٤٧.....	الْعَاشِرُ مِنْ رَمَضَانَ.....
١٤٩.....	الخَامِسُ وَالْعِشْرُونَ مِنْ رَمَضَانَ.....
١٥١.....	فَصْلُ عُمَرَ حَدِيد.....
١٥٣.....	فَصْلُ أَبِي الْغَادِيَةِ.....
١٥٥.....	فَصْلُ أَبِي الْمَرَضِيَّةِ الْيَمَنِيِّ.....
١٥٦.....	فَصْلُ أَبِي عَزَّام.....
١٥٨.....	فَصْلُ أَبِي جَعْفَرِ الْمُقَدِّسِيِّ.....
١٦٤.....	فَصْلُ عَمَّارٍ وَأُمِّهِ.....
١٦٦.....	فَصْلُ أَبِي حَمْرَةَ الشَّامِيِّ.....
١٦٨.....	فَصْلُ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الشَّامِيِّ.....
١٧٠.....	فَصْلُ أَبِي نَاصِرِ اللَّيْبِيِّ.....
١٧٤.....	فَصْلُ حَوَادِثَ مُنْقَرِقَةٍ.....
١٧٤.....	حِرْصُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ.....
١٧٤.....	شِدَّةُ الْبَلَاءِ.....
١٧٦.....	خَبَايَا الْمَعْرَكَةِ.....
١٧٦.....	ثَبَاتُ الْأُمَرَاءِ فِي الْمَعْرَكَةِ.....
١٧٧.....	خَارِجُ الْمَعْرَكَةِ.....
١٧٩.....	فَصْلٌ فِي كَرَامَاتِ الْمُجَاهِدِينَ فِي الْمَعْرَكَةِ.....
١٨٣.....	فَصْلٌ فِي نِهَآيَةِ الْفُلُوجَةِ الثَّانِيَةِ.....
١٨٥.....	فَصْلٌ فِي بَعْضِ الْحَوَادِثِ بَعْدَ الْمَعْرَكَةِ الثَّانِيَةِ.....
١٨٥.....	تَدْوِينُ الْمَعْرَكَةِ.....
١٨٧.....	فَصْلٌ فِي أَقْوَالِ الْأُمَرَاءِ فِي مَعْرَكَةِ الْفُلُوجَةِ الثَّانِيَةِ.....
١٩٢.....	فَصْلٌ فِي مَا قِيلَ فِي مَعْرَكَةِ الْفُلُوجَةِ الثَّانِيَةِ مِنْ شِعْرِ.....
١٩٢.....	وَقْعَةُ الْفُلُوجَةِ الثَّانِيَةِ.....
٢٠٦.....	الْمِحْنَةُ.....
٢٠٩.....	نَاصِحُ الْأَحْرَارِ.....
٢١٠.....	يَا نَفْسُ.....
٢١١.....	أَبُو عَبْدِو.....



٢١٢.....اضرب يا أَسَدَ الْقُلُوجَةِ

٢١٣.....الموارد

بَابُ مَعْرَكَةِ الْفَلُوجَةِ الْأُولَى

سبعة وعشرون يوماً

من الخامس عشر من صفر حتى الثاني عشر من ربيع الأول
لعام ألف وأربعمئة وخمسة وعشرين للهجرة

بَابُ مَعْرَكَةِ الْفُلُوجَةِ الْأُولَى

فَصْلٌ فِي حَوَادِثَ جَرَتْ قَبْلَ الْمَعْرَكَةِ

قال أبو أنس الشامي: قبل الأحداث بنحو عشرة أيام أو تزيد قليلاً، وبأمر من القائد أبي مصعب الزرقاوي اجتمع المجلس العسكري في المدينة وجرى استعراض الوضع ودراسة المتغيرات وكانت النتيجة مؤلمة وقاسية، ووجدنا أنه وبعد عام من الجهاد ما زلنا لم نحقق شيئاً على الأرض ولا نجدُ أحدنا شبراً يأوي إليه أو مكاناً يلوذ به آمناً في بيته بين أفراد سربه، لقد كنا نتواري في نهارنا ونتسلل كالقطا في ليالينا.

هجر جميعنا منازلهم وتشرد شملُ العوائل، ودُوهمت البيوت وطُورد الأبطال، كانت صورةً قائمةً، وشعر جميعنا بفشلٍ ذريع، وكان لا بد من حلٍّ سريع وتغييرٍ لخطّة العمل، وقرّرنا أن نجعل الفلوجة ملاذاً آمناً ودرعاً حصيناً لأهل الإسلام، وأرضاً حراماً ومفازةً دويّةً مُهلكة للأمرىكان؛ فلا يطأوها إلا خائفين ولا يخرجون منها إلا مدعورين مطاردين يحملون جراحهم وقتلاهم.

واتفقنا أن نُقسّم المجاميع إلى مفارز تنتشر في الليل وتظلُّ يقظة في النهار تحرس أطراف المدينة وتذود عن جماها بالغدوات والعشيّات، وتوزّع الحمل وقُسم العُباء على المجاهدين مهاجرين وأنصاراً، وارتفع اللواء وخفقت الراية وانطلقت الشرارة.

قال الزرقاوي: معركة الفلوجة الأولى كانت آية من آيات الله الباهرة، وكانت عبرة لكل المسلمين، وحجة على القاعدين.

لم يكن الإخوة قد خططوا لتلك المعركة، وما توقعوا أبداً وقوعها أصلاً، ولو عرضت علينا خطة هذه المعركة - كما جرت - قبل وقوعها ما كنا لنقبل بها.

قد يرى البعض أن خوض غمارها ضرباً من الجنون ونوعاً من التسرع؛ فالإخوة كانوا بالعشرات وعدتهم قليلة، ويقطنون مدينة صغيرة مكشوفة للعين المجردة، فضلاً عن أجهزة العدو المتطورة.

اتفقنا مع الإخوة على أن يكون هناك مفارز في النهار توزع على طول خط المواجهة، وفي الليل تُصنع الكمائن لاصطياد ما أمكن اصطياده من أرتالهم؛ من خلال العبوات الناسفة، أو المواجهات المباشرة، التي تستغل غطاء الليل وتضرب العدو من حيث لا يحتسب.

قال ابن منصور: أدركت من مسار المكاملة أن هناك شيئاً غير عادي يحدث في مدينة الفلوجة أو حولها، وحينما أنهى حامد مكالمته التفت إليّ وقال: وضاح يقول إن لديه معلومات تفيد بأن هناك قوات أمريكية بأعداد كبيرة قد طوقت مدينة الفلوجة وحاصرتها، وطلب مني تحري الأمر ومعرفة ماذا يدور هناك. قلت له: إن الساعة قد جاوزت منتصف الليل، فكيف يتم معرفة ذلك؟ قال: سوف نتصل بمراسلنا في الفلوجة حسين دلي ونعرف ماذا يدور هناك. وقام حامد بالاتصال على حسين دلي؛ وأخذ يتحدث معه ويستفسر منه، وكان واضحاً من مسار المكاملة أن حسيناً لا يعرف شيئاً عما يدور خارج المدينة، وطلب من حامد أن يمهله قليلاً حتى يخرج من بيته ويدور في بعض الشوارع ويصل إلى أطراف المدينة حتى يرى ما إذا كانت هناك أية تحركات غير عادية أو قوات أمريكية قريبة من مداخل المدينة.

وبعد ما يقرب من ساعة اتصل حسين وأخبرنا بعد جولة قام بها في أحياء المدينة وعلى أطرافها القريبة أن المدينة هادئة وليس هناك شيء غير عادي يدور داخلها أو على مخارجها القريبة يفيد بأنه قد تمت محاصرتها.

فَصْلٌ فِي بَدْءِ أَوَارِهَا

أبو أنس الشامي: انْتَشَرَتِ الْخَلَايَا وَكَمَنْتِ السَّرَايَا، وَتَقَدَّمَتْ أُرْتَالٌ عَسْكَرِيَّةٌ أَمْرِيكِيَّةٌ تَتَهَادَى بِخِيَلَاءٍ وَتَمْطُو^١ بِكَبْرِيَاءٍ وَهِيَ تَأْمُلُ بِاسْتِعْلَاءِ أَنْ تُدَاهِمَ الْبُيُوتَ وَتَعْتَقِلَ مِنْ تَشَاءٍ، وَمَا دَرَتْ أَنْ الرَّدَى قَدْ حُبِّي لَهَا بَيْنَ كُتْبَانِ الثَّرَى عَلَى أَيْدِي لِيُوثِ الشَّرَى^٢ وَفَرَسَانِ الْوَرَى.

فَلَعَلَعَ الرَّصَاصُ وَزَغَرَدَ الرَّشَّاشُ وَازْتَفَعَ حُدَاءُ الْقَوَافِ مُعْلِنًا بَدْءَ عَهْدٍ جَدِيدٍ، وَتَتَابَعَتِ الْأَحْدَاثُ وَحَمِيَ الْوُطَيْسُ وَدَارَتْ رَحَى مَعَارِكٍ عَنِيفَةٍ وَاسْتَمَرَّتْ إِحْدَاهَا (٤) سَاعَاتٍ لَيْلِيَّةٍ شَارَكَتَ فِيهَا الدَّبَابَاتُ وَحَلَقَتِ الطَّائِرَاتُ وَحَصَلَ قَصْفٌ وَعَصْفٌ، حَتَّى اعْتَرَفَ الْكُفَّارُ بِأَنَّهَا أَعْنَفُ مَعْرَكَةٍ جَرَتْ مِنْذُ سَقُوطِ النِّظَامِ الْبَائِدِ.

وَبَدَأَ أَنْ رَجَمَ الْأَحْدَاثُ يَحْمِلُ مَفَاجِآتٍ جُلَى، وَأَنَّهُ قَدْ تَشَكَّلَتْ فِيهِ أَجْنَةُ أَحْدَاثٍ جَسَامٍ تَنْتَظِرُ وَلَادَةً قَيْصَرِيَّةً بَعْدَ مَخَاضٍ عَنِيفٍ وَعَبْرَ أَنْهَارِ الدِّمَاءِ، وَهَنَّا حَصَلَتِ الزَّلْزَلَةُ الْكُبْرَى وَقَاصِمَةُ الظُّهْرِ وَأَحْدُوثةُ الْعَصْرِ، حِينَ تَجَرَّأتْ سَيَارَتَانِ مِنْ نَوْعِ (جَيْبِ) بُولُوجِ الْأَرْضِ الْحَرَامِ^٣ وَدَخُولِ أَجْمَةٍ^٤ الْأَسَادِ فَتَصَدَّى لَهُمُ أَسَدُ الْغَابِ فَأَمْطَرُوهُمْ بِوَابِلٍ مِنَ الرِّصَاصِ وَدَّعُوا مَعَهُ الْحَيَاةَ خَزَايَا وَنَدَامَى، وَفِي غَمْرَةِ الْحَقْدِ الَّذِي تَنَامَى فِي الْقُلُوبِ عَلَى هَوْلَاءِ الدُّخْلَاءِ وَالْأَعْدَاءِ الَّذِينَ قَتَلُوا وَدَمَّرُوا وَتَرَكَوْا فِي الْقُلُوبِ جَرَاحَاتٍ لَا تُتَدَمَّلُ، وَقِيحًا لَا تَمَحُوهُ الْأَيَّامُ، قَامَ بَعْضُ النَّاسِ بِإِشْعَالِ النَّارِ وَالتَّمْثِيلِ بِالْجِثْثِ شِفَاءً لِقُلُوبِهِمْ فِي ثَوْرَةِ غَضَبٍ أَصَمَّتْهُمْ عَنْ سَمَاعِ نِدَاءِ الشَّرْعِ وَالْعَقْلِ وَالنَّظَرِ فِي الْمَالَاتِ وَالْعَوَاقِبِ، كَمَا وَعُلِقَتْ بَعْضُهَا عَلَى جِسْرِ الْمَدِينَةِ، وَسُحِبَتْ إِحْدَى الْجِثْثِ بِحِمَارٍ وَجَرَتْ عَلَى الطَّرِيقِ، كَانَ مَنْظَرًا عَجِيبًا يَتَكَرَّرُ فَقَطْ

^١ المراد تسير بكبرياء.

^٢ الشرى موضع يُنسب إليه الأسد، و"ليوث الشرى" كلمة تقال في الشجعان.

^٣ ليس المراد هنا المعنى الشرعي الأرض التي حرمها الله، وإنما المعنى اللغوي، أي التي مُنعوا من دخولها.

^٤ الأجمة الشجر الكثير الملتف، والأجام أحد جموع كلمة "أجمة".

للمرة الثانية بعد الصومال في زمن (الهيمنة الأمريكية).

تَكْهَرِبُ الْجَوَّ وَتَلْبِدُ بَغِيَوْمَ سُودَاءٍ تَحْمِلُ حَقْدًا أَسْوَدَ دَفِينًا، وَعَلَا فَحِيحُ الْأَفَاعِي وَهِيَ تَزْحَفُ فِي ظِلَامِ اللَّيْلِ لِتَطْبِقَ عَلَى الْمَجَاهِدِينَ، وَبَدَأَ أَنْ طَبُولَ الْحَرْبِ وَضَجِيجُهَا قَدْ سَدَّ الْأُفُقَ السِّيَاسِيَّ وَأَصَمَّ آذَانَ السَّاسَةِ عَنِ الْإِسْتِمَاعِ إِلَى نِدَاءِ الْعَقْلِ وَالْمُعَالَجَةِ السَّلْمِيَّةِ.

وَقَدْ تَنَاهَى إِلَى أَسْمَاعِ الْعَالَمِ التَّقَارِيرُ السَّرِيَّةُ عَنِ الْأَزْرِ الْيَهُودِيِّ لِلْعُدُوِّ الْأَمْرِيكِيِّ لِيَبْطِشَ وَيَسْتَعْمَلَ سِيَاسَةَ الْأَحْذِيَّةِ الْغَلِيظَةِ مُبَرِّرِينَ بِذَلِكَ بِأَنَّ الْعَرَبَ جَنْسَ رَدِيءٍ لَا يَصْلَحُ مَعَهُ إِلَّا لُغَةُ الْقَتْلِ وَالتَّنْكِيلِ.

وَتَتَابَعَتْ أُرْتَالَ جُنُودُ الْكُفْرِ تَعُدُّهُ الْخُطَى وَهِيَ تَتَلَمَّظُ^٥ بِهَيْتِكَ الْحَرَمِ وَاسْتِذْلَالِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ، وَقَدْ تَطَايَرَتِ الْأَخْبَارُ بِأَنَّ الْإِدَارَةَ الْأَمْرِيكِيَّةَ قَدْ أَعَدَّتْ نَزْلًا -وَأَيُّ نَزْلٍ- لِجَمِيعِ الْبَالِغِينَ فِي الْفُلُوجَةِ فِي مُحَاوَلَةٍ مِنْهَا لِكَسْرِ شَوْكَةِ الْجِهَادِ وَاجْتِثَاثِ جَذْوَرِهِ، وَحَصَلَتْ مَدَاوِلَاتٌ مِنْ نَاحِيَّتِنَا وَتَدَارَسُ لِلْخِيَارَاتِ الْمُتَاحَةِ، وَهَلْ نَوْثِرُ الْأَنْخِيَازَ وَالْخُرُوجَ مِنَ الْمَدِينَةِ أَمْ نَتَّبِتُ فِي مَوَاقِعِنَا وَنُدَافِعُ عَنِ الْحَقِّ، لَقَدْ كَانَ الشُّعُورُ بِأَنَّهَا مَعْرَكَةٌ كَسَرِ عَظْمٍ، وَأَنَّ الْأَمْرِيكَانَ قَدْ عَزَمُوا أَنْ يَجْعَلُوهَا نِكَالًا لِكُلِّ الْمَدَنِيِّ، وَأَنَّهُمْ إِذَا وَلَّجُوهَا فَيَسْتَبِيحُونَهَا دَمًا وَعَرَضًا وَكَانَ هَذَا وَاضِحًا فِي ثَنَايَا كَلَامِهِمْ وَتَصَرُّيحاتِهِمْ.

لَقَدْ كَانَتْ مَعْرَكَةٌ تَحْدٍ حَقِيقِيَّةً، وَكَانَ قَرَارُ الْقِيَادَةِ الْجِهَادِيَّةِ بِوُجُوبِ الثَّبَاتِ، وَكَانَ فِيهِ بِحَمْدِ اللَّهِ الْخَيْرُ وَالرَّشْدُ، وَأُعْلِنَ النِّفِيرَ الْعَامَ لِلْإِخْوَةِ، وَتَأَهَّبَ الْأَسْوَدُ، وَتَتَابَعَتْ الْمُوَاجَهَاتُ بَيْنَ كَرٍّ وَقَرٍّ.

قال الزرقاوي: من المعروف أن سبب الغزوة الصليبية للفلوجة كان مقتل

^٥ أَعَدَّ أَيَّ أَسْرَعَ.

^٦ التَّلَمَّظُ يُقَالُ تَلَمَّظَ إِذَا تَتَبَعَ بِلِسَانِهِ بَقِيَّةَ الطَّعَامِ فِي فَمِهِ وَأَخْرَجَ لِسَانَهُ فَمَسَحَ بِهِ شَفْتَيْهِ.

المقاولين الأربعة، وهم في الحقيقة ليسوا مقاولين، بل كانوا ضباط مخبرات كبارا، وقد وجد الإخوة بحوزة هؤلاء الضباط بعض الخرائط التي تشرح خطة اقتحام المدينة، وكان هؤلاء الضباط يتجولون في أحياء الفلوجة لمسح المنطقة، ووضع اللمسات الأخيرة على خطة مهاجمة الفلوجة، ولما تمكن الإخوة من قتلهم تذرعت أمريكا بتلك الحادثة لمهاجمة المدينة، وإلا فإن التهديد كان قائماً قبل ذلك ومُعَدّاً له قبل مدة ليست بالقصيرة، وقد أراد الصليبيون كسر شوكة المجاهدين من خلال البطش بهذه المدينة العصية على جبروتهم.

فَصْلٌ فِي دُخُولِ ابْنِ مَنْصُورٍ أَرْضَ الْمَعْرَكَةِ

قال ابن منصور: ما إن اقتربنا من مفرق الفلوجة على طريق المرور السريع حتى وجدنا عشرات الشاحنات والسيارات المدنية تصطف على جانبي الطريق، لكننا لم نتوقف وواصلنا السير حتى وصلنا قرب مفرق الفلوجة، فوجدنا السيارات متوقفة على بعد ما يزيد على ثلاثمائة متر من حواجز إسمنتية تسد الطريق، وتقف عليها قوات أمريكية.

نزلنا من السيارتين وبدأنا نستكشف الموقف، فسألنا بداية أصحاب السيارات والشاحنات المتوقفين عن ظروف إغلاق الطريق، قال بعضهم: إنه يقف منذ منتصف الليلة الماضية على أمل أن يفتح الطريق لكن الأمريكان لا يسمحون لأحد بالمرور سواء القادمون من بغداد في طريقهم إلى الفلوجة أو حتى إلى الأردن وسورية، أو القادمون من الأردن وسورية في طريقهم إلى بغداد. طلبت من الزملاء أن يبقوا إلى جوار السيارتين على أن يأتي معي ليث بالكاميرا ونذهب إلى الجنود الأمريكيين لتحدث ونتفاوض معهم، ونحاول أن نقنعهم بأن يسمحوا لنا بالمرور.

حينما اقتربت من الجندي الأمريكي اطلع على هويتي الصحافية، وكان واضحاً أنه قائد سرية وليس مجرد جندي، فقد كان يصدر الأوامر لكل من حوله، ثم سألني بحزم - بعدما عرّفته بنفسي - قائلاً: وماذا تريد؟ قلت له ببساطة شديدة: نحن فريق تلفزيوني، ونريد أن تسمحوا لنا بالدخول إلى مدينة الفلوجة. قال: الطريق مغلق إلى الفلوجة وغير مسموح لأحد بالدخول. قلت له: ربما لا تسمحون للناس العاديين ولكننا صحافيون ومن حقنا أن ندخل حتى ننقل للناس ما يجري داخل المدينة. قال: القرار ليس لك أو لي في هذه المسألة ولكن يجب أن أرفع الأمر إلى القائد. قلت له: لا بأس ارفعه للقائد. وقفت إلى جوار ليث وكنا نرقب الوضع الذي بدا متوتراً إلى حد بعيد، فقد كان صوت الضباط يأتي واضحاً عبر جهاز الاتصال الذي يحمله قائد الحاجز فكان كله أوامر وصراخ بصوت مرتفع.

في هذه الأثناء وصلت سيارتان من سيارات الدفع الرباعي إلى حيث كنا نقف، فقد كانوا من المرتزقة الذين يعملون مع الأمريكان وهؤلاء كانت تفتح لهم كل الطرق المغلقة، كانت كل سيارة بها أربعة منهم وكانوا حليقي الرؤوس ووجوههم قاسية الملامح، ويرتدون ملابس مدنية عليها دروع مضادة للرصاص ويحملون بنادق آلية أمريكية من طراز إم ١٦، توجه أحدهم إلى قائد الحاجز الذي تحدثت معه وكان يحمل ورقة فأعطاه إياها وتحدثت معه بالإنجليزية بلهجة تشير إلى أنهم أمريكيون، أما السيارات التي كان يبدو أنها حديثة وجديدة فكانت تحمل لوحات زرقاء خاصة لإمارة خليجية.

جاء الرد بالرفض، وحينما حاولت النقاش مع قائد الحاجز قال لي: ليس من صلاحياتي أن أفعل شيئاً في هذه المسألة، لقد رفعت طلبك إلى القائد فرفعه إلى قائده بنفس التفاصيل التي ذكرتها أنت مع كامل بياناتك وبيانات المحطة

التليفزيونية التي تمثلها وجاءني الرد بالرفض، نحن في حالة طوارئ، وحتى تعلم أن الأمر صعب جداً، فهؤلاء -وأشار إلى المرتزقة- متعاقدون مع الحكومة الأمريكية ولديهم تصريح بالمرور من أي نقطة عسكرية، ومع ذلك فقد جاء الرد بالرفض لهم مثلك.

قلت له: هل الطرق إلى الفلوجة كلها مغلقة أم هذا الطريق فقط؟ قال: ما أعرفه هو ما أقوم به من إغلاق هذا الطريق، ويمكنك البحث عن طرق أخرى، لكن ماؤكد لك أن المدينة محاصرة. قلت له: طلب أخير، هل يمكن أن تسمح لنا أن نفتح طبق الإرسال في سيارتنا هذه التي تراها هناك وأن نرسل رسالة مصورة إلى محطاتنا التليفزيونية عن الوضع هنا. قال وقد تغيرت لهجته قليلاً: هذه منطقة عسكرية مغلقة وغير مسموح لكم بالتصوير، عليك الانسحاب أنت وفريقك التليفزيوني منها وعدم التصوير هنا.

وجدت حماسة من جميع الزملاء، وقال حامد حديد: هناك عدة طرق أخرى غير هذا الطريق. وعدد لنا أكثر من خمس طرق منها الطريق القديم أبو غريب - خان ضاري-، وعامرية الفلوجة، وطريق سدة الفلوجة الذي يقع على نهر الفرات، قلت له: لا نريد استخدام طرق معروفة، ولكن ابحث لنا عن أقل الطرق استخداماً، ويفضل أن يكون طريقاً زراعياً غير مطروق، فرما قامت القوات الأمريكية بإغلاق الطرق الرئيسية وتركت الطرق الزراعية مفتوحة فنجد من أحدها منفذاً. قال حامد: إذاً نجرب طريق النعيمية فهو من الطرق التي لا يعرفها إلا أهل الفلوجة والمناطق المجاورة لها ويدخل المدينة من جهتها الجنوبية عبر حي الشهداء.

اتفقنا وبدأنا المسير، سلكنا طريقاً ترابياً مليئاً بالحفر والصعود والهبوط، وكانت بعض السيارات تسلك نفس الطريق، وكانت الطائرات المروحية الأمريكية تحلق

حولنا بكثافة.

أوقفنا سيارتنا إلى جوار الطريق وقلت للزملاء: سنذهب لنكرر المحاولة أنا وليث مرة أخرى. اتجهت إلى الجنود الذين كانوا قريبين للغاية، وما إن اقتربت حتى صرخ عليّ أحدهم أن أتوقف مكاني ولا أتقدم، وقفت ورفعت له هويتي الصحافية وقلت له: أنا صحفي، ونريد التحدث إلى قائد الحاجز. جاءني قائدهم وتحرك نحوي فيما كان الآخرون في وضع استعداد تام لإطلاق النار، قال قائدهم وكان يبدو عليه التوتر الشديد: ماذا تريد؟ قلت له: نحن فريق من قناة فضائية، وهذه هوياتنا ونريد الدخول إلى الفلوجة. كان القائد متوترًا وصارمًا إلى حد بعيد، ولم يفتح أي مجال للحوار أو النقاش أو التفاهم، وقال بلهجة حازمة: هذه منطقة عسكرية مغلقة وغير مسموح لأحد بالدخول. قلت له: ولكننا صحفيون. قال بنفس اللهجة التي لا تحتمل النقاش: قلت لك غير مسموح لأحد بالدخول وعليك الابتعاد الآن عن هذه النقطة.

قلت له: سؤال أخير، هل يمكن أن تسمح لي بأن أفتح جهاز الاستلايت وأرسل لمخطتي التلفزيونية رسالة من هذا المكان؟ استشاط الجندي غضبًا هذه المرة وقال لي بلهجة حازمة وقد بدا أن صبره قد نفذ: إن لم تغادر المكان خلال خمس دقائق أنت وفريقك التلفزيوني سأفتح عليك النيران.

على بعد خمسين مترًا فقط وجدنا طريقًا منحدرًا يؤدي إلى مخزن لبيع أسطوانات الغاز، فنزلنا بالسيارات في المنحنى ووقفنا تحت أشجار كثيفة، وقلت لحامد: هل نحن ما زلنا بعيدين عن الفلوجة؟ قال وهو يشير إلى منازل لا يزيد بعدها عنا أكثر من كيلو متر: هذه هي الفلوجة يا أحمد. قلت له: إذا كانت هذه هي الفلوجة أعتقد أننا نستطيع أن نذهب سيرًا على الأقدام. قال: لكن كيف نذهب والطريق مكشوف والطائرات المروحية كما تراها تحوم في السماء، ونحن

نرتدي سراويل وقمصاناً وأهل المنطقة لا يرتدون إلا الجلباب، ومعنا أجهزة ثقيلة لا نستطيع حملها. قلت له: فلنحاول تدبر الأمر ولكن ابحث لنا في أمر الذهاب سيراً علي الأقدام لا سيما إن كنت تعرف أحداً من أهل المنطقة يكون دليلاً لنا. قال: سأحاول تدبر الأمر.

لمحت سيارة بيضاء صغيرة قادمة من جهة الفلوجة من خلال هذه المنطقة الصحراوية القاحلة، وكانت السيارة تتهادى وتقترب ببطء من المكان الذي كنا فيه، لم تفارق السيارة عيني وأنا أرقبها تتهادى بين الوديان فتظهر تارة وتختفي أخرى، حتى اقتربت، فأسرعت تجاهها وحينما وصلت أشرت إلى سائقها فتوقف، قلت له: من أين أنت قادم؟ لاحظ لهجتي المصرية، فتوجّس قليلاً ثم قال وهو ينظر إليّ شزراً: وماذا تريد؟ قلت له: لا شيء، نحن من قناة فضائية نريد أن ندخل إلى الفلوجة حتى ننقل ما يحدث فيها إلى الناس من خلال التلفزيون، ومن الصباح ونحن ندور على الطرق فوجدناها كلها مغلقة، لذا نبحت عن أي طريق يمكن أن يدخلنا إلى المدينة، ولو ساعدتنا نكون لك من الشاكرين. قال لي: أنا قادم فعلاً من الفلوجة، وهذا الطريق لم يغلقه الأمريكيون لأنهم ربما لا يعرفونه، فهو طريق ترابي يسير بين الوديان القاحلة كما تراه لكنه خطر، وكان المهربون يستخدمونه من قبل، ولولا أنني كنت بحاجة إلى بعض الإسمت لأرمم جانباً من بيتي ما خرجت، وهذه هي المرة الرابعة التي ذهبت وجئت فيها من هذا الطريق اليوم، بعدما أغلق الأمريكيون كل الطرق المؤدية للمدينة، لكنني قررت أن تكون هذه هي الأخيرة لأن الطيران يحوم في المكان، وهناك قتال متقطع هنا وهناك، ولدي أطفال صغار ولا أريد أن أجازف أكثر من ذلك.

كدت أطيّر من الفرحة بعدما عرفت منه أن هناك طريقاً يمكننا الدخول منه إلى المدينة، فقلت له: أرجو أن تساعدنا في الدخول من هذا الطريق، لأنك

ستكون بذلك تساعد أهلك من أهل الفلوجة بأن ننقل للناس معاناتهم وهم تحت الحصار وكذلك ما يدور في المدينة. رفض طلبي.

عدت برفقة حامد إلى الرجل، وما إن رآه حامد سلم عليه سلام من يعرفه، تحوّل الرجل من الرفض إلى التردد وسرعان ما وافق، وقال وهو يركب سيارتنا: توكلوا على الله. قلت له: تعال هنا إلى جوار أبي عمر أنت تعرف الطريق. قال: لا، اجلس أنت مكانك وأنا سأجلس خلف السائق وأوجهه.

قبل أن نتحرك أخبرت الزملاء بالوضع وخطورته، وقلت لحامد: لا ينبغي أن نجبر أحداً من الزملاء على أن يخوض هذه التجربة الخطرة معنا، فالله هو الحافظ، ولكن من الممكن أن تقصفنا هذه الطائرات المروحية بالصواريخ أو يرانا هؤلاء الجنود من وراء التلال فيطلقوا علينا قذائف الدبابات؛ لأن الطريق مكشوف وخطر كما يبدو، لذا يجب أن نضع الزملاء جميعاً في الصورة ونخيرهم بين العودة إلى بغداد أو مواصلة الطريق معنا.

أَحْدَاثُ لَيْلَةِ الْاِثْنَيْنِ ١٥ صَفَرٍ

قال أبو أنس: حتى إذا كان يومُ الأحد ليلة الاثنين، وقد تكامل الحشد وتحميا الجيش واشترأبت الأعناق تنتظرُ إشارة البدء ولحظة الصفر، تتالت الأحداثُ سِرَاعًا ففي نحو الثانية بعد منتصف الليل تجرأت ثلاثُ سيارات (همر) فاقتحمت المدينة من ناحية الحي العسكري فتصدى لها صقور العز وأمطروها بحمم الموت فاحترقت غيرَ مأسوف عليها.

وكَعَ^٧ بقية الرتل وأحجم عن الإقدام وثقلت منهم الأقدام خوفًا من الحمام^٨ فتقهقروا، وأقبلت -وكالعادة- خفافيش الظلام الطائرة، وأمطرت المجاهدين بوابل من الرصاص المنهمر، وألقت عليهم القنابل العنقودية واستشهد في هذه المواجهة البطل (خطاب) شابٌ في نحو العشرين من عمره من اليمن أسدٌ مقدام، وفاحت منه رائحة المسك كأطيب ريح أنت واجدُها، وتبعه أخوه من جزيرة الحبيب محمد ﷺ محمله ويكنى (المقداد) أحد الأسود، وتقدم الحجي ثامر من الرمادي (وهو ثامر مبارك الدليمي من أكبر عشائر الأنبار) ليسحب جثامين إخوانه، وحاول الإخوة منعه فأبى واقتحم فجاءه الأجل.

مَنْ أُصِيبَ وَاسْتَشْهِدَ

اسْتِشْهَادُ الْحَجِّي ثَامِرٍ

قال أبو أنس: لقد أصيب الحجي ثامر قبل استشهاده بليلة فكان يتحسّرُ، ويعضُّ شفتيه ألماً على فوات الشهادة وأن المنية أخطأته.

قال أبو حمزة: وأما عن كيفية استشهاده؛ فبعد أحداث الفلوجة الأولى التي

^٧ كَعَ تأتي بمعنى نكص علي عقيبته، وجئن... ونحو هذا.

^٨ الحمام هو الموت.

بدأت بعد مقتل الأمريكان الأربعة وإحراق جثثهم، كان الحاج ثامر على رأس مجموعة من المهاجرين والأنصار يرحلون في الصحراء والطرق الخارجية يلتمسون المأوى ويُغيرون على العدو.

ولما لاحت نُذُرُ الهجوم على الفلوجة نزلوا حمايتها، وعند بدء الحصار كان الحاج موجوداً مع إخوانه في المنطقة الصناعية وما جاورها، وبسبب قلة عدد المجاهدين مع اتساع المنطقة وكثرة المنافذ، تمكن الأمريكان من دخول الحي، وفي منتصف الليل دار اشتباك عنيف بين الإخوة المجاهدين وجنود "المارينز" المتسللين فاخترقت رصاصة صدر أحد الإخوة، ورجع الحاج لينقذ أخاه فأصابه قناص في رأسه فسقط شهيداً رحمه الله، وفي تلك الليلة نفسها استشهد الأخ خطاب وأبو فارس بعد ذلك فرحمة الله على الجميع، وبعدها بعدة أيام أصيب العبد الفقير فجلست أبكي نفسي في البيت، ولأن الشهادة تخلفتني عن هؤلاء الأحبة فقلت هذه الأبيات:

رجل على الشوك يسير باكياً
في ظلمة الليل البهيم منادياً
أين الرفيق يعالج المحتاج
من للضعيف معيناً وهادياً
كواكب النور مضت تترنم
من باع مثلنا يطير عالياً
نحن الذين تاجروا لربهم
الصادقون الراجحون بنادياً
قوافل الشهداء برق خاطف
ريح العبير تحفهم فحنانيا

أَيْنَ الصَّدِيقِ وَالرَفِيقِ بِمَحَنَةٍ
 دَامَتْ عَلَيَّ فَلَا حَبِيبًا حَادِيَا
 وَحَدِي وَحِيدًا أَكَابِدَ الْحَسْرَاتِ
 هِيََا خَذُونِي فَلَا أُرِيدُ مَعْزِيَا
 حَسْبِيَ أَخِي بِأَنِي أَحْبَبَكُمْ
 هَلْ يَفِيدُ الْحُبَّ قَعِيدًا جَانِيَا

إِسْتِشْهَادُ أَبِي فَارِسٍ الْأَنْصَارِيِّ

قال أبو أنس: أُصِيبَ فِي هَذَا الْقَصْفِ الْأَخُ الْفَاضِلُ أَبُو فَارِسٍ مِنْ عَشِيرَةِ الْبُوْعَيْدِ (مِنْ الْجَزِيرَةِ نَاحِيَةِ الرَّمَادِيِّ)، وَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْأَلَمُ وَحَمَلَهُ أَحَدُ الْإِخْوَةِ فِي صَنْدُوقِ الْ(بَيْكِ أَب) وَمَضَى بِهِ إِلَى الْمُسْتَشْفَى الْأَهْلِيِّ، وَكَانَ الْعُلُوجُ قَدْ تَقَدَّمُوا مِنْ نَاحِيَةِ الْمَنْطَقَةِ الصَّنَاعِيَةِ فَأَبْصَرُوا السَّيَارَةَ فَأَمْطَرُوهَا بِوَابِلِ حَمَمِهِمْ فَجَا الْأَخَ السَّائِقَ وَأُصِيبَ الْأَخُ أَبُو فَارِسٍ إِصَابَةً الْمَوْتِ فَمَضَى إِلَى اللَّهِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ الْخَوْفَ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ طَرِيقًا إِلَى قَلْبِهِ أَبَدًا، لَقَدْ كَانَ الْخَوْفُ يَخَافُ مِنْ قَلْبِ أَبِي فَارِسٍ، وَقَدْ كَانَ يَتْلَهَفُ عَلَى عَمَلِيَةِ اسْتِشْهَادِيَةِ وَيُلْحُ فِي ذَلِكَ وَالشَّيْخُ أَبُو مَصْعَبٍ الزَّرْقَاوِيُّ يُؤْخِرُهُ وَيَتَأَنَّى^٩ بِهِ وَيَدْخِرُهُ لِلْمُلَمَّاتِ، بَكَى مَرَّةً فِي إِثْرِ عَمَلِيَةِ كَبِيرَةٍ كَانَ قَائِدَهَا وَأُصِيبَ فِي رِجْلِهِ، فَكَانَ يَبْكِي وَيَقُولُ: لَوْ كَانَ فِيَّ خَيْرٌ لِأَصْطَفَانِي اللَّهُ شَهِيدًا!

الْمُصَابُونَ

قال أبو أنس: أُصِيبَ الْأَخُ أَبُو ثَابِتٍ مِنَ الْيَمَنِ، وَأُغْمِيَ عَلَيْهِ وَلَمْ يُفَقَّ إِلَّا فِي بَغْدَادٍ، وَأُصِيبَ أَيْضًا أَبُو حَمْزَةَ الْفِلَسْطِينِيِّ وَنُقِلَ إِلَى الْمُسْتَشْفَى، وَفِي الْجَوْلَانِ انْبَرَى بَعْضُ الضَّرَاغِمِ^{١٠} يُلْقَمُونَ مَدَافِعَ الْهَاوِنِ حَمَمَ الْمَوْتِ هَدَايَا لِلْأَمْرِيكَانِ حَتَّى أَتَخَنُوا

^٩ يتأنى أي يتمهل.

^{١٠} من أسماء الأسد واحده ضِرْغام.

فيهم، وجاءهم الصَّريخُ أن حَسْبُكُمْ كُفُّوا قبل أن يَسْتَمَكِنَكُم الكفار، فأبَوا، فَمَضَوْا بقذائفهم حتى جاءهم قصفُ الموت ليفتح لهم بابًا إلى الجنان - بإذن الله - فاختر الله منهم أربعة مَضَوْا إلى رَكِبِ الخالدين.

القصفُ الأمريكي

قال ابن منصور: كان فيه تطورات عديدة عما حدث في المدينة في النصف الثاني من اليوم، حيث قصفت الطائرات الأمريكية في الساعة الرابعة والنصف عصرًا منزل أحد المسلمين في حي المعلمين بصاروخ أحدث حفرة كبيرة في مدخل البيت وهشمت أجزاء منه، وفي الحادية عشرة ليلاً، كانت الفلوجة تتعرض لقصف شديد من القوات الأمريكية المحاصرة لها، وكانت الطائرات المروحية تجوب أنحاء المدينة وكذلك طائرات الاستطلاع، وقامت معركة طاحنة بالقذائف بين المجاهدين والقوات الأمريكية استمرت حوالي نصف ساعة خلال وقت الحصاد وما قبله، ولأننا كنا في الليل فلم نكن نرى سوى برق بعض القذائف من بعيد، أما الأصوات فقد كانت واضحة تمامًا، وتصاعدت العمليات في أطراف المدينة وقصفت القوات الأمريكية سيارات كانت تتحرك بعد موعد فرض حظر التجول كان بها مدنيون، كان كثير من السكان الذين يسكنون في الأحياء التي تقع في أطراف المدينة مثل الحي العسكري قد غادروها إلى أماكن أكثر أمنًا لدى أقارب لهم داخل المدينة، وكنت أشاهد من السطح دخانًا في بعض أطراف المدينة جراء قصف الطائرات الأمريكية، علمنا أنه كان يتصاعد من بيوت قصفت من حي الجولان الذي كان أكثر أحياء المدينة تعرضاً للقصف بسبب وجوده على خط تماس رئيسي مع القوات الأمريكية التي كانت على الجانب الآخر من نهر الفرات.

حَوَادِثُ يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ

قال أبو أنس: في الصباح انطلقتُ برفقة أحد الإخوة إلى المقبرة التي في أطراف الجولان عند مسجد المعاضيدي وألقينا نظرة الوداع على الشهداء وبكىنا عليهم.

بدا أن المعركة قد استعَرَّ أَثْوُهَا^{١١}، وأنها في هذه المرة معركةٌ لا ككل معارك الكَرِّ والفَرِّ والكَمائن السابقة، وتراجمت بالناسِ الظنونُ وسَرَتِ الشائعات في هَشِيمِ النفوسِ المريضةِ وتَداعى بعضُ الحثالةِ إلى وجوبِ خروجِ المجاهدين حِفَاطًا على المدينة وأهلها.

حَرَجْتُ من المقبرة قبل تمام الدفن، حَدَّثَنِي نفسي أن أقوم في جموع الحاضرين من أهل المدينة واعظًا ومذكرًا وحاتًا على الجهاد ومحرضًا، فلقد كان استشهاد هذه الكَوَكَبَةِ من الأحباب مؤثرًا جدًّا، لكنني ألزمتُ نفسي الصمت وآثرت السكوت لأننا كنا -نحن المهاجرين- لا نزال نؤثر الاختفاء ونفضِّل التواري خوفًا من عيون الشر المنتشرة.

فَصْلٌ فِي مَعَارِكِ حَيِّ الْجَوْلَانِ

قال أبو أنس: تابع الإخوة أمر الدفن حتى إذا أوشكوا على الفراغ ونَفَضَ أيديهم من التراب بدأت طلائع العدو بالتقدم من ناحية الجولان، وكان من أوائل من بَصُرَ بهم بطل الجولان وقائده أبو خطاب وكان حاضرًا في المقبرة فانطلق مسرعًا برفقة بعض الإخوة من مجموعتين، فَأَجْلَبُوا بِحَيْلِهِمْ وَجَلَبُوا أَسْلِحَتَهُمْ واستصرخوا رجالهم وبدأوا بالانتشار في الأزقة والفروع، والتحق بهم أبو عمار السوري وأبو إبراهيم المصري وهما من أعمدة المعركة وفرسانها إلى نهايتها، وانضمت إليهم سريعًا مجموعة عبد العزيز وهم نحو ٧ إخوة من الجزيرة والكويت

وليبيّا.

وكانوا قد قَدِمُوا من بغداد إمدادًا لإخوانهم وإرصادًا للعدو، وصاح أبو خطاب: الله أكبر جاء المدد. وتلاحق المجاهدون، ودخلت طليعة العدو رَجَالَةً من ناحية المقبرة، وانطلقت رصاصات الجولان الأولى من بندقية أبي علاء الأنصاري من الفلوجة، وتَقَهَّقَ الجند، وتقدمت المدرعات والدبابات، وانثدب لها (أبو مرضية اليماني) وجهًا لوجه وهو يمتشق قاذف ال(آر بي جي) وبينه وبين الدبابة نحو خمسة عشر مترًا، وبدا المنظر مُغْرِبًا أشبه ما يكون بعصفور يواجه فيلًا ضخماً ثائراً! وسمّى الله وكبّر وانطلق الصاروخ ليستقرّ في جوف الدبابة، كما وأُحْرِقَ همراً وقنص اثنين من الأمريكان.

وأثناء هذا أَقْبَلَ رَكْبُ أَبِي قدامة البغدادي وفي طَيِّهِ^{١٢} سالم الذي أحرق الله على يديه أعداداً جَمَّةً من آلياتٍ ومُدَرَّعات العدو، أَقْبَلَتْ دبابةٌ فَصَكَّهَا بالقاذفة فأُطِنَ^{١٣} بُرْجَهَا، فتقدمت مُدَرَّعة من ناحية مسجد أبي أيوب فأحرقها أحد الأنصار الأبرار.

قال أبو أنس: وأقبلت السميتات (طائرات الهليكوبتر) فوجّه إليها أبطالُ الجولان وعلى رأسهم الأنصاري عبد الستار أبو حسن والليبي أبو ناصر بال(بي كي سي)، فأسْقَطَ كلُّ منهما طائرة، وكان من أمر أبي حسن أنه جاء إلى أبي ناصر يستعين به لإصلاح ال(بي كي سي) وأنها لا تَرْمِي إلا طلقة طلقة، وفي هذه اللحظة أَقْبَلَت الطائرات فسَمَّى الله وكبّر ورمى، فَلَفَظَتْ رشاشته ٩٠ طلقة صلياً من غير توقف بحمد الله تعالى، وكانت حصيلة اليوم الأول نحو ٣ دبابات و٣ مروحيات وعدد من الهمرات والمدرعات، واستشهد في هذه المعركة علي عيد غريب السويداوي من الفلوجة رحمه الله.

^{١٢} أي معه.

^{١٣} أُطِنَ أي دَمَّر.

قال أبو حمزة: جاءت الفلوجة الأولى ولحق الليبي مع مَنْ لحق بها من المقاتلين وبدون ترتيبٍ مُسَبِّقٍ وحدث نفسي وأبا ناصر الليبي في الجولان.

لَمَّا دَخَلَ الأمريكيان أطراف الفلوجة بعد حادثة المدربين الأربعة وكنتُ حاضراً على قصّتهم، أقولُ جاء الأمريكيان فجأةً إلى أطراف الجولان فلجأت إلى بيتِ الشَّهيد القائد عمر حديد فإذا به يزأر في إخوانه وأولاد عمّه: هيا اخرجوا بسرعة كل واحد يأخذ سلاحه. فتنازعتُ أنا وأخوه سلاح (كلاشنكوف) بلا جُعبة، فقط السلاح وشاجور وحيد، مرة أحمّله ومرة يحمله، حتى فتح الله عليّ في أول يومٍ بسلاحٍ غنيمةً من الحرس الوثني.

خرج عمر حديد وإخوانه مكشوف في الوجوه والنَّاس في عَجَبٍ يقولون لهم غَطُّوا وجوهكم والرَّجل يقولُ وبصوتٍ عالٍ: اخرجوا دافعوا عن دينكم عن عِزِّكم عن أرضكم. ولا حراك لأحدٍ، فأشفقتُ على عمر، ماذا لو سيطر الأمريكيان؟!، ماذا لو دخلوا ووشى به الواشون؟ لكنَّ الرجل كان يريدُ الله أحسبه والله حسيبه لذلك رَفَعَهُ اللهُ في الدُّنيا وإنَّه إن شاء الله في الآخرة أرفع.

لَجَأْنَا إلى الجولان وبدأتْ المعركةُ حامية الوطيس وبدأتْ حِمْمُ النَّارِ تُصَبُّ على المدينة واستطاع أبطال الجولان وعلى رأسهم أبو ناصر وأبو عَمَّار السُّوري الأمير أن يحققوا أوَّلَ مكسبٍ في أوَّلِ تجربةٍ كانت الفصل.

تَمَّ تَحْيِيدُ الطَّيْرَانِ (الهليكوبتر) السَّمْتِيَّة، فحال دخولها مجال المجاهدين أمطروها بوابلٍ من رصاص (البيكا والكلاشن) فهوت أوَّلها.

وفَرَّ بقيتهم، فكَبَّرْنَا وكَبَّرْنَا وحمَدْنَا الله، وبعدها تجرَّأنا على العدوِّ وتمَّ انسحاب السَّمْتِيَّات من المعركة، ودارت الحربُ وكان لأبي ناصر السَّبْقُ حيثُ أُسْنِدَ إليه إمرة سرية من سرايا الجهاد المرابطة حذاء العدوِّ والتي يتنزَّل فيها الموت كالسَّيل

الجارف، وحينئذ وفي صباح أحد الأيام جاء أحد الإخوة يقول: سمعت في الحراسة دقًا خفيًا منتظمًا يصدر من هذا البيت أظن أنهم قناصة تقدموا في الظلال وسيطروا على البيت لأن المنطقة حينها كانت خالية من السكّان. فأرسلت من يتحقق من ذلك من جهة الإخوة الأكراد فأكدوا الخبر، فاجتمعنا وعلى رأسنا أبو عمّار السّوري الأمير وأبو ناصر وأمير الأكراد جُند الله، وبعد الاستشارة اجتمع الرّأي أنه لا بد من مهاجمة البيت لأسباب كثيرة أهمّها: أنّ القناصة إذا سيطروا عليه شلّوا حركتنا واقترب العدو أكثر، ولا بُدّ من التضحية، فتمّ ترشيح أبي ناصر ليكون أميرًا على سرّيّة الاقتحام، وتمّ تحديد كيفية الهجوم وأفراد المجموعة، وودّعهم على بركة الله، وكان من المنتظر أن تبدأ العملية بعد ساعة، فجاء من يقول: إن أبا ناصر حُوصِرَ هو ومن معه. وسرى الخبر في الجولان وانتشر انتشار النار في الهشيم، ففرغ النَّاسُ إلينا، وكان ممّن فرغ عمر حديد والشيخ أبو أنس - تقبلهما الله - وغيرهم من أفاضل وأكابر الإخوة المجاهدين.

وبالفعل رأينا السّمتية تنادي بالمكبرّات: إنكم محاصرون، وإننا سنُبِيدُكم خلال نصف دقيقة. فزحفت المجموعات باتجاه الإخوة وجاء إلينا المجاهدون من كل صوبٍ وتمّ توزيع النَّاسِ لفكّ حصار الإخوة.

وبينما نحن كذلك إذا بالتكبير ينطلق من الداخل وقذائف ال(آر بي جي) تهدّد حصون العدو علامة على أنّ هجوم أبي ناصر قد بدأ، ولُيْشِرَ أنّ القوم غير محاصرين، وبعد نصف ساعة من الاشتباك سيطر أبو ناصر على بيت القناصة، وكان هناك بيت آخر مجاور لم يكن يعلم الإخوة وجود أمريكان فيه، حيث قاموا بفتح النَّار على أبي ناصر ومجموعته إلّا أنّ الله سلّم، وغنم الإخوة أسلحة القناصة وقتلوا من داخل البيت ورجع أبو ناصر بشهيدٍ وجريحٍ فوجد النَّاسُ في انتظارهم، فقال: ما لكم؟ قالوا ظنّناك حوصرت. قال: الحمد لله لا. وهذا البيت تنأقلتُهُ

وسائل الإعلام تصويرًا.

وفي تلك الأثناء بدأت أكبر معارك الجولان وأشدّها ضراوةً وأطولها مُدّةً، لكن لأن المشيئة الإلهية هي التي تُدبّر وتُوفّق، ونظرًا لأن النّاس قد اجتمعوا لأجل فكّ الحصار وسدّوا الثغرات تمّ صدّ الهجوم وتكبيد العدو خسائر فادحة في الأرواح والمعدات، حيث تمّ تدمير دبّابتين ومُدْرعة، وأُسْقِطَت طائرةٌ والحمد لله، وهذا من تدبير الله لنا، إذ لو جاء العدو بهذه القوّة قبل قضيّة الحصار بدقائق لدخلوا الجولان بكل سهولة، لكن الله هو الموفق والمسدّد والمُدبّر، فمعركة الفلوجة كان لها ما لها.

قال أبو حمزة: وصل أبو محمد الجزائري إلى بلاد الرّافدين قبل الفلوجة الأولى، ونزل على الشّيخ عثمان المعاضيدي، ولأن الشّيخ رحمه الله وأسكنه فسيح جنّاته كان مجاهدًا صوفيًا، وصاحبي سلفيٍّ متشدّد؛ طلب أن يسكن هو وعبد الهادي اليمني مع بعضهما في شقّة وحدهما وقد كان، ودارت الفلوجة الأولى واشتدّت رحاها.

وبينما نحن في الجولان رأيتُ شابًا نحيفًا طويلًا به صلّع خفيفٌ يحملُ البكتا الروسي (جرينوف ثقيل)، وقد حوّرهما عسكريّو العراق لتستخدم مثل ال(بي كي سي)، وجاء مع المدد الذين هبّوا للمُساعدة إخوانهم في الجولان.

ولما جاءت السّمتية، تقدّم أسدُ الجولان أبو ناصر الليبي إلى ساحة مفتوحة وبدأ يُمطّرها بوابلٍ من رشّاشة البيكا.

وقد كانت عاديّ أن أرفع من همّة الأبطال حتّى يلحقوا به ولتكون هناك غزارة ناريّة، ولكنّي فوجئتُ بهذا الشاب يخرج من غمار الناس مكبرًا، ثمّ اتخذ مكانه وبدأ يُمطّر السمتية (الطائرة الهليكوبتر) بوابلٍ من الإطلاقات وهو يُكبر ويُكبر،

وفجأةً كَبُرَ الجميعُ ثمَّ شاهدت دخاناً أبيضَ انبعث من مؤخرة الطائرة وبَدَأَتْ تهوي إلى الجحيم.

فاقتربت من الرَّجل الأسد وقلتُ له: جزاك اللهُ خيرًا، فوالله ما قَصَّرْتُ ولا خذلتُ. فما كان منه إلا أن قال بتواضعٍ وحياءٍ: "الحمدُ لله". ولم يَزِدْ، ثمَّ طلبتُ منه أن يبقَى معنا في الجولان فوافقَ الرَّجل، بل ورَحَّبَ بذلك، واستمرَّت المعركة، وفي كلِّ مرّةٍ يُثَبِّتُ الرَّجلُ أنه رجلُ الموقف.

قال لي يومًا وبالحرَفِ الواحد: "سبحان الله يا أخي لَمَّا أرى أبا ناصر جانبي في الضَّرْبِ أو الصِّفِّ والله أطمئن".

فحملتُ الكلمة إلى أبي ناصر تشجيعًا، وثانيًا ليعلمَ الرَّجلُ أنَّ أبا محمَّد يُحِبُّه، فقال: سبحان الله إنِّي والله في نفسي ما في نفسه، ولستُ أشكُّ أنه أشجعُ مني. ثم فاتحتُ أبا محمَّد في الانضمام والبيعة، فقال: أنا جنديٌّ مطيعٌ بلا بيعة، والبيعةُ شرفٌ ودينٌ فمرحبًا بها، ومن لا يتشرَّفَ بذلك، ومن لا يحبُّ البيعة على الموت؟. فوالله لقد فرحتُ به فرحًا شديدًا وقلتُ في نفسي: هذا والله هو الكنز.

قال أبو حمزة: لما اضطررنا إلى مغادرة بغداد نظرًا لأُمُور كثيرة، غادرت وغادر معي أبو عمار السوري إلى نواحي الفلوجة ثم دخلنا إليها تقريبًا معًا، ثم شاءت الأقدار أن أكون معه في بيت عمر حديد وقت اقتحام الفلوجة الأول، وخرج كما خرجت بلا سلاح، وغنم كما غنمت، ثم تقدم الشهيد البطل باتجاه الجولان على غير تخطيط مسبق ووجدنا أنفسنا في حي الأكراد عند المدرسة، وهناك حاولت عدّة دبابات التقدم لكن الأخ البطل سالمًا تقدم فدمر أولها، ثم تابعوا التقدم فدمر الثانية الأخ محمد، وفي تلك الأثناء جاء الطيران السمتي، فأول من بدأ أو كان من أوائل من بدأ إطلاق النار تجاهها الشهيد أبو عمار بسلاحه الـ(آر بي جي) الذي كان معه، وبعدها أمطر جميع الإخوة السميتية بما تيسر معهم

من سلاح، وشوهد على إثره دخان كثيف ينبعث من مؤخرة الطائرة، فكبر أبو عمار وكبر كل من حوله وأخذت أعانقه ونتعانق جميعاً، فها هو العدو الأكبر يتهاوى أمام أعيننا، الآن حُيِّدَ أخطر سلاح ضدنا؛ الطيران السمتي، تجرأنا عليه، وكانت هذه أول مرة في العراق يتجرأ المجاهدون على الطيران، ولتصبح بعد ذلك عادة الأبطال في العراق لدرجة أنهم في بعض الأحيان كانوا يتمنون قدومها، وعرف العدو ذلك بعد عدة مروحيات سقطت، فما عاد يرسل غربانه لتقع في شبكة الصياد.

ثم تقدم الشهيد وتقدمت معه باتجاه (علوة المخضر) بالجولان وهناك قال لي هو والإخوة: أنت أميرنا. قلت له: لا، أنا لا أعرف المدينة جيداً ولا أين يمكن الدفاع والهجوم، لكن أنت يا أبا عمار سكنت بها، وأنت الأمير وأنا معك أخ وخادم. فرفض، وأصررت فوافق، ومضينا نرتب المجموعات ونرفع المعنويات، وكان لأبي عمار في ذلك الحظ الأوفر والنصيب الأكبر، فكان حقاً صاحبهمة عالية وكبيرة تزرع الثقة في نفس الجبان.

فكان إذا هجم العدو من مكان يدفع في الإخوة دفعاً، "تقدم يا بطل، من هناك يا أسد، الله أكبر أصبت الهدف، هكذا قتال الشهداء"، ونحو ذلك من التشجيع ورفع المهمة، مع حرص على إخوانه وعدم وجود أي معصية في وسطنا، وفي إحدى الليالي الحالكة صبّ العدو نيران حقه وحسده على الجميع، فأُصِيبَتْ وَأُصِيبَ الكثير من الإخوة، وتقدم العدو إلى مداخل المدينة واحتل حي الأكراد، لكن أبا عمار كان نعم الرجل في وقت الشدائد، فما وهن وما ضعف بل شد وكبر - وإلى جانبه ابنه عمار - يجر سلاحه ويقاتل بجانب أبيه يرفض الذهاب إلى أمه، حيث كانت المرأة من القلائل اللاتي رفضن ترك المدينة، فصبرت ووقفت مع المجاهدين، تحبز وتطهو وتغسل الملابس لهم، وذلك في بيت القائد عمر حديد مع

أُمّه وإخوانه.

مَذَابِحُ حَيِّ الْجَوْلَانِ

قال ابن منصور: أبلغنا السكان أن الطائرات قصفت بعض المنازل في حي الجولان الذي يقع شمال غربي المدينة، فذهبنا إلى هناك فوجدنا السكان مجتمعين حول بيت سقطت بعض القذائف على سطحه فاخرقته ودمرت أجزاء منه، بينما نالت قذائف أخرى بعض المنازل المجاورة، وقال بعض الحضور: إنها قنابل عنقودية؛ لأنها تناثرت على البيوت. وكان بعضهم يمسك بأجزاء من القذائف التي سقطت على المكان.

وقبل أن أغادر المكان كانت مكبرات الصوت التي تطوف بها آليات أمريكية على الجانب الآخر من نهر الفرات الملاصق لحي الجولان تطلب من السكان تسليم الذين قاموا بعملية قتل وسحل الجنود في شوارع المدينة، وكان المتحدث يتكلم اللغة العربية حيث كان أحد العرب المرتزقة العاملين مع قوات الاحتلال، فلم يكن المرتزقة كلهم أجانب بل هناك مرتزقة عراقيون وعرب يعملون مع قوات الاحتلال مترجمين أو حتى حراساً أمنيين؛ ولأن الصوت كان قريباً فقد طلبت من المصور أن يأتي معي لأقرب مكان يمكن أن نرى فيه تلك الآليات التي كانت تذيع هذه البيانات، لكن السكان حذرونا وقالوا: إنهم يطلقون النار على كل من يرونه. لكننا وجدنا الآليات تقترب حتى تمكنت أنا من رؤيتها من بين فراغات البيوت.

ذهبنا بعد ذلك إلى سوق المدينة، كان الباعة الذين عادة ما يُدخلون الخضار إلى المدينة في الليل أو الصباح الباكر ما زال لديهم بعض الخضروات والفاكهة معروضة في السوق، لكن الناس كانوا مضطربين إلى حد بعيد ولا يعرفون ما هي أبعاد ما يمكن أن يسفر عنه حصار المدينة.

أخبر أهل المدينة عن سقوط عدد من الصواريخ على أنحاء متفرقة منها لا سيما حي الجولان مما أدى إلى مقتل ثمانية من المدنيين، أول بيان أصدرته القوات الأمريكية كان يقضي بفرض حظر التجول على المدينة من الساعة مساء وحتى السادسة صباحًا.

قال ابن منصور: في هذا اليوم قرر الدكتور رافع العيساوي مدير مستشفى الفلوجة العام التي كانت تقع تحت سيطرة القوات الأمريكية وكذلك أطباء المستشفى تحويل العيادة الشعبية التي كانت تقع في قلب المدينة في شارع العيادة الشعبية في حي الجمهورية إلى مستشفى ميداني، فقد كان عدد القتلى والجرحى في ارتفاع مستمر، ولم يكن الناس يجدون مكانًا لإسعافهم إلى مستشفى الدكتور طالب الجنابي التي كانت في طرف المدينة الشرقي، ولم تكن كافية، كما أنها كانت تحت مرمى نيران القوات الأمريكية طوال الوقت، كذلك قاموا بتحويل عدة عيادات أخرى كانت تتواجد في أطراف المدينة إلى مستشفيات ميدانية، لكن الضغط الرئيسي كان على العيادة الشعبية بسبب موقعها في قلب المدينة.

بدأ الأمريكيون يفقدون صوابهم جراء الضربات المتتالية التي يتعرضون لها من قبل المجاهدين في الفلوجة وما حولها، فأصبحوا يردون على هذه الهجمات بالقصف بجنون وفي كل اتجاه، فكثر الضحايا من المسلمين العزل، ووقعت في تلك الليلة مذبحه مؤلمة ذهب ضحيتها عائلة من ستة وعشرين فردًا لم ينج منهم سوى رجل واحد وطفل رضيع.

كان الرجل الناجي يدعى خميس صالح النمراوي، وكان يسكن في منطقة قريبة من تواجد القوات الأمريكية في أطراف المدينة، فلجأ ومعه أشقاؤه الأربعة وزوجاتهم وأبنائهم إلى أحد بيوت الجولان، ونزلوا ضيوفاً على عائلة أخرى أقارب لهم ظناً منهم أن المكان أكثر أمنًا من بيتهم الموجود في أطراف المدينة، لكن

البيت الذي لجأوا إليه في أول يوم لإقامتهم فيه تعرض لقصف من الطائرات الأمريكية فهدم المنزل على كل من فيه، ولم ينج سوى الرجل وطفل رضيع.

كان من أهمها أن الغذاء بدأ ينفد في مدينة الفلوجة كما أصبحت هناك أزمة بنزين، وكذلك قمنا بتوجيه نداء وصلنا من الدكتور رافع العيساوي بدعوة أهل الفلوجة للتبرع بالدم حيث أن عدد الجرحى في ازدياد، كما أن الإمكانات الطبية بها عجز كبير، وأصبح هناك مشكلة أخرى هي مشكلة دفن الموتى، وأن هذه الحادثة تظهر أن القوات الأمريكية تعاني بشدة وسوف تواصل مثل تلك الجرائم خلال الأيام القادمة.

كما أن القصف أصبح شديداً للغاية، ويبدو أن المعركة أخذت تتطور بشكل كبير، ولأن المجاهدين يتحركون عادة في الليل فقد كان واضحاً أن هناك هجمات على القوات الأمريكية من كافة الاتجاهات، وأن نجاح المجاهدين في تدمير الوجود الأمريكي في النعيمية قد أعطى المجاهدين دافعاً لتصعيد الهجمات ودفع القوات الأمريكية في نفس الوقت لمحاولة الانتقام ومحاولة استرداد زمام الأمور.

جلسنا في الصباح ننتظر الساعة السادسة حيث ينتهي حظر التجول حتى نبدأ تحركنا في أنحاء المدينة ونعرف ماذا تم في الليل من هجمات، ذهبنا إلى أخطر المناطق وهي القوات الأمريكية ومستشفى الدكتور طالب الجناي والحي العسكري والمنطقة الصناعية، ما إن استدارت السيارة بنا من شارع السد إلى الطريق العام شرقاً وأصبح الحي الصناعي إلى يميننا وحي الضباط إلى يسارنا حتى هالنا ما رأينا، فقد وجدنا في مواجهتنا دبابتين أمريكيتين تسدان الطريق ومدفعيتها موجهة نحونا تماماً، بينما كانت قوات أمريكية بأعداد كبيرة تقوم بتمشيط الحي الصناعي إلى يميننا، فيما كانت قوات أخرى كبيرة فوق أسطح الورش فيما بدا أنها تمهد لعملية اقتحام جديدة للمدينة، ارتبكنا جميعاً لبرهة لكني قلت لأبي عمر: لا تتردد وواصل

الطريق. قال: الدبابات تغلقه ومدفعيتها موجهة إلينا. قلت له: لو رجعنا لقصفونا، كما أن القوات التي تملأ الحي الصناعي ترصدنا، وشارة (صحافة) واضحة على مقدمة السيارة، لا تخف واصل طريقك، وإذا وصلنا إلى الدبابات أبلغناهم أننا صحافيون، فإما أن يفسحوا لنا الطريق وإما أن يردونا.

كان القلق مستبداً بنا جميعاً، فنحن تحت القصف وفي عداد الموتى في أي لحظة، والقوات الأمريكية دائماً لديها مبرر لكل ما تقوم به، كما قتل عشرات الصحفيين منذ بداية الحرب على يد القوات الأمريكية، آخرهم كان في الفلوجة مصور تليفزيون محطة (إن بي سي) الأمريكية يوم الجمعة ٥ صفر لأنه كان يقوم بتصوير اشتباكات عنيفة وقعت شرق المدينة وتكبدت القوات الأمريكية فيها خسائر كبيرة، لكن لم يعلم أحدٌ عن تفصيلاتها شيئاً لأن الكاميرا والشريط قد دُمرا مع المصور، وبالتالي فمن الممكن أن نقتل نحن أيضاً ونصبح مجرد أرقام في أعداد الصحفيين الذين يقتلون كل يوم في العراق، لذلك فإن أصعب اللحظات تلك التي يجد الإنسان فيها نفسه فجأة تحت وابل النيران ولا يستطيع أن يفعل شيئاً سوى أن يختار ما بين أحسن الخيارات السيئة، وهكذا اخترت أن نواصل الطريق ونذهب في مواجهة الدبابات التي كانت تغلق الطريق أفضل من أن نشير الشبهات ونعود بشكل مضطرب فيطلقون النار علينا^{١٤}.

توجهنا مباشرة إلى مستشفى الدكتور الجنابي التي كانت على بعد أمتار من مكان الجنود الذين ظلوا يراقبوننا إلى أن وصلنا إلى المستشفى، وحينما دخلنا إليها وجدنا الدماء تغطي جانباً من أرضيات المدخل مما أوحى لنا أن الليلة كانت ليلةً

^{١٤} تعليق ابن منصور: لذلك فإن كثيراً من المصورين الحربيين وحتى المراسلين يعانون من أمراض نفسية بعد نهاية الحروب جراء ما يتعرضون له وما يشاهدونه، وفي دورة تدريبية للمراسلين الحربيين أخذتها علي يد ديفيد سايمور أحد المدراء السابقين في محطة (بي بي سي) عرض لنا ديفيد فيلماً أنتجته (بي بي سي) عن مراسلين ومصورين حربيين سابقين قاموا بتغطية الحروب في أفغانستان والبوسنة والهرسك وأماكن أخرى وكيف أن حياتهم قد دمرت بسبب ما لاقوه وشاهدوه في الحروب، فبعضهم أصيب بأمراض نفسية وآخرون أصبحوا مدمنين علي الشراب، لكن أيضاً هناك كثيرون احترقوا هذه الأعمال عشرات السنين وما زالوا يقومون بأعمالهم دون خوف.

دامية.

جاء الدكتور الجنابي فرحب بنا وأبلغنا أن المستشفى تعرض أيضاً للقصف من القوات الأمريكية في الليلة الماضية، وكانت آثار القصف بادية على واجهة المبنى كما أنه استقبل كثيراً من الجرحى أثناء الليل كان من بينهم خميس النمرائي، الذي فقد عائلته المكونة من ستة وعشرين فرداً في الجولان ولم ينجُ سواه وطفل صغير، وأدخلنا الدكتور الجنابي إلى غرفة كان بها طفلان جريحان أحدهما الطفل الناجي من مذبحه الجولان وكان عمره لا يزيد عن عام واحد، بينما كان الآخر عمره حوالي عام ونصف، وكانا يكيان والضمادات تغطي جسديهما، لم أستطع أن أتحمل بكاءهما مع الضمادات التي كانت تلف جسديهما.

أما خميس النمرائي، فحينما قابلته وجدته يهذي، وغير مصدق لما جرى ويقول منادياً الطفل الذي نجا والذي كان في غرفة أخرى: أنا أعرف صوته أحضروه لي، فقط أريد أن أشم رائحته، أريد أن أري هذا الصغير، أرجوك يا دكتور، أرجوك هذا صوت بكائه أعرفه من بين ألف طفل. كان مصاباً في رأسه ويده ورجله، قلت له: أرجو أن تخبرني باختصار بما حدث وكيف نجوت وحدك والطفل؟ قال: انضم إلينا ثلاثة من إخوتي مع زوجاتهم وأبنائهم طلباً للأمن وفراراً من القصف الأمريكي على بيوتهم، فكنا أربعة رجال وأربعة نساء والباقيون من الأطفال، وكان عدداً جميعاً ستة وعشرين فرداً، جاءت الطائرة فقصفت المنطقة، فقاموا جميعاً وهربوا إلى غرفة واحدة للاحتباء من القصف، وكنت أنا في طرف البيت، ويبدو أنهم من الفرع لم ينتهبوا للرضيع الذي كان نائماً فتركوه أو نسوه في الغرفة التي كانوا فيها، ثم جاءت الطائرة وقصفت الغرفة التي احتموا فيها طلباً للأمان فاستشهدوا جميعاً ولم يبق سواي والطفل، أما القتلى فهم ١٦ طفلاً و٨ رجال ونساء، هذه باختصار هي القصة.

وقد تكررت قصة هذه العائلة مع أكثر من شخص، فقد وجدت بعد ذلك يوم الجمعة شخصًا نجا وحده وقتلت كل عائلته اسمه صالح العيساوي، حينما ذهبت لأتحدث معه وجدته مثل المأخوذ الذي لا يكاد يعي أو يصدق ما حدث له أو ما يدور حوله.

وقد تصدرت قصة هذه العائلة الخبر الرئيسي في معظم وسائل الإعلام العالمية في ذلك الوقت بعدما قمنا ببثها، أما الجنرال (مارك كيميت) نائب قائد القوات الأمريكية حينما واجهه الصحفيون بما قمنا ببثه من صور تلك العائلة المنكوبة لم يجد جوابًا يقدمه للصحافيين إلا بقوله: فقط قوموا بتغيير هذه القناة التي تبث الأكاذيب.

حَيُّ الْجَوْلَانِ مَضْرَبٌ لِلشَّجَاعَةِ

قال أبو حمزة: رأى أبو عمار أن يطهر حي الجولان من المعاصي والذنوب، فمنع أن يجاهد فيه كل شارب سجائر أو يدخله، وكل غريب يدخل الحي ليلتحق بنا يسأله من أين أتى؟ ومن أرسلك؟ ومن تعرف؟ ولماذا جئت؟ وإلى غير ذلك حتى طهر الحي تمامًا من الجواسيس، فصار يُضرب به المثل في التنظيم والشجاعة والنكاية في العدو، وشاءت الأقدار أن يحاول العدو اقتحام المدينة من جهة السكة، أي من جهة حي الجولان، لكن أبا عمار وإخوانه كانوا لهم بالمرصاد فصدوهم وأرهقوهم.

وأذكر أنه في آخر حملات هذا العدو بدأ هجومه عند أذان الفجر، فتقدم القناصة ثم الدبابات، وتم صد أول هجماته وتدمير دبابة له، فتوقفوا ساعة ثم أعادوا الكرة فتم تدمير أخرى، ثم رجعوا وتوقفوا ساعة، ثم أعادوا الكرة فتم تدمير أخرى، ثم رجعوا وتوقفوا ساعة ثم تقدموا ثالثة وكان الإعياء قد بلغ بنا كل

مبلغ وقاربت الساعة من الثالثة عصرًا وأوشك سلاحنا على النفاد وكثرت الجراح بلا شهداء والحمد لله، فتم دحره وتدمير بيت كان به القناصة، وأذكر ساعتها أن أبا عمار قال: قم شجع الإخوة فما عدت أستطيع القيام. فقلت: قم أنت والله ما أستطيع. وهكذا كان حالنا من التعب والإرهاق واندحر العدو في هذا اليوم، وما عاد لمثلها والحمد لله، وصار حي الجولان مضرب المثل في الشجاعة وحتى الترتيب، وكان لأبي عمار بعد الله الفضل الكبير في ذلك.

فَصْلٌ فِي حَيِّ نَزَّالٍ

قال أبو أنس: في حي (نَزَّالٍ) تَفَرَّ الإخوةُ من مكائهم بقيادة الأخوين أبي هاجر وأبي عائشة السوريين وكانوا نحوًا من عشرين مجاهدًا، وتقدموا صَوَّبَ الحي الصناعي، وكان الأمريكان قد عَجَّلُوا وتسَلَّلُوا إليه وثبتوا فيه أقدامهم.

تقدم الإخوة هذه المرة وقد انكسر الحاجز وسقطت الأقنعة وهم يحملون أسلحتهم علانيةً، مهللين ومكبرين يُحَرِّضُونَ الناسَ على الجهاد، وتقدموا في الأَزَقَّةِ وقد أَحَدُوا أَبْصَارَهُمْ وَأَرْهَفُوا آذَانَهُمْ، وعلى الزناد أصابعهم.

واستطَرَفُوا بَيْتًا فَفَتَحَتْ لَهُمْ عَجُوزٌ فَاسْتَأْذَنُوهَا أَنْ يَرْقِيَ بَعْضُهُمْ ظَهَرَ بَيْتِهَا لِيَسْتَطْلِعُوا الْأَمْرِيكَانَ، فَأَذْنَتْ وَرَحَّبَتْ وَقَامَتْ مِنْ فُورِهَا وَأَعَدَّتْ لَهُمْ فُطُورًا وَكَانَ الْوَقْتُ قُبِيلَ الظَّهْرِ، وَأَصْرَّتْ عَلَيْهِمْ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْ زَادِهَا، وَتِلْكَ لَعَمْرُ اللَّهِ سَجِيَّةٌ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ وَالْفُلُوجَةِ خَاصَّةً، أَعْنَى الْكُرْمِ وَالْإِحْتِفَاءِ بِالضَّيْفِ.

وَتَوَزَّعَ الْإِخْوَةُ عَلَى مَجْمُوعَتَيْنِ وَاتَّخَذَ أَبُو عَائِشَةَ وَمَجْمُوعَتُهُ -وَهُمْ نَحْوُ سَبْعَةٍ- أَحَدَ الْبُيُوتِ الْخَالِيَةِ قَاعَةً لَهُمْ وَرَقِيَ بَعْضُهُمْ ظَهْرَهُ وَفَتَحُوا نِيرَانَهُمْ عَلَى الْقَنَاصَةِ الْأَمْرِيكَانِ وَاسْتَمَرُّوا عَلَى ذَلِكَ زَمَنًا ثُمَّ نَزَلُوا إِلَى الطَّابِقِ الْأَرْضِيِّ، وَمَا هِيَ إِلَّا لِحْظَاتٌ حَتَّى سَمِعُوا أَزِيْزَ الطَّائِرَاتِ، وَأَصِيبَ الْبَيْتِ إِصَابَةً مُبَاشِرَةً فَتَهَدَّمَتْ مِنْهُ

أَرْكَانٌ وَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ.

يقول أبو حفص الليبي: قلت في نفسي: ربَّاهُ لقد قُتِلَ الشباب. وَرَكَضْتُ كَالْمَجْنُونِ أَتَحَرَّى الْأَمْرَ، وَإِذَا بِأَبِي عَائِشَةَ وَمَنْ مَعَهُ يَخْرُجُونَ مِنْ بَيْنِ الْأَنْقَاضِ وَقَدْ عَلَتْهُمْ غَبْرَةٌ وَكَأَنَّهُمْ مَوْتَى نُشِرُوا مِنْ قُبُورِهِمْ، وَجَعَلُوا يَنْفُضُونَ عَنْهُمْ التُّرَابَ لَيْسَ بِهِمْ مِنْ بَأْسٍ، وَانْحَازُوا إِلَى بَيْتٍ لَمْ يُسَقَّفْ بَعْدُ، فَتَوَارَوْا خَلْفَ جُدْرَانِهِ، مَرَّتْ لِحْظَاتٌ وَسَقَطَ صَارُوخُ آخِرٍ فِي جَوْفِ الْبَيْتِ، وَبَدَؤُا كَالْمُسْتَجِيرِ مِنَ الرَّمْضَاءِ بِالنَّارِ، وَحُبِسَتْ الْأَنْفَاسُ وَتَهَيَّأَتْ دُمُوعُ الْعَيُونِ لِلْفَيْضَانِ وَأَنْجَلَى الدِّخَانُ وَهَذَا الْعَجَاجُ^{١٥}.

قال أبو أنس: إِذْ بِالْإِخْوَةِ قَدْ غَادَرُوا الْمَكَانَ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ قَبْلَ مَجِيءِ الطَّائِرَةِ بِلَحْظَاتٍ، وَانْتَدَبَ الْبَطْلُ أَبُو حَفْصٍ اللَّيْبِي بِقَازِفَةِ الْ(آرِ بِي جِي) وَبَرَزَ لِلطَّائِرَةِ وَأَطْلَقَ وَأَصَابَ مِنْهَا مَقْتَلًا وَتَهَاوَتْ كُتْلَةٌ مِنْ نِيرَانٍ، وَأَقْبَلَ الْمُخَذَّلُونَ يَحْمِلُونَ بَشَائِرَ الْخِذْلَانِ وَالذِّلِّ وَصَرَخُوا فِي الْإِخْوَةِ مُحَذِّرِينَ وَآمِرِينَ بِالْانْسِحَابِ وَهُمْ يُؤَلُّوْنَ وَيَلْطِمُونَ زَاعِمِينَ أَنَّ الْأَمْرِيكَانَ قَدْ طَوَّقُوا وَتَفَوَّقُوا وَلَا أَمَلَ بِالْفَوْزِ وَالنَّصْرِ، وَجَاءَ الرَّدُّ سَرِيعًا وَصَرَخَ أَبُو حَفْصٍ فِيهِمْ مُوَجِّحًا فَأَخْرَسَهُمْ.

وَتَقَدَّمَ أَبُو مَثْنَى الْأَنْصَارِيِّ مِنْ مَنَاطِقِ الرُّطْبَةِ رَاهِبٌ لَيْلٍ وَفَارِسٌ مِيدَانٍ، كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ آخَرَ، صَامَتْ لَا يَتَكَلَّمُ، كَانَ قَدْ أَدْرَكَ أَنَّ عَهْدَ الْكَلَامِ قَدْ وَلَّى وَأَقْبَلَ عَهْدَ الرِّصَاصِ، سَمِعَ الْهَيْعَةَ فَطَارَ إِلَيْهَا، وَخَرَجَ سَرِيعًا يَجُرُّ إِزَارَهُ حَافِيًا، بَصُرَ بَعْضَ الْمَشَاةِ فَرَمَاهُمْ فَأَصَابَ نَحْوَ اثْنَيْنِ، وَكَانَ قَدْ رَأَى قَبْلَهَا بَلِيَالٍ أَنَّهُ يَقْتُلُ أَمْرِيكِيَيْنِ ثُمَّ يَسْتَشْهَدُ وَصَدَّقَ اللَّهُ فَصَدَّقَهُ اللَّهُ، وَأَقْبَلَتْ طَائِرَةٌ تَحْمِلُ حِمَمَ الْمَوْتِ فَتَصَدَّى لَهَا بِالْ(بَازُوكَا) وَرَمَاهَا فَأَخْطَاهَا لَكِنَهَا لَمْ تَخْطئه، فَرَمَتْهُ لَتَفْتَحَ لَهُ بِصَوَارِيخِهَا بَابًا لِلْجَنَانِ بِإِذْنِ اللَّهِ.

والتحم الفريقان، وقُتل من العلوج نحو ١٥ قتيلاً، وبَقِيَتْ جُثَث ٣ منهم مُلقاةً إلى الغد، ثم سُحبت إلى قَلْبِ جهنم وبئس المصير، وتكررت هذه الصور في سائر مداخل المدينة؛ أرتالٌ تتقدم ومجاهدون يَرْتَدُّونَ لِأُمةِ الموت، وَيَقْتَحِمُونَ غَمَرَاتِ الحروب.

قال أبو حمزة: قدم أبو المرضية بلاد الرافدين قبل أحداث الفلوجة الأولى بقليل وجاءت التعليمات إلى أسود التوحيد بالنزول إلى المدينة وحراسة مداخلها، ولأنَّ الوضع قد أخذ في التصاعد وبدأ العدو يُصعِّد من لهجته وحِدَّةِ كلماته فأرعد وأزبد وهَدَّد وتوعد، حلَّ أبو المرضية بحِي الضباط ونزال، ولم يكن حتى ذلك الوقت يُؤبه به، فهو رجل كثير الصمت قليل الذكر، تزدريه العيون إذا نظرت إليه لصغر قامته ونحافة جسمه حتى قال فيه الشيخ أبو أنس الشامي -رحمه الله-: "تكاد تحمله على كِفِّكَ".

تقدمت يوماً ما دبابة من أحد الفروع الجانبية فبرز لها أبو المرضية بقاذف (آر بي جي) وعلى مسافة عشرين متراً تقريباً وقف أمامها وبدأ يُصَوِّب عليها، فتسمر عدو الله مكانه وما تحرك الجبان حتى تحركت قذيفته لتستقر في سويداء هدفه، وترك أبو المرضية قاذفه وحمل قناصة وأخذ يترقب ويتربص بغرمائه.

فَصْلٌ فِي أَحْوَالِ النَّاسِ بِدَايَةِ الْمَعْرَكَةِ

قال أبو أنس: كنت أتحول برفقة أبي مجاهد على الثغور نَطْمِنُّ على وضع الإخوة ونسأل عن احتياجاتهم، وكان الناس في الشوارع يتساءلون وَيَسْقُطُونَ الأخبار حيارى لا يُدْرِكُونَ ولا يَدْرُونَ ماذا يصنعون، وإن كان غالبُ الناس بحمد الله فَرَحَى مستبشرين بإخوة السلاح والجهاد يَدْعُونَ للمجاهدين بالثبات والظفر.

وكان الموقف - حقيقةً - صعبًا، وما زالت الكثرة الصامتة لم تحسم أمرها ولم تُحِطْ بَعْدُ بأبعاد المعركة، وما زالت الثغور تعاني نقصًا شديدًا قياسًا على ضخامة المعركة المُستَعْرَةِ.

هذا الموقف المأزوم حملني على الخروج عن طوري، وكشفت اللثام وسَفَرْتُ الوجه وجعلتُ أَسْتَصْرِخُ الناس وأدعوهم للحاق بالثغور والأطراف ذَبًّا عن الأعراض وحِفظًا للبيضة وتقويةً لقلوبهم، ومَضَيْتُ في صلاة العصر إلى مسجد الفرقان واستأذنتُ الإمامَ أَنْ أَعْظَ الناس وأذَكِّرهم، وحثّني على ذلك ما له من جرأة وإقدام ودعوة للجهاد فما حَيَّبَ الظن - جزاه الله خيرًا - وأذِنَ لي، وقمتُ بعد الصلاة وحَضَضْتُ الناس وذكَّرتهم ورأيتُ منهم حسنَ الاستجابة والإقدام.

وأثناء هذا انسحب الجنود والشرط وانماعوا^{١٦}، وذابوا كما يذوب الملح في الماء، وليس ذا بغريب، فلم يَسْتَعِدُّوا ولم يُعَدُّوا لمثل هذه المهمة، أعني حماية أهل الإسلام والذودَ عن الأعراض والحُرُمات.

لقد كنا نراهم قبلها بفترة وجيزة منتشرين شاهري أسلحتهم استعراضًا للعَضَلات وإثباتًا للوجود، وكنا نمر مستترين وَجِلين مخافة العَدْرِ منهم وأن يُقَدِّمونا قَرابينَ لأسيادهم، وحين حَمِيَ الوطيسُ غابُوا إلا قليلًا ممن لم تَنْطَمِسَ فيهم بقايا المروءة والحمية، فسَلَّمُوا للمجاهدين أسلحتهم وسياراتهم وانضموا إلى رَكْب العزة والفخر.

تَضَيَّقَتْ^{١٧} الشمس للغروب، وآذَنْتُ بالرحيل حمراء، و حَدَّثَها هنا - قبيل الغروب - أَمْرٌ نُكِّرُ ساءنا وآلَمنا، بينما نحن في تَجْوَالنا نُحَرِّضُ الناس ونُسْتَحِثُّهم تناهى إلى أسماعنا أصواتُ بعض منابر المساجد وهي تنادي في الناس؛ لقد ائْتَدِبَ

^{١٦} أي ذابوا واختفوا.

^{١٧} تَضَيَّقَتْ أي دنت للغروب وقَرَّبَتْ.

بعضُ أئمة المساجد وكيلاً عن الاحتلال منادياً بحظر التجول ولزوم المنازل من السابعة ليلاً إلى السادسة صباحاً، وكان لهذا النداء وقع الصاعقة، فكنتُ كَمَنْ صَكَّه عَدُوٌّ بِقَبْضَةٍ يَدِهِ فِي غَفْلَةٍ مِنْهُ وَعَلَى حِينِ غِرَّةٍ فَقَدَ تَوَازِنَهُ وَمَادَتْ بِهِ الْأَرْضُ، لَقَدْ كُنَّا نَسْمَعُ لَهُؤْلَاءَ دَوِيًّا كَعَصْفِ الرِّيحِ قَبْلَ سَقُوطِ النِّظَامِ دَعْوَةً إِلَى الْجِهَادِ وَحَدِيثًا عَنْ ذُرْوَةِ السَّنَامِ، ثُمَّ صَمَتَ الْقَوْمُ، صَمَتَ أَهْلُ الْقُبُورِ حِينَ طُوِيَتْ صَفْحَةُ الطَّاعِيَةِ الْبَائِدِ، فَلَمْ يَنْبَسِ أَحَدٌ مِنْهُمْ -إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ- بِنَتِ شَفَةِ^{١٨}، وَغَاضَ نَدَاءُ الْجِهَادِ فِي الْأَرْضِ السَّابِعَةِ وَرُدِمَتْ آبَارُهُ وَعَقَّى أَثَرُهَا، لَمْ يَكْتَفِ هَؤْلَاءَ بِهَذَا الْخِذْلَانِ، وَلَمْ يَشْبَعُوا مِنَ الْقَعُودِ عَلَى الذِّلِّ وَالْهَوَانِ، حَتَّى رَضُوا لِأَنْفُسِهِمْ أَنْ يَخْذُلُوا الْأُمَّةَ وَأَنْ يَتَخَذَلُوهَا بِمَنْعَرَجِ اللَّوَى، وَإِلَى اللَّهِ الْمَشْتَكَى.

أَسْدَلَ اللَّيْلُ غِلَالَهُ^{١٩} وَهْدَأَتِ الْحَرَكَةُ، وَرَابَطَ الْإِخْوَةُ فِي ثَغُورِهِمْ وَأَصَابِعُهُمْ عَلَى الزَّنَادِ، نَامَ بَعْضُ الْإِخْوَةِ مِنْ قَرَطِ التَّعَبِ وَالْإِرْهَاقِ، وَتَحَامَلَ آخَرُونَ يُرَاوِحُونَ بَيْنَ أَرْجُلِهِمْ وَجِبَاهِهِمْ يَتَضَرَّعُونَ بَانْكَسَارٍ لِلوَاحِدِ الْجَبَّارِ يَسْأَلُونَهُ الْعَوْنَ وَالسَّدَادَ وَالتَّثْبِيتَ، لَقَدْ كُنَّا نَشْعُرُ بِكُلِّ جَوَانِحِنَا أَنَّهُ لَيْسَ لَنَا حَوْلٌ وَلَا طَوْلٌ وَلَا قُوَّةٌ إِلَّا بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَهُوَ وَحْدَهُ الْعَوْتُ وَالْعَوْنُ فِي هَذِهِ الْمِحْنَةِ الْعَبُوسِ.

غَضَبُ النَّاسِ

قال ابن منصور: وتحدثت في النشرة إلى مشاهدي القناة عبر الهاتف عمّا رأيته للوهلة الأولى، وكان من بين ما قلته: إن المدينة خائفة، والناس خائفون، وكثير من المحلات مغلقة. وكان هذا وصفاً مجازياً عن حالة الناس، لكنني بعد انتهاء هذه النشرة كان بعض أهل الفلوجة يجوبون الأسواق غاضبين بحثاً عني، وكلما مررت بتجمُّع قال الناس لي: لقد مرَّ بعض الناس هنا وسألوا عنك. وجدني بعض هؤلاء فقالوا لي وهم غاضبون: كيف تقول عنا أننا خائفون؟ نحن لسنا خائفين،

^{١٨} أي لم يتكلم أحدهم بكلمة.

^{١٩} أي حلَّ الليل.

الأمريكيون هم الخائفون، نحن لا نقبل من أحد أن يصفنا بالخائفين، ويجب أن تعتذر عن هذا الوصف الذي وصفتنا به في نشرات الأخبار القادمة. قلت لهم: هل تقبلون أن تسجلوا هذا الكلام أمام الكاميرا وتقولوه بألسنتكم وأنا أثبه في النشرات القادمة؟ قالوا: نعم.

وأذكر أنني لم أجد شخصاً واحداً يقبل أن توصف المدينة وأهلها بالخوف، وإنما وجدت الجميع وبجراحة كبيرة وبعضهم حتى من الأطفال والعجائز يتحدثون الاحتلال الأمريكي والحصار الذي فرضه على المدينة، بل ويتوعدون!

مَصَادِرُ الْأَخْبَارِ

قال ابن منصور: كانت كل مرافق المدينة من الكهرباء والماء والهاتف ما زالت تعمل في هذا اليوم الأول من الحصار (١٥ صفر)، وكان استمرار عمل شبكة الهاتف له دور كبير في حصولنا على المعلومات من كافة أطراف المدينة وما حولها.

إِهَانَةُ الْأَمْرِيكَانِ لِشُيُوخِ الْعَشَائِرِ

قال ابن منصور: انبرى أحد شيوخ العشائر من بين الحضور الذين تجمعوا للقاء وقال لي: نحن أهل عشائر وأهل تقاليد، كنا في عهد (صدام حسين) رغم كل طغيانه وجبروته لا يلقي القبض على أحدنا من قبل مخابراته إلا ويأتي مع قوات المخابرات مختار المنطقة وبعض أفراد الشرطة من المدينة، ويستأذنون بدايةً قبل الدخول، فنقوم بترتيب البيت وإيقاظ الأطفال أو تجميعهم في غرفة واحدة، ثم تقوم النساء بتغطية أنفسهن والبقاء مع الأطفال، ثم يقومون بالتفتيش دون أن يمسوا طفلاً أو امرأة، أما الآن فإننا نجد الجنود الأمريكيين بأسلحتهم على رؤوسنا ونحن في غرف نومنا بين نساءنا، ثم يأخذوننا بعد أن يروعوا أبناءنا وأطفالنا،

والناس شاهدوا هذا المنظر يتكرر على شاشات التلفزة بالليل والنهار، يأخذوننا بعد ذلك فيضعون أكياسًا في رؤوسنا ويهينوننا ونحن شيوخ عشائر أمام الصغير والكبير والنساء والأطفال، كما أنهم يعتقلون نساءنا في بعض الأحيان فلا نستطيع بعد ذلك أن نرفع رؤوسنا في وجه أحد، وسبق أن دخلوا بيوت المدينة بيتًا بيتًا وفتشوها وانتهكوا حرمتها ولم يجدوا دليلًا ضد أحد، كما أن كثيرًا من الأسر قد تضررت، واعتقل المئات من الناس وقتل كثيرون، وبالتالي فلم يعد هناك بيت ليس له ثأر من نوع ما مع الأمريكيين.

أَحْوَالُ الْمُسْتَشْفَيَاتِ فِي الْحَرْبِ

قال ابن منصور: قام حامد بإجراء بعض الاتصالات مع معارف وأقارب له في أطراف المدينة لمعرفة الأماكن التي تعرضت للقصف، وكان من الطبيعي أن تكون في أطراف المدينة في الحي العسكري وحي الجولان، وبعض الأحياء الأخرى، ولأن مستشفى المدينة كانت تحت سيطرة القوات الأمريكية على الضفة الأخرى من نهر الفرات، والمستشفى الميدانية لم تكن قد افتتحت بعد، فلم يكن هناك سوى مستشفى خاص واحد يمكن أن يستقبل الجرحى في المدينة هو مستشفى الدكتور طالب الجنابي.

ولأن مستشفى الدكتور طالب الجنابي كانت وجهتنا الأولى لمعرفة من خلال زيارتنا لها حجم الإصابات التي وقعت أثناء الليل، وكذلك الأحياء والبيوت التي تعرضت للقصف في الحي العسكري، فقد كان علينا إكمال الطريق إلى آخره حيث تقع المستشفى في الحي العسكري على مدخل المدينة من الجهة المعاكسة للجهة التي كنا نمشي فيها، بعد ذلك بدت لنا بوضوح تام دبابتان أمريكيتان تسدان الطريق وكانت فوهات المدافع موجهة لنا تمامًا، وكانت الدبابتان تقفان تمامًا عند مدخل المدينة خارج نطاق المنازل والحي الصناعي الذي كانت كل

محلاته مغلقة ولا يوجد بها أحد، وحينما وصلنا قرب نهاية ورش الحى الصناعي تراءت لنا قوات أمريكية إضافية تقف بكثافة على جانبي الطريق وخلف الدبابات، وأصبحنا نرى الجنود الأمريكيين بشكل واضح مع سيارات ومدركات كثيفة، فأصبحنا تحت مرمى نيرانهم من كل الجهات، ولذلك حاولنا أن نحافظ على هدوئنا بشكل كبير، وبقينا كذلك حتى استدرنا يساراً من المدخل الذي يعيدنا إلى مستشفى الدكتور الجنابي، كان المستشفى يُرى من على الطريق العام، لكنه كان على بعد حوالي مئة متر إلى الداخل من الطريق العام.

وجدنا أمام المستشفى سيارة (بيك آب) تعرضت للقصف وما زالت سحب الدخان تتصاعد منها، لكن الدخان كان مختلطاً برائحة كأنها كانت رائحة لحم آدمي يحترق، نظرت إلى ليث وإلى حسين حتى يتقدم أحدهما ليستطلع ما في السيارة ثم يقوم بتصويره، تخوف حسين لكن ليثاً كان مقدماً فتقدم نحو السيارة، وسرعان ما عاد مسرعاً ومضطرباً يسد أنفه بيد ويضع الأخرى على فمه، قلت له: ماذا بها؟ قال: جثة شخص محترق في الصندوق الخلفي، أما كبينة السيارة فإنها ملطخة بالدماء. ودعاني للذهاب لأرى، لكن نفسي انقبضت وتألمت ولم أذهب، فهذه سيارة مدنية وتقف أمام مستشفى، فمن المؤكد أنها جاءت بجرحي أو مرضى لكن الأمريكيين لم يراعوا ذلك وقاموا بقصفها، لكني قلت: لتأكد مما حدث من إدارة المستشفى.

وفي مدخل المستشفى كانت بعض بقع الدماء تغطي الأرضيات، وبعض الكتل الإسمنتية للواجهة متناثرة، حيث كان واضحاً أن المبنى تعرض هو الآخر للقصف، فيما كان أحد العمال يقوم بغسل الأرضيات من آثار الدماء، وما إن أخبرت موظفة الاستقبال أننا صحفيون حتى جاء الدكتور طالب الجنابي صاحب المستشفى ومديره واستقبلنا، وأخبرني أنه يقيم الآن في المستشفى مع بعض

الأطباء، وأنه قد حوله إلى مستشفى طوارئ عام لكل أهل المدينة بعدما سيطرت القوات الأمريكية على المستشفى العام للمدينة ومنعت الجرحى والأطباء من الذهاب إليها، وقال: إن القصف لم يتوقف طوال الليل حتى على مبنى المستشفى، الذي كان يبدو القصف وبعض الحطام على واجهته ومدخله. وقال: إنه أخبر القوات الأمريكية بموقع المستشفى حتى يتجنبوا قصفه، وأنهم ترددوا على المستشفى عدة مرات، ويعرفون موقعه جيدًا، كما أنه يرفع لافتة كبيرة وعلامة مضيئة تشير إلى أنه مستشفى، ومع ذلك فقد قامت القوات الأمريكية بقصفه في الليلة الماضية.

ثم سألته عن السيارة التي تقف أمام باب المستشفى وكان الدخان لا يزال يتصاعد منها، فقال: إنها جاءت في الرابعة فجرًا، وكان فيها جريح حمله أبوه وأخوه حيث وضعوه في الصندوق الخلفي للسيارة بعدما قصفت القوات الأمريكية بيوتهم، لكن ما إن وصلت السيارة إلى باب المستشفى حتى تم قصفها من قبل القوات الأمريكية التي يمكن رؤيتها على مسافة قريبة من المستشفى، فأصيب الأب وقد حاولنا إنقاذهما لكن إصابتهما كانت بالغة فاستشهدا، أما الجريح الذي كان في السيارة فقد استشهد هو الآخر، وجثته ما زالت محترقة في صندوق السيارة الخلفي كما رأيتموها.

قمت بعد ذلك بزيارة بعض الجرحى وتصويرهم، وسجلت نداءً قمنا ببثه بعد ذلك للدكتور الجنابي طالب فيه بعدم قصف المستشفى والتعرض للجرحى أو السيارات التي تحملهم، كما تحدث عن الوضع الخطير الذي بدأ يحيط بالمدينة.

بعد ذلك توجهنا للحي العسكري الذي يقع خلف المستشفى، حيث كانت بعض البيوت فيه قد تعرضت للقصف أثناء الليل فقمنا بتصويره، ثم توجهنا إلى مدرسة متوسطة الوفاق لتصوير مسار اليوم الدراسي، فلم نجد في المدرسة سوى

عشرين طالبًا من أصل خمسمئة طالب هم عدد طلاب المدرسة، وأبلغني مدير المدرسة محمد هويدي أنه لم يستطع أن يمنح الطلبة إجازة لأن لديهم امتحانات، ولأن الحي العسكري الذي يقع في طرف المدينة - وهو حي سكني وسمي بالحي العسكري نسبة إلى سكانه الذين يعملون في الجيش - كثيرًا ما يتعرض للقصف، ومن ثم فإن الطلاب كثيرًا ما يتغيبون، كما أخبرني السكان أن القصف طوال الليل كان عشوائيًا وشديدًا، وأن معظم سكان الحي قد نزحوا عنه إلى أقاربهم الذين يقيمون في وسط المدينة أو بعض الأحياء الأخرى التي يتوقعون أن تكون أكثر أمنًا.

مِنْ أَلَامِ الْحَرْبِ

قال ابن منصور: أما الصورة الأكثر ألمًا والتي مزقتني؛ فقد كانت لعائلة تتكون من جدة عجوز مسنة ومعها زوجة ابنها وأحفادها، كانت تقف على جانب الطريق في الزحام تبحث عن سيارة تنقلها وأحفادها إلى خارج المدينة، لكن كل السيارات كانت ممتلئة، والزحام على أشده، ولا يقوى على الحصول على مكان في سيارة من تلك السيارات المكشوفة النقل ونصف النقل إلا الأقوياء من الناس، والمرأة كانت هرمة، وحينما جاءت سيارة نقلٍ وتزاحم عليها الناس رقَّ قلب صاحبي ليث فقام بمساعدة هذه العجوز وأحفادها حتى تركب على ظهر سيارة النقل مع عشرات من النساء والأطفال والعجائز الذين كانوا يفرون من الموت، وانطلقت السيارة مع عشرات السيارات الأخرى في اتجاه النعيمية للخروج من دائرة الموت في الفلوجة، لكن صورة هذه المرأة التي ترك كل يوم عاشته في الحياة أثرًا علي، وجهها لم أنسه.

جاءت سيارة مسرعة أدركت أن فيها بعض المصابين، قمت بفتح الباب الأوسط للسيارة (الميكروباص) بمجرد وقوفها كنت أتوقع أنها كانت تحمل بعض الجرحى؛

لكني صرخت من هول ما رأيت، لقد كانت جثة المرأة العجوز وأحفادها الصغار أشلاء متكدسة فوق بعضها داخل السيارة، إنها العجوز، إنها هي التي ساعدها ليث قبل ساعتين حتى تهرب من الموت مع أحفادها، لكن الموت كان بانتظارهم هناك عند مخرج المدينة، فقد قصفتهم الطائرات الأمريكية عند مخرج النعيمية، لكن وجه واحدة من الأطفال كان مغطى بعضه بالدماء الممزوج بالتراب جعلني أصرخ وأبكي، تجمع الناس ومن هول ما رأوا أخذوا يهتفون بعبارات: لا إله إلا الله، أمريكا عدوة الله!

مَنْبُودُونَ فِي الْمَدِينَةِ

قال ابن منصور: عدت إلى بيت عمر فاروق فوجدت الأجواء متغيرة وغير طبيعية في البيت، فقد وجدت رجالاً متجهمين رأيتهم للمرة الأولى داخل البيت، وشعرت بأجواء غير مريحة، فسألت عبد العظيم: من هؤلاء الرجال يا عبد العظيم؟ فقال: هم أعمام عمر فاروق جاؤوا يطلبون منه إخراجنا من البيت بعدما انتشرت شائعة في المدينة بعد استشهاد حسين سمير أن القوات الأمريكية تتقصد البيوت التي يتواجد فيها فريق قناتكم فتقصفها، وقالوا له: إذا لم تخرجهم من البيت فسوف يأتي الأمريكيون لقصف البيت وتدميره. لكن عمر فاروق رفض في البداية، ولأنهم أعمامه فقد أصرّوا عليه فالرجل يشعر بالخرج الشديد معنا، فاضطر أن يبلغنا في النهاية بضغوط أعمامه عليه، لذا علينا أن نبحث عن بيت آخر ولكن بعد الغداء، حيث أن الجيران قد أعدوا لنا الغداء وسوف يحضرونه بعد قليل.

حَوَادِثُ يَوْمِ الثَّلَاثَاءِ (١٦ صَفَر)

قال أبو أنس: مع إشراقة الشمس بدأت محاولة اقتحامٍ جديدةٍ من ناحية الجولان وتصدّى لها ضياغمُ الجولان، وصرّح أحدُ مراسلي وكالة أنباء أجنبية أنه رأى جُثثَ عشرةٍ من الجنود الأمريكيّين صرعى في شوارع الجولان، وتقهقر الفئران وتقدمت الطائراتُ فقصفت، وسقط في هذا اليوم نحو عشرين قتيلًا من عامة الناس.

وأعادوا الكرة مرة أخرى، وانبرى لهم (اللبوسي) رباح شاكي السلاح، ورمى بقاذفته دبابةً اجترأت فتقدّمت بين يدي رتلٍ طويل، فضربها أول مرة فأصاب الجنزير فلم تتأثر، وتحوّلت نحوه فاستتر وألقم القاذفة صاروخًا آخر وتغيّأ وسمّى الله وكبّر، وبرز سريعًا ورمى فأصاب البرج فدمره، وكان فوقها نحو ثمانية من الجند تطايرت جُثثهم يمينًا وشمالًا، انسحبوا مدعورين لا يلبثون على شيء، وأقبلت الطائرات المروحية فتصدى لها أبو حسين الأنصاري، فضرب الأولى فقتل رامي (البكتا) فخرّ على وجهه سريعًا، وأصاب الثانية في المروحة الخلفية فطار دخانها، وتهاوت بعيدًا.

قال ابن منصور: ذهبنا إلى منطقة الجولان حيث الاشتباكات لم تتوقف طوال الوقت، ووقعنا عدة مرات تحت نيران معارك طاحنة اندلعت بين المجاهدين والقوات الأمريكية هناك، وبقينا محاصرين طيلة ساعتين في أحد الشوارع الجانبية لا نستطيع أن نتحرك بسبب شدة القتال بين المجاهدين وقوات الاحتلال، وسمعنا صوت انفجار ضخم أبلغنا بعض السكان بعده أن مروحية أمريكية قد أسقطت في طرف حي الجولان، وحينما تحركنا لنقوم بالتصوير نصحنا السكان بالعودة حيث ينتشر القناصة الأمريكيون علاوة على القتال المتواصل هناك.

كانت الشوارع مليئة بالمتاريس والأحجار وبدأ عقال الأمن ينفلت في أنحاء المدينة، وظهر المجاهدون يجوبون بعض الشوارع في مظاهر تدل على أن المواجهة في هذا اليوم الثاني للحصار (١٦ صَفَر) قد تطورت، أما السوق القديم فقد كان مغلقًا، وسوق الخضار لم يعد به إلا بعض الخضروات الجافة مثل البصل والثوم، لكن معظم المحلات كانت مغلقة، وكان القلق والاضطراب بادياً على وجوه كثير من الناس، لكن أحد العراقيين قال لي جملة ولم أنسها: نحن أهل الفلوجة، إما أن نعيش بعز، وإما أن نموت شهداء.

في طريق العودة، كانت الحركة مضطربة في الشوارع إلى حد كبير وكانت هناك اشتباكات متقطعة، ونصحنا كثير من الناس بأن نسلك الشوارع الجانبية والخلفية لأن القوات الأمريكية تقدمت على محور الشارع العام في محاولة لاختراق المدينة والدخول إليها، ووقعت اشتباكات عنيفة مع المجاهدين في الجهة الشرقية من المدينة، وكان واضحًا أن القوات الأمريكية حاولت اختراق المدينة في آن واحد من المحورين الشرقي والغربي، أي من جهة الحي الصناعي وحي الجولان في آن واحد مُحاولَةً قياس حجم المجاهدين وتقدير قوة نيرانهم وتحديد الجهة الأضعف.

فمن الجهة الشرقية تقدمت القوات الأمريكية بالفعل على الطريق العام ووصلت إلى مسجد الخلفاء الراشدين الذي يقع في مواجهة شارع السد، لكن بعض المجاهدين تصدوا لها وأطلقوا عليها بعض القذائف فارتدت إلى مواقعها خارج المدينة مرة أخرى.

قال ابن منصور: في هذه الأثناء قامت القوات الأمريكية مرة أخرى تحت حماية الطائرات في محاولة جديدة لاختراق المدينة، لكن معارك طاحنة نشبت بينهم وبين المجاهدين، كنا نسمع صوت الآليات الأمريكية تحترق شارع السد في عمليات مطاردة المجاهدين الذين أطلقوا النيران عليها، وبعد قتال شرس انسحبت

القوات الأمريكية وتراجعت مرة أخرى إلى مواقعها على الطريق العام شرق المدينة.

كذلك قام الأمريكيون خلال عملية التوغل هذه داخل المدينة بعمليات تفتيش لبعض البيوت في حي الضباط وحي نزال قبل انسحابهم، وأبلغني شخص كان بيته ملاصقًا لمسجد الخلفاء الراشدين أنه فوجئ بالجنود داخل بيته وقد نزلوا عليه من السطح ولا يعرف كيف تسلقوا ودخلوا، وكان يجلس بين أولاده، فدب الرعب في نفوس الجميع، وقام الأمريكيون بتفتيش البيت بحثًا عن سلاح ومجاهدين ثم خرجوا مرة أخرى.

نزلنا إلى السوق القديم الذي كان مغلقًا وبعض محلاته مدمرة جراء قصفٍ قال سكان المنطقة إن الطائرات قامت به أثناء الليل، كما وجدنا بيانًا ألقته القوات الأمريكية من الطائرات المروحية فيه صور بعض الأطفال الذين قاموا بسحل جثث الأمريكيين الأربعة في شوارع الفلوجة ويطلبون تسليمهم مقابل مكافأة مالية.

عدنا بعد ذلك إلى البيت فوجدنا خبرًا مؤلمًا؛ فقد قام جنود القنصاة الذين كانوا يتقدمون مع القوات الأمريكية أثناء اقتحامهم شارع السد بقنص ابنة أحد جيران بيت آل حديد، وكانت تقف على شباك البيت تنظر إلى الجنود الأمريكيين الذين كانوا قد تقدموا ووصلوا إلى الحي الصناعي المواجه لنا، وحينما اقترب أبوها لمحاولة إنقاذها بعدما أصيبت؛ أطلقوا عليه النار أيضًا فأصيب، لكن الفتاة التي كان عمرها ثمانية عشر عامًا استشهدت، بينما نقل أبوها للمستشفى.

المُحَاوَلَةُ الإِعْلَامِيَّةُ لِأَبِي أَنَسٍ

قال أبو أنس: في هذا اليوم لبستُ غير لبُوسي، وتوشَّحتُ بكاميرا أردتُ أن أُصوِّرَ للأمة بعض صور العز والكرامة، وارتقيت سطح بيتٍ في الجولان ومعِي أبو

الخطاب وثالث لا أذكره يحمل قاذفةً، وأقبلت طائرتا (هليكوبتر) فرمى صاحبنا فأخطأ، وتوجهتا من فورهما نحونا وهما تُمَشِّطَانِ (بالبكتا)، وتوارى الأخوان في البيت تحت الدرج وبقيت وحدي فتواريت في الزاوية وانهمر الرصاص كالطوفان وأنا أرقب وأنظر إلى الرماة وهما ينظران إليّ لقربهما ولا أملك إلا الدعاء، وولّتا سريعاً، وتفقدت جسدي فوجدتني سليماً، وعجلت إلى الشريط فأعدته لأشاهد ما حصل فلم أجد شيئاً! فقد كانت الشمس مواجهة -وقت الظهيرة-، أدركت عند ذلك أنني خلقت لغير هذا، فألقيت بالكاميرا وتوشّحتُ سلاحاً من جديد.

رِوَايَةُ أَبِي حَفْصِ الْمَقْدِسِيِّ لِأَحَدِ الْمَعَارِكِ وَطَرَفٍ مِنْ أَخْبَارِهِ

قال أبو أنس: في حي نزال تقدّم الأمريكان فأوغلوا ودنوا من مسجد عبد العزيز السامرائي، وانبرت لهم مجموعتا أبي عائشة وأبي هاجر، وتقدموا الهويني في الأزقة وكان العدو قد تقدم من ثلاثة أفرع، وفي زاوية داخل الحيّ تواجه الطرفان، وغمز أبو حفص بندقيته فزغردت تعزف لحن الموت، وقُتل نحو ٣ أمريكيين، وتقدم الإخوة مكبرين، واقتحم أبو حفص فأصيب في رجله.

قال أبو حفص المقدسي: أُصِبتُ برجلي في منتصف الشارع، وحِيلَ إليّ حين سقطتُ أن يداً ما حملتني وقذفت بي إلى الزاوية الأخرى مستتراً بالبناء، وتلّفتُ حولي متعجباً لا أدري كيف حصل ما حصل؟ وأفردتُ في الزاوية والتفتُ فوجدت البندقية في وسط الشارع، وتقدم أبو عائشة محاولاً إخلائي فأصيب برصاصة خرقت بطنه وخرجت من ظهره فسقط إلى جواربي، وتقدم أخ أنصاري فلوجي فأصيب، وتأزم الموقف.

وأقبل الأخ أحمد الأنصاري من الفلوجة فاقتحم بسيارته حتى انتهى إلينا وحملنا في السيارة، وتراكبنا فوق بعضنا بغير انتظام، وكانت رجلي السليمة بين رأسه

والنافذة فانطلق يُعْذُّ^{٢٠} السير مسرعاً، وأطلق قناصٌ صليّةً أصابت إحدى طلقاتها رجلي فأصيبت فاديةً رأس أخينا أحمد بحمد الله.

قال أبو أنس: نُقِلَ أبو حفص على إثر ذلك إلى بغداد، أحاط بهم الشرط في بغداد وكانوا ثلاثةً في مهمة استطلاعية واكتشفوا أنهم عرب وليسوا عراقيين، وأرادوا أن يسوقوهم إلى المعتقل، فانقضَّ أبو حفص على أحد الشرط وسلبه بندقيته وقذف به إلى الجحيم، وغطَّى على إخوانه وانسحبوا جميعاً سالمين.

كان الأخ أبو محمد اللبناني يقول له: أظنك يا أبا حفص ستُقتل سريعا، ثم رأى أبو حفص أنه وأبا محمد في بيت المقدس وأن أبا محمد أمره أن يقوم مُؤَدِّناً، فكانت بشارة خيرٍ إن شاء الله.

إِسْتِشْهَادُ أَبِي هَرِيرَةَ

قال أبو أنس: أبو عائشة أحدُ الآسادِ، وقُوْرٌ متواضع يُحِبُّه كل من خالطه، حتى أن بعض الإخوة الأنصار في بعض المدن كانوا يُلْحُون في إرساله أميراً عليهم، وأحيط بالأخوين أبي الخير الأردني وأبي هريرة السوري، فقتل أبو هريرة ومثّل به الأعداء، واعتقل أبو الخير، ومشط أبو الزبير -من الجزيرة- محاولاً فتح ثغرة لإنقاذها ولكن سبق السيفُ العَدْلَ، قُتِلَ أبو هريرة صائماً وفاحت منه رائحة المسك، رحمهم الله جميعاً.

فَصْلٌ فِي سُكُونِ الْمَعْرَكَةِ

قال أبو أنس: هدأت الحرب المؤارة^{٢١} في حي نزال مع حلول الظلام، وكنت قد عزمتُ على أمرين في الليلة الماضية، فلما كان بعد الظهر مضيتُ إلى مسجد الفرقان وأمسكتُ (المايكروفون) وجعلتُ أصرخ وأنادي بكل ما أوتيت من قوة:

^{٢٠} أَعَدَّ أَيِ أَسْرَعَ.

^{٢١} مَارَ يَمُورٌ مَوْرًا إِذَا جَعَلَ يَذْهَبُ وَيَجِيءُ وَيَتَرَدَّدُ، والمراد هنا أنها حرب شديدة.

حيَّ على الجهاد، يا خيل الله اركبي، وبالجنة أبشري. لقد كنتُ أشعرُ من أعماق قلبي أن ما جرى بالأمس من بعض الأئمة عارٌ لا يمسه إلا أن تعود المنابر تصرخ مرة أخرى بنداء الحق ودعوة الجهاد.

وتناهى إلى أسماعنا أن هيئة علماء المسلمين وجَّهت نداءات الاستغاثة إلى أحرار العالم وإلى الأمم المتحدة وجامعة الدول العربية للتدخل لإنهاء الأزمة وإنقاذ الناس، كما وطالبت الناس بالخروج في مظاهرات سلمية!^{٢٢}

قال أبو عزام: في أحداث الفلوجة كان أبو أنس ينادي في المساجد: "يا أهل الفلوجة؛ حي على الجهاد، حي على الجهاد"، وكان يحث الناس ويذكرهم ويرغبهم بالحوار العيني، فأخذ الناس يتسابقون إلى الجهاد، فكان المحرك للشباب.

فَصْلٌ فِي تَدْبِيرِ الزَّرْقَاوِيِّ لِلْمَعْرَكَةِ

قال أبو أنس: أرسل إلينا الشيخ أبو مصعب الزرقاوي يستشيرنا في المجيء ليشارك بنفسه مع الشباب ويُلحُّ في هذا وبقوة، وكان رأي جميع الإخوة الكبار أن لا يفعل، وسألناه بالله وأقسمنا عليه أن لا يفعل ضنًّا به وحفاظًا عليه، وحتى لا تتوحش أمريكا أكثر وأكثر إذا تسرَّب خبر وجوده في ساحة الفلوجة.

ولكننا كنا معه على اتصال يومي، وكان رسوله في ذلك البطل الزاجل أبو عبد الرحمن من الجزيرة ناحية الرمادي، كان يغدو ويروح كل يوم بالبلم (الزورق) تارةً وسباحةً أخرى، والرصاص فوق رأسه، وكان لنا نعم الرديف والمعين، فبالإضافة إلى نقل الرسائل تولى نقل كميات من السلاح والإشراف على عبور كثير من الإخوة.

^{٢٢} وانتبه أخي القارئ الكريم إلى هذا القيد -سلمية- فإنه مهم جدًّا، حتى لا يتوهَّم مُتَوَهِّمٌ أن هيئة العلماء جماعة متطرفة وتؤمن بالعنف، وحتى لا تُسَوِّلَ لأحدٍ نفسه أن يحمل معه خنجرًا أو سكينًا يُخَوِّفُ به الجنود الأمريكيين الطيبين. [أبو أنس الشامي]

فَصْلٌ فِي حَوَادِثِ اللَّيْلِ

قال أبو أنس: بَقِيَتِ الثُّغُورُ مُشْتَعِلَةً، وَصَرَخَ أَحَدُ الضُّبَابِ قَائِلًا: "لَقَدْ كَانُوا يَنْتَظِرُونَنَا"، وَصَدَقَ وَهُوَ الْكَذُوبُ، فَحِينَ حُلِ الظَّلَامُ تَفَرَّقَ الْأُسْدُ فِي الْأَجَامِ^{٢٣} - إِلَّا مَنْ كَانَ عِنْدَهُ نُوبَةٌ حِرَاسَةٍ - وَأَوِيْتُ إِلَى بَيْتِ أَحَدِ الْإِخْوَةِ وَنَمْتُ نَحْوَ السَّاعَةِ ١٢ لَيْلًا، وَلَمْ أَهْنَأْ بِنُومِي فَقَدْ بَقِيَ الضَّجِيجُ وَالْقَصْفُ، وَفِي نَحْوِ الثَّالِثَةِ شَعَرْنَا كَأَنَّ اخْتِرَاقًا حَصَلَ فَقَدْ كَانَ صَوْتُ الْمَدْرَعَاتِ قَرِيبًا جَدًّا، فَقَمْنَا سَرِيعًا وَتَوَضَّأْتُ وَصَلَيْتُ رَكْعَتَيْنِ مُؤَدِّعًا وَلِبْسَنَا لِأَمَةِ الْحَرْبِ، وَانْطَلَقْنَا وَتَقَدَّمْنَا فِي الْأَزِيقَةِ وَالْفُرُوعِ، فَلَمْ نَجِدْ رُوعًا، وَكَانَ الْإِخْوَةُ قَدْ رَدُّوهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ وَهَالْنَا مَنْظَرَ الدَّمَارِ، وَالْجِثَّةِ مُلْقَاةً أَرْضًا هُنَا وَهَنَّاكَ بِسَبَبِ الْقَصْفِ الشَّدِيدِ، وَرَابَطْنَا نَحْرُسَ فِي بَرْدٍ شَدِيدٍ وَكُنْتُ مُتَخَفِّقًا مِنَ الثِّيَابِ وَبَقِيَتْ أَرْتَجِفُ وَتَصْطُكُ أَسْنَانِي، فَرَبَّمَا حُيِّلَ لِمَنْ يَرَانِي أَنِّي أَرْتَجِفُ خَوْفًا وَذَعْرًا، وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ - يَعْلَمُ اللَّهُ -.

قال ابن منصور: تَصَاعَدَتْ حُدَّةُ الْقَصْفِ فِي أَطْرَافِ الْفُلُوجَةِ، وَكُنَّا نَسْمَعُ أَصْوَاتَ الْقَصْفِ وَالْانْفِجَارَاتِ تَأْتِينَا مِنْ كُلِّهِ الْإِتْجَاهَاتِ، وَبَعْدَ صَلَاةِ الْمَغْرَبِ مَسَاءَ الثَّلَاثَاءِ (١٦ صَفَرٍ) جَاءَنَا إِلَى بَيْتِ حَامِدٍ بَعْضُ أَهْلِ الْفُلُوجَةِ، وَبَدَأَ أَنْ حَامِدًا يَعْرِفُ أَحَدًا مِنْهُمْ، وَأَخْبَرُونَا أَنَّ الْمَجَاهِدِينَ شَنَوْا هَجُومًا شَدِيدًا عَلَى الْقَوَاتِ الْأَمْرِيكِيَّةِ الَّتِي تَغْلِقُ طَرِيقَ النِّعِمِيَّةِ، وَبَعْدَ مَعْرَكَةِ طَاحِنَةِ مَعَ الْقَوَاتِ الْأَمْرِيكِيَّةِ نَجَحَ الْمَجَاهِدُونَ فِي تَدْمِيرِ الْمَوْقِعِ وَأَصِيبَ عَدَدٍ كَبِيرٍ مِنَ الْجُنُودِ الْأَمْرِيكِيِّينَ، وَقَدْ جَاءَتْ الطَّائِرَاتُ الْمَرْوَحِيَّةُ فَأَجَلَّتِ الْقَتْلَى وَالْجُرْحَى، وَهَرَبَ بَاقِي الْجُنُودِ، وَأَصْبَحَ الْمَوْقِعُ خَالِيًا وَالنِّيرَانُ تَشْتَعِلُ فِيهِ.

فَحِينَمَا وَصَلُوا إِلَى مَرْكَزِ الْقَوَاتِ الْأَمْرِيكِيَّةِ فِي النِّعِمِيَّةِ وَجَدُوهُ بِالْفِعْلِ يَحْتَرِقُ وَلَمْ يَجِدُوا أَيَّ جُنْدِيٍّ أَمْرِيكِيٍّ فِي الْمَنْطَقَةِ، وَكَانَتْ هَذِهِ أَوَّلُ هَزِيمَةٍ مَدْوِيَّةٍ لِلْقَوَاتِ

^{٢٣} الْأَجَمَةُ الشَّجَرُ الْكَثِيرُ الْمَلْتَفُ، وَالْأَجَامُ أَحَدُ جُمُوعِ كَلِمَةِ "أَجَمَةٌ".

الأمريكية التي تحاصر الفلوجة، وقام ليث بتصوير المكان حتى أنه قام بتصوير علب الطعام التي لم يكن الجنود قد تناولوها، وكان واضحًا أن الهجوم قد وقع عليهم وهم يتناولون عشاءهم.

لم نعرف عدد الجنود الأمريكيين الذين قتلوا وجرحوا في هذا الهجوم الذي يبدو أنه قد خلف عددًا كبيرًا من القتلى والجرحى، ولم تفصح القوات الأمريكية عن أية تفاصيل عن هذا الهجوم، وكانت تكتفي دائمًا في بياناتها العسكرية بالقول أن عددًا من جنودها قتلوا في الأنبار، وحينما عدت إلى بيانات الجيش الأمريكي التي نشرت في هذا اليوم وجدت تبريرًا عن عدم ذكر عدد القتلى والجرحى أو نتائج العمليات التي تعرضوا لها، في أحد التقارير يقول: إن نشر معلومات إضافية عن هذه الوقائع قد يعرض الجنود لأخطار أكبر.

أثارت الصورُ حينما قمنا ببثها ردودَ فعل واسعة، فقد كانت تأكيدًا على أن وضع القوات الأمريكية يسوء حول المدينة رغم إحكامها لحصارها، وقد جن جنون الأمريكيين فأصبحوا يقصفون بشكل عشوائي في كل اتجاه، بعد بث صور هذه الهزيمة المدوية لهم، وبعد ساعة من بث هذه الصور جاءنا خبر مؤلم للغاية من زميلنا حسين دلي حيث أبلغنا أن طائرة أمريكية قامت بقصف بيت في حي الجولان في الفلوجة، مما أدى إلى مقتل أكثر من عشرين؛ معظمهم من النساء والأطفال، وأن حسين الآن في موقع البيت المنكوب يقوم بعملية تصوير للضحايا الذين كانوا ينتشلون من بين الأنقاض.

حَوَادِثُ يَوْمِ الْأَرْبَعَاءِ (١٧ صَفَر)

قال أبو أنس: صلينا الفجر فرادى كلٌّ في زُقاقه حتى إذا طلع الصباح وبرز جبين المصباح تقدمنا إلى الخطوط الأولى ولقينا هناك قائد الجولان أبا خطاب، ومضينا نَعُدُّ الحُطَى^{٢٤} إلى ثغور الإخوة، واجترأْتُ -على غير عاداتي- فأوغلتُ وحيداً حتى انتهيتُ إلى مدرسة الخليج، أطللتُ برأسي فلمحتُ عددًا من القنّاصة فوق بيتٍ مجاور، وكان بيني وبينهم نحو مئة متر فرميتُهم بالـ(كلاشنكوف)، فلم أُغنِ فتيلًا، فتواريْتُ وتسوّرتُ سور بيتٍ قريبٍ منهم وارتقيت السطح وقد تضايقت المسافة إلى نحوٍ من أربعين مترًا ورميتُهم فختلوا^{٢٥}، وهنا بدا لي رأيي، فتراجعتُ وناديتُ أحد الإخوة الأنصار فجاء بقاذفته وقد ألقمها صاروخًا مضادًا للأشخاص، واتفقنا أن أرميهم لأشغلهم حتى يرميهم هو بالقاذفة.

وارتقينا السطح وسمّينا وبرزتُ فرميتُ، وانحال عليّ الرصاص من كل جانب فرجعت إلى الوراء خطوة، وبدأ صاحبي فسَمَّى ورمى، وكنت حينها قد صرتُ وراءه، وجاء عصف القاذفة في أذني، فخرقتُ^{٢٦} طبلتها وشعرتُ وكأنَّ العصفير تُزقِرُ حول رأسي، حمّدتُ الله كثيرًا أن ذلك لم يكن عصف نارٍ كما هو المعتاد، وذلك فضلُ الله علينا.

أفقتُ من هول الصدمة ونزلتُ أنا وصاحبي، وكان الرمي قد اشتدَّ علينا جدًّا، وركبتُ رأسي واستعرتُ العناد -ولستُ بعنيدٍ في العادة- ورقيت بيتًا مواجهًا لهم، ولم يكن يفصلني عنهم إلا الشارع وبيت واحد، وكان معي قبلة يدوية فرميت بها عليهم وانتظرتُ الصوت فلم أسمع شيئًا فقد كان الصاعق عراقياً فلم ينفجر، والله المستعان.

^{٢٤} أي أسرعنا.

^{٢٥} ختله أي خدعه عن غفلة، والمراد أنه لم يُصَبَّ واستطاع تفاديها.

^{٢٦} أي خرقت... يقصد أن الصوت كان عاليًا جدًا.

فنزلتُ وتقدمت أقصدُ زاويةَ الفرعِ المواجهة لهم مباشرةً وأفاجأُ بـ(الهمر) تعلوه (البكتا) قد ولج الفرع وتقدم وصرتُ معه وجهًا لوجه، كانت لحظاتٍ عصيبةً، وتقهقرت إلى الوراء واستندت بظهري فانفتح البابُ خلفي وكدتُ أسقط فسلمني الله - لكنني فقدتُ نعلي -، ودخلتُ البيت فرموه برصاصهم وأنا أشعر أنه سينهدم ويسقط، لقد (ملخوه) كما يقول إخواننا هنا، وربضتُ مكاني ولم يكن معي إلا بندقية (كلاشنكوف) بمخزين مضمومين إلى بعضهما، وكنت قد فرّغت مخزنًا ونصف المخزن، وكان معي في ثوبي عدد من الرصاصات فجعلت أملأ المخزن وأنتظر العاقبة، لا أدري، لكنني كنت أشعر حقيقة أن أجلي لم يحن، وأن رحلي في الحياة لم تُؤذن بانقضاء، رمى الأوغاد، ثم انسحبوا مؤثرين السلامة.

وتسوّرتُ الجداران من بيتٍ إلى بيتٍ ثم خرجت أمشي راجعًا وأنا أشعر بالإعياء، وطنينٌ أذني لا يهدأ، فلقيتُ أبا خطاب وكان يصرخ باحثًا عني، فلما أبصرني صرخ بأعلى صوته: أبو أنس.

وقلت له مداعبًا: أبا خطاب جهّز لي سريّة حتى أسترِد نعلي، وتضاحكنا.

هذه النعل لها قصة طريفة، وذلك أنها كانت قد بليت واهترأت، وكان الشيخ أبو مصعب الزرقاوي يُلحُّ عليّ أن أستحدث أخرى، وأنا أسوّف وأقول له: هذه النعل عزيزة عليّ، فقد أهدانيها أخٌ عزيز من المدينة النبوية فلا أفرط فيها.

وكان يمازحني ويقول: لا أدري كيف يقاتل مجاهدٌ بمثل هذا النعل؟

وكتبتُ في ذلك اليوم إلى الشيخ أبي مصعب الزرقاوي أبشّره بأن أمنيته قد تحققت وحيل بيني وبين نعلي.

قال أبو خطاب: كنا في معركة الفلوجة نتنقل معًا في مواقع القتال وجبهات المعارك نتفقد الإخوة، ونمدّهم بما يحتاجون من أسلحة ومؤن، وعندما يهجم العدو

على جبهة من الجبهات نأخذ مجموعة من الإخوة وندخل إلى المعركة للتعزيز، فدخلنا معركة جولان الثانية، وكان العدو قد دخل بقوة راجلة تساندها الآليات المدرعة، وعددهم ما يزيد عن مئتي عالج، وكنا بحدود ٢٥ أخًا أو يزيدون، دخلت الحي من جهة ودخل الشيخ من جهة أخرى، وبعد احتدام المعركة وتكبّد العدو خسائر فادحة، أُجبر بعدها على الانسحاب يجر أذيال الهزيمة، ذهبت أبحث عن أبي أنس، فوجدت الإخوة قد انحازوا إلى الخلف -وهذه ضرورة بعد كل معركة لأن العدو بعد الانسحاب والخسارة يبدأ بقصف المكان بالطائرات والمدفعية فيضطر الإخوة للانحياز-، لكنني لم أر الشيخ أبا أنس، فخشيت أن يكون قد أصيب، فصرخت بأعلى صوتي: "أبا أنس، أبا أنس". فخرج من بين المنازل متجهًا نحوي وهو منهك من الجري، وكان حافي القدمين، يحمل ال(آر بي جي) بيده، فلما وصل إليّ استلقى على الأرض وقال لي مازحًا: "أبا خطاب، جهز لي سرية لأسترد نعالِي". فضحكنا جميعًا في ذلك الموقف.

الْخُطَّةُ الْعَسْكَرِيَّةُ لِلْجَيْشِ الْأَمْرِيكِيِّ

قال ابن منصور: لاحظنا أن القوات الأمريكية بدأت بالتوغل في شارع السد حيث نقيم، وأصبح الجنود يُفْتَشُّون البيوت بشكل انتقائي، وتوقعنا أن يتركوا الباب علينا في أي لحظة إلا أنهم لم يفعلوا، وقد ذكر الناطق باسم الجيش الأمريكي في تصريحات نقلتها الوكالات في هذا اليوم: إن الدبابات والمدرعات الأمريكية دخلت المنطقة الصناعية جنوب الفلوجة تساندها مروحيات (كوبرا) وطائرات (آي سي ١٣٠)، وأوضح أن ألفين من مشاة البحرية يشاركون في الهجوم، وأكد أن قوات (المارينز) تمكنت من السيطرة على المنطقة بعد اشتباكات استمرت ست ساعات تعرضت خلالها لإطلاق نار من رشاشات وقذائف هاون من قبل مقاتلين تركزوا على سطوح المباني.

كنا نراقب القوات الأمريكية وهي تتحرك في شارع السد متجهة إلى حي نَزَّال، وبعد قليل قاموا بقصف مخزن لإطارات السيارات مواجه لبيت آل حديد فاشتعلت فيه النيران، ولاحظنا أن القوات تقدمت بالآليات والمدرعات من الطريق العام ودخلت حتى وسط المدينة، لكن المجاهدين كانوا يلاحقونها، وتقدموا على محوري الحي الصناعي وحي نَزَّال حيث كنا نقيم، وبالتالي أصبحنا في هذا اليوم (الأربعاء ١٧ صَفَر) لا نستطيع استخدام شارع السد.

من ناحيتي كنت أتوقع أن يتقدم الجنود الأمريكيون مثل أمس (الثلاثاء) ثم يتراجعون مرة أخرى تحت ضربات المجاهدين، لكنهم في هذه المرة تقدموا بكثافة، إذ كانوا أكثر من ألفي جندي حسب تصريح الناطق العسكري الأمريكي، وقرروا أن يتخذوا مواقع متقدمة.

ولأن بيوت الفلوجة كلها منخفضة لا تزيد عن طابقين؛ فكان هذا الفندق المرتفع يمثل قيمة كبيرة للقناصة الأمريكيين يستطيعون من خلاله منع الحركة في حيٍّ كامل، وهذا ما حدث بالفعل، فقد اتخذوا من أسطح الفندق وغرفه مكامن للقنص، وكان عدد القناصة المتواجدين فيه كبيراً، وقد استطعت عدة مرات أن أراهم، حيث كان كل قناص معه مرافق؛ عادةً ما يكون مُحَدِّد الأهداف الذي يُقَدِّر له المسافة وسرعة الرياح والمعلومات الأخرى الخاصة بالأهداف المراد قنصها، وكان استخدام القناصة بهذه الكثافة بدايةً لتغيُّر الاستراتيجية العسكرية الأمريكية في الفلوجة، حيث أصبح كل من يتحرك طفلاً كان أو شيخاً أو امرأة أو رجلاً هدفاً للقناصة، وأصبحوا يعتمدون على القناصة منذ ذلك اليوم بشكل كبير، وقد علمت بعد ذلك أن المجاهدين قاموا بنسف هذا الفندق وتسويته بالأرض بعدما أصبح القناصة الأمريكيون يقيمون فيه بشكل دائم حتى بعد انتهاء معركة الفلوجة الثانية.

أيضاً بدأ الأمريكيون في الاعتماد على الطائرات المقاتلة من طراز (إف ١٦) بعدما نجح المجاهدون في إسقاط عدد كبير من الطائرات المروحية، كما أعلن المجاهدون في ذلك اليوم عن تدمير اثنتي عشرة مدرعة وسيارتي (جيب)، إضافة إلى ثلاث طائرات مروحية إحداها كانت في حي الجولان.

هذا الوضع المتردي للقوات الأمريكية جعل وزارة الدفاع الأمريكية تقوم بإلغاء كل العطل والإجازات لقوات الاحتلال الأمريكية في العراق، بما فيها إجازات كانت مقررة لأربعة وعشرين ألف جندي، كما أكدت صحيفة (نيويورك تايمز) أن قيادة القوات الأمريكية في العراق بدأت في وضع خطط من أجل استقدام مزيد من القوات الأمريكية إلى العراق بعد الأحداث الأخيرة.

ولم تكن الهزيمة التي لاحقت الأمريكيين في ذلك الوقت في خسائريهم المباشرة فقط، بل إن القوات العراقية التي كان من المفترض أن تدعمهم تخلت عنهم وفر كثير من رجالها، وقد عبّر عن ذلك الحاكم الأمريكي للعراق آنذاك (بول بريمر) بنفسه.

قال بريمر في الصفحة ٤١١ من مذكراته (عامٌ قضَيْتُهُ فِي الْعِرَاقِ): وفيما تقدم (المارينز) إلى أعماق المدينة (الفلوجة) كانت الشرطة العراقية أو قوات الدفاع المدني التي تساندتهم من الخلف تهجر مواقعها أو تنتقل إلى الجانب الآخر، وقد أمسك بقائد الشرطة المحلية وهو يتعامل مع المتمردين، وأثبت جنود الدفاع المدني العراقيون أنهم عديمو الفائدة وفقاً لضابط كبير في (المارينز)، وقد فر نحو نصف الكتيبة الأولى للجيش العراقي الجديد وهم في طريقهم إلى الفلوجة، وتغيب عن العمل في يوم (الثلاثاء ١٦ صَفَر) نحو ثلث قوة الدفاع المدني في بغداد المكونة من خمس كتائب، وبلغت نسبة التغيب في الكتائب المجندة من مدينة الصدر (٨٠%)، كما تغيب رجال الشرطة العراقيون في كل أنحاء الجنوب أو كانوا

سليبين.

قال ابن منصور: في هذا اليوم بدأت الطائرات المروحية تحتفي من سماء المدينة وتظهر الطائرات المقاتلة من طراز (إف ١٦)، واعترف الناطق العسكري الأمريكي باستخدام طائرات (إف ١٦)، لم ينته هذا اليوم إلا وقد كان هناك ما يزيد على مئة وخمسين من سكان الفلوجة قد سقطوا بين قتيل وجريح معظمهم من النساء والأطفال، علاوة على تدمير عدد كبير من المنازل في أحياء (الجلان والضباط والعسكري والمعلمين ونزال والصناعي).

فَصْلٌ فِي آثَارِ الْمَعْرَكَةِ خَارِجَهَا

قال أبو أنس: ابتدأ هذا اليوم بقصف وَحْشِيٍّ عَنِيفٍ للمساكن، وتلك أخلاقُ الجبناء حين يصطدمون بصخرة الصمود فيتناولون على العُزْل شفاءً لنفوسهم المريضة وانتقامًا لكرامتهم المسحوقة.

وأثناء هذا بدأت دائرة المعركة تتمدد خارج الفلوجة، وتطير شرر الحرب، وعمَّ لهيبُ المعركة البلادَ طولًا وعرضًا، وهاج أهل السنة وانكشف المعدن الأصيل لأهل الإسلام في العراق، وانكسر حاجز الخوف، وتجراً الصقور فتخطفوا العدو، ومادت الأرض تحت أرجل الاحتلال وترنح ينتظر الضربة القاضية.

لقد حدثنا الإخوة بعد ذلك كيف أن الطريق السريعة بين الفلوجة وبغداد كانت تَغصُّ بآليات العدو المحترقة في منظرٍ يعود بالذاكرة إلى أيام سقوط النظام البائد والتدمير الشديد على طول الطرق لآلياته ومعداته.

في هذا اليوم أمارت موقع (سكاي نيوز) اللثام عن أن ما يقرب من مئة وثلاثين جنديًا أمريكيًا قُتلوا في مواجهات الأمس في الرمادي.

فَصْلٌ فِي مُجَرَّيَاتِ الْأَحْدَاثِ فِي الْأَيَّامِ التَّالِيَةِ

قال أبو أنس: تتابعت الأحداث، ومن ذلك أن قصفاً صُبَّ على الجولان ليلة الجمعة فجنّدل بعض الأبطال منهم أبو عمر الحلبوسي - رحمه الله -، وتقدم إليه أخوه فوجده وقد استأثرت بروحه الحور إن شاء الله، وإلى جواره مهاجر سوري أصيب بجراحات بالغة، فعمد إليه فحمله وانطلق به سراعاً إلى المستشفى يرجو إسعافه وترك أخاه الشقيق مطروحاً في وسط الطريق، وتلك لعمرُ الله أخلاق النبلاء^{٢٧}.

وتقدّم أبو قتيبة - من الرمادي - وقد توشّح بحزام ناسفٍ في حي نزال، وتعرّض لراجلة^{٢٨} أرادت التسلل، فانطلق إليهم وقد حجز لهم تذاكر سفر مؤكّدة إلى جهنم، فقدّمهم بين يديه فداءً وقرباناً، وأسقط في يد البقية فولّوا كحُمُرٍ مُستنفرة فرّت من قسورة^{٢٩}، مادت الأرض تحت أقدام الأمريكان وساورهم فزعٌ وجزعٌ، وبدت أمريكا كمصارع ذهب مُنْتَه^{٣٠} وخارت قواه فهو ينتظر الضربة القاضية، أو كجريح يتشخّط في دمه ينتظر رصاصة الرحمة.

أَخْبَارُ الْمُجَاهِدِينَ خَارِجَ الْفُلُوجَةِ

قال أبو أنس: لقد حدثنا الإخوة بعد ذلك أنهم كانوا في بغداد يخرجون في المساء في رحلة صيد للبقرة الأمريكي فيطوفون المدينة فلا يجدون لهم حسّاً ولا أثراً، كأن لم يكونوا.

وأعجب من هذا ما حدّث به الثقات من جهاتٍ متعددة أن حراس سجن (أبي غريب) - سُبّة التاريخ وعار الأبد - تقطّعت بهم الأسباب فنقد الوقود حتى برّكت

^{٢٧} لو كان أخوه أحق من الثاني لوجب عليه إعانته قليلاً، والشيخ هنا أراد لفظة نظر ليس إلا (تعليق ميسرة)..

^{٢٨} الرجل من الجنود هو الراكب، بخلاف الماشي على رجليه.

^{٢٩} "القسورة" من أسماء الأسد.

^{٣٠} المنة بضم الميم القوة.

سياراتهم في ساحات السجن من العطش.

وحملهم الفَرَقَ^{٣١} فجاءوا مُتَسَوِّلِينَ سلامتهم، وقالوا للمساجين: تعالوا إلى حُطَّة رُشد فلا نقاتلكم ولا تقاتلوننا على أن نُسلِّمكم أسلحتنا إذا دُوهِم السجن مقابل تعهّدكم بسلامتنا. وهم يرتجفون هَلَعًا كورقة في ليلة عاصفة تتلعب بها الرياح.

فصل في خيانة الإخوان المرتدّين

قال أبو أنس: تهاوت أسطورة الأمريكان، واجترأ عليهم كلُّ شجاع وجبان، أُسقط في يد أميركا، ووقعت في حَيْصَ بَيْص^{٣٢}، وتلقت تبحت في أوراقها المدّخرة فهداها شيطانها إلى الحزب الإسلامي^{٣٣} الذي لطالما خبّأته لمثل هذه المآزق، فرمت به على الطاولة فقلبتّها، وابتدأ فصلٌ جديد من المعركة.

ولقد نقلت شركة (فرست هيد لاينز) في يوم الجمعة ١٩ صَفَر ١٤٢٥ هـ عن (بريمر) تصريحه بأنه يرغب في عقد اجتماع بين أعضاء مجلس الحكم والقيادات الإسلامية لإيقاف ثورة الفلوجة. وهو الذي كان يتهدد من قبل ويتوعد بالعقوبة الشاملة والانتقام العنيف.

أقبل هؤلاء سراعًا يحملون عروض الهدنة ونزع فتيل الأزمة، ولم نكن^{٣٤} ندري بحقيقة الموقف العسكري خارج الفلوجة، وبدا لنا أن ما حصلناه من نصر وكسر لأنف أميركا يكفيننا في هذه المرحلة؛ فما حصل إنجازٌ ضخم بمقتضى المقاييس العسكرية.

وفي هذا الوقت وإتمامًا لدائرة المكر خرج متحدثٌ في الفضائيات وتكنّى بأبي مجاهد وزعم أنه قائد الجولان وهو من المقاومة الإسلامية الوطنية، وأنه يوافق على

^{٣١} الفَرَق هو الخوف.

^{٣٢} وقعوا في حيص بيص أي في ضيق وشدة.

^{٣٣} أبو أنس: كما يحلو لبعض الإخوة أن يُسميهم (الحزب السينمائي) وذلك أنهم اتخذوا مقرهم في موقع السينما سابقًا.

^{٣٤} في تحقيق ميسرة حذف من "أقبل..." إلى "لم نكن..." والموجود: "ندري بحقيقة الموقف العسكري..."

الهدنة، وأنه يمثّل قطاعًا كبيرًا من المجاهدين. وأنا أقسم بالذي رفع السماء بغير عمد أن هذا كذب، لقد كان صاحبنا قائد مجموعة صغيرة عددها خمسة عشر شخصًا يقفون عند القوائم مقامية (مركز المدينة) يحملون صورة أحمد ياسين، وللإنصاف فقد شارك عدد يسير منهم في منطقة حي نزال لكنهم لم يلبشوا أن انسحبوا سريعًا، وقد عاتبه الإخوة ووبَّخوه بعد الأحداث فاعتذر عمّا بدر، ولكن وللأسف استمر هؤلاء بالتشبع بما لم يُعطوا؛ فضربة جون أبي زيد لهم^{٣٥}، ومطار المثنى.. إلخ، وإلى الله المشتكى.

واستغل هؤلاء هذا الخطأ وطافت وفودهم في جولات مكوكية على الجميع المجاهدة خارج الفلوجة يُقسِمون عليهم أيمانًا مُغلَّظة أن يكفُّوا أيديهم وأن يُمسِكوا عن القتال، ويفتَرِّون كذبًا على لسان أهل الفلوجة بأن هذا مطلبهم، وطافت بعض عمائم الشر والهزيمة بدعوى السوء نفسها.

وكذب هؤلاء على لسان الشيخ الفاضل عبد الله الجنابي^{٣٦} وافتروا عليه وزعموا أن ذلك رأي الشيخ.

الشيخ عبد الله الجنابي أحد وجهاء الفلوجة وعالمها العامل، وقف مواقف الشجاعة ونطق بالحق يوم خرس أكثر الناس، وثبت في ميدان الجهاد إلى آخر لحظة، وهو وإن كان متصوفًا في الجملة لكن التصوف بحمد الله لم يُجَرِّب عقله، ولم يُفسد فطرته، فكان له مواقف مشرّفة وثبت ثبات الشُّم الرواسي، فنسأل الله أن يجزيه عن الإسلام وأهله خير الجزاء.

حَقَّتْ هديرُ الحرب وسكن لهيها، ووجم الأبطال، والتبس عليهم الأمر، ولم يدروا ماذا يصنعون، واغتنمت أمريكا الفرصة فالتقطت أنفاسها، وأغاثت جنودها وأعادت انتشارها وتمركزت على طول الطريق، وتحصّنت في نقاط أمنية منيعة،

^{٣٥} يعني أنهم نسبوها لهم، وادَّعوا أنهم هم من نقّذها.

بدا أن ما حصل كان فَحًّا تعاون الحزب مع الأمريكيان على نسجه ووقعنا فيه، وندمنا ولات ساعة مندم.

حاولنا بعد ذلك جاهدين أن نعيد الأمر جذعاً^{٣٧} كما كان، وأرسلنا نداءات استغاثة وصيحات استنجادٍ لكنّها ذهبت أدراج الرّياح، واصطدمت بعزمٍ قد تفارط، وهمةٍ قد انتقضت.

قال أبو أنس: كنت حاضراً غائباً، غبت عن حضور المجلس بأمر من الشيخ أبي مصعب الزرقاوي لاعتبارات سياسية؛ وحتى يتحدث باسم المدينة أبطالها؛ وحتى لا يشغب عليهم بدعوى الإرهاب، وكنتُ حاضراً من وراء الستار مشاورةً مع الإخوة، وبيننا وبين الشيخ أبي مصعب الزرقاوي مراسيل لا تنقطع، فنسأل الله أن يجزيه عن الإسلام وأهله وعن أهل الفلوجة خير الجزاء.

قلت: هذه الرواية موجودة في رواية أبي أنس الأصلية، ولا توجد في الرواية التي نشرها ميسرة الغريب رحمهما الله.

وقال الزرقاوي: الحزب الإسلامي العراقي وحلفاؤه؛ تاريخه مع الجهاد وأهل السنة معروف، فهو من رضي أن يكون طوق النجاة الذي أنقذ أمريكا في معركة الفلوجة الأولى، والتي كادت أن تعصف بالوجود الأمريكي في العراق لولا الهدنة التي سعى إلى إبرامها هذا الحزب لإنقاذ السيد الأمريكي من المستنقع الذي غرق فيه، بعد أن ضُيق الخناق على القوات الصليبية والرافضية حول الفلوجة، وبعد أن قطع المجاهدون -بفضل الله تعالى- طرق الإمداد عنهم، واشتعلت الأرض من تحت أقدامهم، حتى أن ناقلاتهم وعرباتهم علقَت في الطريق نتيجة نفاذ الوقود، ولقد حدثنا الإخوة ممن كانوا أسارى في سجن (أبي غريب) أن إدارة السجن أثناء معركة الفلوجة قد أيقنت بالهلكة بعد أن قام المجاهدون بقطع جميع الطرق المؤدية

^{٣٧} الجذع الصغير السن، والمراد هنا أننا وددنا لو يرجع الزمان إلى الوراء فلا نقع في ما وقعنا فيه. "ميسرة"

إلى السجن، وأن المجاهدين قادمون إليهم لا محالة، فجاءت إدارة السجن يسألونهم؛ ماذا أنتم فاعلون بنا إذا جاءنا المجاهدون؟ فقال لهم الإخوة؛ تسلمون أسلحتكم لنا مقابل أن نؤمنكم، واتفق الطرفان على ذلك، فقام (الحزب الإسلامي) بمبادرته - غير مشكور عليها - بإنقاذ سيده الأمريكي.

قال أبو حمزة: وجاءت مسألة المفاوضات وكرهها أبو عزام كرهاً شديداً ورفضها رفضاً مبرماً، وبعد أيام اتصل بالإخوة خارج الفلوجة، فإذا بهم يخبرونه أن ما يسمى بـ(الحزب الإسلامي) أخبرهم أن الإخوة في الفلوجة قبلوا المفاوضات، وأن الشباب اقتنع برأيهم وألقى السلاح، وبدأت أرتال العدو يدبُّ فيها النشاط بعدما طاردها المجاهدون في الطرقات حتى أشرفوا على الاستسلام، وبدأ حراس سجن (أبي غريب) يُعدُّون العدة للهروب بالاتفاق مع السجناء على أن لا يقتلوهم ويؤمّنوهم، فجاءت بادرة الحزب الاستسلامي خيرَ منقذ، فسدَّت فوهات مدافع البسطاء من المجاهدين، وخدَّلت وأزجفت نفوس ضعفاء الناس والمساكين الذين ظنوا أن ذلك في مصلحة المجاهدين.

وما دَرَوْا أن العدو بدأ بنشاط من جديد وأخذ يصب جام غضبه علينا في الفلوجة، فاسترجع^{٣٨} الجميع وبدأنا من جديد نملأ المخازن والتي لم يبق لملئها إلا القليل حتى جاء نصر الله ومنه.

قال ابن منصور: برز ممثلو الحزب الإسلامي في العراق الذي كان يشارك في مجلس الحكم، ورغم أن ممثل الحزب كان الدكتور محسن عبد الحميد إلا أن العضو الحقيقي كان حاجم الحسني الذي يبدو أنه كانت له علاقات خاصة مع الحاكم الأمريكي للعراق (بول بريمر)، فقد كان الحسني يحمل الجنسية الأمريكية ويتحدث الإنجليزية بطلاقة، وقد تحدث (بريمر) عن حاجم الحسني في كتابه عدة مرات لا

سيما ما قام به الحسيني في التفاوض حول الفلوجة، ومع حاجم الحسيني الذي كان يحمل الجنسية الأمريكية كان هناك إياد السامرائي الذي يحمل الجنسية البريطانية، وكان كلاهما نائبين لمحسن عبد الحميد، وكلاهما كانا يتقنان اللغة الإنجليزية ويحملان الجنسية الأمريكية والبريطانية وجاءا من وراء البحار مثل كثيرين من الذين شاركوا في العملية السياسية في العراق.

وقد نقلت الوكالات تقارير في هذا اليوم مفادها أن كلاً من حاجم الحسيني وإياد السامرائي نائبين عضو مجلس الحكم محسن عبد الحميد عقدا مباحثات مع الحاكم الأمريكي (بول بريمر) من أجل الاتفاق على انسحاب القوات الأمريكية من مشارف الفلوجة وفك الحصار عنها.

وأصدر (الحزب الإسلامي) بياناً في هذا اليوم قال فيه: نتيجةً للجهود الحثيثة التي بذلها الحزب، وبعد الاتصالات والمفاوضات التي جرت وتجرى مع الجهات الأمريكية المعنية، ولغاية صباح اليوم، تم الاتفاق على إيقاف العمليات العسكرية المتبادلة في الفلوجة وما حولها؛ اعتباراً من الساعة الثانية عشرة ولمدة أربع وعشرين ساعة.

لكن نائب قائد القوات الأمريكية في العراق الجنرال (مارك كيميت) خرج على وسائل الإعلام نافياً ذلك وقال: لا يوجد اتفاق على وقف إطلاق النار، لا اتفاق بين المتمردين وقوات التحالف. وأعلن الكولونيل (برينان بيرن) قائد الفرقة الأولى لقوات (المارينز) التي كانت تقود الحصار والهجوم على الفلوجة أن تعليق العمليات العسكرية انتهى ولم يستغرق سوى تسعين دقيقة، موضحاً أن رجاله تلقوا أوامر باستئناف العمليات الهجومية.

هذا في الوقت الذي رصدت فيه من على سطح مبنى مجمع العيادات الطبية الذي كنا نبث من فوقه على الهواء مباشرة من مدينة الفلوجة في هذا اليوم معارك حية



دارت في حي الجولان بين المجاهدين وطائرات مروحية أمريكية، واستمرت المعارك أكثر من ساعة.

وحينما واجه صاحبي الجنرال (مارك كيميت) أثناء حوار أجراه معه وُثِّتَ على الهواء بأن هذا خرقٌ لوقف إطلاق النار من قِبَل القوات الأمريكية قال (كيميت): إن القوات الأمريكية كانت في حالة دفاع عن النفس.

حَوَادِثُ يَوْمِ الْخَمِيسِ (١٨ صَفَر)

قال أبو أنس: أرسل إلى الفلوجة عالمها العامل الشيخ الشاب عمر عبد الجبار يسألني المرور عليهم والتعريج بهم ففعلت، كان يبدو في ذلك اليوم مُرهقًا كسير القلب، فها هو لليوم الرابع مرابطٌ مجاهد لم يُفَضِّ بجنبه إلى فراشٍ ولم ينل من الراحة إلا خفقاتٍ على عجلٍ ووجل، كما واستشهد بالقصف وأثناء القتال عددٌ من أركان حربه وإخوان دربه، كانت الوجوه شاحبةً والأنفُسُ مُرهقةً والأرواحُ مكدودةً، بادرنِي أبو حفص عمر يسألني أن أقوم في الشباب واعظًا ومُحَرِّضًا، شعرت بخرج^{٣٩} الموقف وخطورة الوضع فانتدبتُ^{٤٠} فيهم خطيبًا بما فتح الله عليّ، وشعرتُ سريعًا أن وجع الشيخ عمر قد أشرق، وبرقت أساريُّه وتَفَجَّرَ العزمُ منه مؤازرًا من جديد، دخلني شعورٌ غريبٌ وأنا أعانقُه مودِّعًا، كنتُ أشعر -حقيقةً- أنه الوداع الأخير، لقد رأيتُ في وجهه بريقًا ولمعانًا سماويًا يشي^{٤١} بأن الرجل لم يعد من أهل الأرض، وأن السماء قد أبرقت له تدعوه للقدوم، ويوشك أن يجيب.

كنت بعدها أسألُ عنه كلَّ غادٍ ورائحٍ إذا سمعتُ جلبةً من نحو حي الضباط حيث كان يربط أبو حفص، وكيف هو؟ حتى جاء الخبر الفاجعة.

في هذه الليلة صلى بهم ثم دعا وأطال الدعاء وبكى وأبكى، ثم التفت إلى إخوانه كالمُودِّع وقال لهم مُوصيًا: أقيموا الحدود في الفلوجة، وأنفذوا فيها حكم الله.

فَصْلٌ فِي اسْتِشْهَادِ أَبِي حَفْصٍ وَإِخْوَانِهِ

قال أبو أنس: أَقْبَلَ هو وإخوانه بِجَدٍّ يَقْصِفُونَ الْأَمْرِيكَانَ بِالْهَائُونَ، وَتَمَادَوْا فِي

^{٣٩} جراح الظلماء ما كَثَفَ وَالتَّفَّ، والمراد صعوبة الموقف.

^{٤٠} أَي دُعِيتُ فَأُجِبتُ.

^{٤١} وَشَى بِهِ إِلَى السُّلْطَانِ أَي سَعَى بِهِ، والمراد هنا أنها تُخبر.

هذا الأمرِ وَأَغْفَلُوا احتياطاتِ الأمنِ، ولم يَرْعُهُمْ إِلَّا الطَّائِرَاتُ تُحَلِّقُ فوقَهُمْ وترسلُهُم مفاتيحَ الجنانِ قصفاً عنيفاً فَتَحَ لَهُم رَوْزَنَةً^{٤٢} إِلَى الآخِرَةِ فَمَضَوْا فِي قَوَافِلِ الشَّهْدَاءِ.

أحدث استشهادهُ أبي حفص -نحسبه والله حسيبه- مع نحو أربعةٍ من إخوانه ثلماً كبيراً في جدار التحصين وفي نقطة حسّاسةٍ وخطرة، وذلك أن الأمريكيّ كانوا قد سيطروا على حيّ الصناعة واستمكنوا من الشارع الرئيس الواصل إلى القائم مقامية في عمق المدينة، وكان حيّ الضباط هو خطّ الدفاع الأول في صدهم وردهم ومنع توغلهم.

أبو حفص بطل السيف والقلم، خطيبٌ مصقّع^{٤٣}، فارغُ الطول، يسطو عليك بهيبة تروّعك لأول وهلةٍ، لتكشفَ لك من بعد عن نفسٍ حانية وروحٍ فكّهة وصفاءٍ طويّة.

عرّفته وخالطته عن قريب؛ بعد أن أبرق طالباً أن يُبايع الشيخ وأن يلتحق بالركب.

استلم الراية من بعده الأخ الفاضل أبو فاطمة وأثبت أنه خيرُ خلفٍ لخير سلفٍ فجدّ واجتهد وحفّز الإخوة ولملم الجراح واستأنف المسير.

أبو فاطمة رجلٌ طوالٌ مغوار^{٤٤}، جاءه خبرٌ مقتل أبيه فترحم عليه وثبت في موقعه مجاهداً ولم يدع تغره، ومضى يُجاهد لا يُلوي على شيء.

فصلٌ في شراسةِ المعركةِ في ذلك اليوم

قال أبو أنس: كان حيّ الضباط مسرحاً لمعارك شرسةٍ، وكان فيه عددٌ من الإخوة السوريين أصيب أكثرهم فسقطوا بين شهيد وجريح، وأما واسطة عقد^{٤٥}

^{٤٢} الرّوزنة الكوة.

^{٤٣} خطيب مصقّع أي بليغ.

^{٤٤} أي طويل القامة وكثير الإغارة على الأعداء، فهو من الشجعان.

^{٤٥} واسطة العقد هي أفضل أحجار العقد.

المجاهدين هناك والرقم الصعب في المعركة فكان الأخ أبا خالد، فلقد صبَّ حمم الهاون (٦٠) على رؤوسهم وأصاب منهم مواجع وأورثهم فواجع وكان ميمون النقيبة^{٤٦} سعيد الحظ، صحبه التوفيق الرباني في رميه.

حاول الأمريكان عبر المكر أن يتسلَّلوا إلى عرين الأسود، فتقدمت خلية منهم في سيارة إسعاف وحاولوا الفتك بالإخوة على حين غرّة، فانتبه لهم الكُماة^{٤٧} وأوردوهم حياض المنيّة وأسعفوهم برصاص الموت.

لم تهدأ دائرة الحرب الزَّبُون^{٤٨}، وأصيب عن قريب أبو فاطمة، لكنه تحامل على نفسه وداس ألم الجراح وأبى أن يسكن أو يرتاح، ومضى كالرياح مُزْمَجِرًا في نحر أعداء الله ورسوله، وبعد نحو يومين أُصيب مرةً أخرى في قصفٍ جَوِّيٍّ عنيفٍ خرج معه من ميدان المعركة للعلاج ومعه زميله ونائبه أبو خطاب، وانقسم الإخوة مجموعتين بقيادة الأخوين أبي خالد وأبي مريم وبمساعدة الأخ أبي محمد وحملوا الراية جميعًا متآزرين متكاتفين إلى نهاية الأحداث، فله درُّهم.

كانت الأحداث إلى هذا اليوم مُستعرةً وأواُر المعركة ولهيها مُضطربًا داخل الفلوجة وخارجها، واستطاع الإخوة في الرمادي أن يُسقطوها في أيديهم ولم يُعد يُرى فيها أمريكي، ولا شرطي أو جندي من المرتدين أحذية الكافرين.

قال ابن منصور: كان يوم الخميس (١٨ صَفَر) يومًا مشهودًا من أيام العراق، قد تمكن المجاهدون في الفلوجة في هذا اليوم من إسقاط سادس مروحية منذ بدء حصار المدينة، وشوهدت وهي تحترق في بستان البو عريم قرب مدرسة الأنبار في حي الجولان في الفلوجة، كما بدأ المجاهدون في استخدام سلاح القنص أيضًا للجنود الأمريكيين، وأعلن متحدث باسم القوات الأمريكية أن عنصرين من

^{٤٦} ميمون النقيبة أي مبارك النفس.

^{٤٧} الكُماة جمع كلمة "الكمي" وهو الشجاع المتغطي بسلاحه.

^{٤٨} حرب زَبُون أي تصديهم وتدفعهم.

(المارينز) قتلا في الفلوجة بنيران القناصة، ولعل هذا ما دفع القوات الأمريكية إلى بدء الاعتماد على طائرات (إف ١٦) المقاتلة بشكل أساسي بعدما نجح مقاتلو الفلوجة بإسقاط رقم قياسي من الطائرات المروحية خلال أيام قليلة.

الكارثة الكبرى التي واجهت القوات الأمريكية المحاصرة للفلوجة كانت في قطع طرق الإمداد عنها، وضرب حصار حولها من كافة الاتجاهات التي تؤدي إلى المدينة، فالطريق الرئيسي لإمداد القوات الأمريكية المحاصرة للفلوجة كان طريق بغداد الفلوجة عبر أبي غريب، وقد تداعت فصائل المجاهدين من كل أنحاء العراق وقامت بتنسيق حصارها للقوات الأمريكية المحاصرة للمدينة.

وعلاوة على قصف القوات الأمريكية بالهاون والصواريخ ونصب الكمائن لها طوال الليل، قام المجاهدون بقطع طرق الإمداد عنها صباح الخميس (١٨ صَفَر) وأحرقت أكثر من عشر شاحنات كانت تحمل مواد تموينية للقوات الأمريكية.

وقد تصاعد الهجوم على قوافل الإمدادات في اليوم التالي حتى تحول الطريق بين بغداد ومدخل الفلوجة إلى محرقة لقوافل الإمداد الأمريكية، مما أربع السائقين الذين يعملون مع القوات الأمريكية وجعلهم يرفضون نقل المؤن، واضطر الأمريكيون إلى إيصال المؤن الغذائية لقواتهم عبر الطائرات المروحية في كثير من المناطق حول الفلوجة.

أما من ناحية الشمال الشرقي للفلوجة؛ فقد تمكن المجاهدون من تدمير سبع آليات عسكرية على طريق الكرمة ذراع دجلة، وبعد ذلك أحكم المجاهدون سيطرتهم تمامًا على الطريق، وقد مررت به صباح (٢١ صَفَر) فوجدت المجاهدين يسيطرون عليه بالكامل وبطول يزيد عن مئة وخمسين كيلو متر، ولم يكن هناك جندي أمريكي واحد على الطريق، رغم أنه كان أحد طرق الإمداد الرئيسية للقوات الأمريكية للحماية.

قال بول بريمر في مذكراته: في صباح يوم (١٨ صَفَر) أثارت الأزمات العسكرية -الفلوجة وجيش المهدي- أزمة سياسية على نطاق واسع، أولاً قَدَّمَ وزير الداخلية نوري البدران أمر جهاز الشرطة العراقية المترهل استقالته، ومع أنه علل خطوته بأنها عائدة لأسباب شخصية فإن من المثير للقلق تخليه عن الحكومة في أثناء الأزمة المتواصلة.

ثانياً: عمّد أبو حاتم المحارب الشيعي الأسطوري من الجنوب أمير الأهوار الذي يملك السلطة على قبائل مهمة على طول الحدود مع إيران إلى تعليق عضويته في مجلس الحكم، وكنت زرت مواطن قبيلته في الأهوار مسبقاً، ورأيت الشعبية التي يتمتع بها هناك، اتصلت به على هاتفه الخليوي في منزله القبلي في مدينة العمارة الجنوبية وطلبت منه إعادة النظر في قراره، فقال: دعني أفكر؛ إنها فترة عصيبة. واتفقنا على اللقاء في اليوم التالي.

وخلال دقائق أعلن وزير حقوق الإنسان عبد الباسط تركي عن استقالته، وهو "مسلم سني معتدل" ولديه روابط عائلية وعشائرية في مقاطعة الأنبار، وبعد ذلك سمعنا أن الباجه جي العضو الكبير في مجلس الحكم غاضبٌ من عملية الفلوجة التي أسماها علناً "عقاباً جماعياً" وكان أيضاً على عتبة الاستقالة، وبعد أقل من ساعة جاء حاجم الحسني ممثل الحزب الإسلامي العراقي ليبلغني بأن المكتب السياسي لحزبه صوّت على الانسحاب من مجلس الحكم احتجاجاً على الهجوم الذي يشنه (المارينز) على الفلوجة، وأضاف حاجم بأن غازي الياور أحد الأعضاء الستة البارزين في مجلس الحكم يعتزم ترك مجلس الحكم بعد ظهر اليوم، وأصر حاجم قائلاً: عليكم الدعوة لوقف إطلاق نار فوري في الفلوجة. وعبر عن رغبته في قيادة وفد من مجلس الحكم إلى الفلوجة للتحدث مع قادة المدينة بشأن الأزمة.

كنا أمام أكثر أزمات الاحتلال حرجًا، حيث لا يمكن أن تكون المخاطر أكبر، وتبين أن العمليات المتواصلة في الفلوجة ستؤدي إلى انهيار العملية السياسية بأكملها وتجبرنا على تأجيل نقل السيادة إلى العراقيين، وكنت واثقًا من أن ذلك سيؤدي إلى تصاعد التمرد ومقتل مزيد من الأمريكيين، وفي نفس الوقت شعرت أن علينا مواصلة العمليات العسكرية القوية ضد مقتدى الصدر.

إِسْتِشْهَادُ أَبِي مَارِيَّةَ

قال أبو أنس: قاد الأخ أبو مارية المجاميع بجدارة واقتدار، وأشعل بإقدامه فيهم فتيل النشاط والجرأة، ولم يلبث أن سقط - رحمه الله - صريعًا برصاص رتل أمريكي من ناحية بيته في البوعبيد من ضواحي الرمادي، رآهم فلم يستطع الصمت واثُدِبَ وحده في مواجهة الرتل فأصلاه بقذيفة (آر بي جي) وأصاب منهم، ولكن الكثرة غلبت الشجاعة فتمكنوا منه، فمضى إلى الجنات راح مجاهدًا وشهيدًا نحسبه والله حسيبه.

أبو مارية - رحمه الله - أحد رجالات العراق أدبًا وحُلقًا، خطيبٌ مُفَوِّهٌ عذبُ الصوت بالقرآن، وكان شيخنا يتحسّر بعد ذلك ويقول: تمنيت لو سَجَّلَ لي القرآن بصوته. وقد أُمِّره على الإخوة في منطقة الرمادي فكان نعم الأمير، قُتِلَ فكأنما فُصِّلَ الرأس فخمد الجسد، وخارت همة الإخوة هناك وخبا فيهم الحماس، وإلى الله المُشْتَكَى^{٤٩}.

فَصْلٌ فِي الْأَمِيرِ الْجَدِيدِ

قال أبو أنس: بحمد الله وبعد أن وضعت الحرب أوزارها، أرسل إليهم الشيخ

^{٤٩} ولكن -وبحمد الله- وبعد أن وضعت الحرب أوزارها، أرسل إليهم الشيخ أميرًا جديدًا فأعاد الحرب جَدَعَةً واشتعل وميض النار من بين الرماد، وكان لهم نكايّة في العدو وأصابوه بِقَوَافِرَ في مواقعٍ متفرقةٍ ولولا التكتيم الإعلامي لرأى الناس قُرَّةَ العين، وذاقوا بهجة النفوس بجهاد هؤلاء الأبطال، والحمد لله على نِعَمِهِ. "أبو أنس".

أبو مصعب أميرًا جديدًا فأعاد الحرب جذعة^{٥٠}، واشتعل وميض النار من بين الرماد، وكان لهم نكاية في العدو وأصابوه بفواقِر في مواقع متفرقة، ولولا التكتيم الإعلامي لرأى الناس قَرَّةَ العين، وذاقوا بهجة النفوس بجهاد هؤلاء الأبطال، والحمد لله على نِعَمِهِ.

وها هنا ملاحظة عجيبة في هذا الجزء الكريم من أرض الإسلام، لقد وجدنا بالاستقراء أن أكثر أمراء المجاميع إنما هم أئمة وخطباء وطلبة علم على منهج السلف، اشتغلوا بالتدريس وتربية الشباب وجمعهم على العقيدة النقية الصافية، فلما وقعت الحاقة، وقرعت قارعة الاحتلال البلاد، قاموا مع تلامذتهم يتمثلون الآيات والأحاديث التي كانت حديث مجالسهم وسميرهم في لياليهم.

طَرَفٌ مِنْ أَخْبَارِ الْمُقَاتِلِينَ وَقَادَتِهِمْ

قال أبو أنس: كانت شوارعُ الفلوجة تُغصُّ بالمقاتلين المُلثَّمين وحملة السلاح، وكنت تراهم منشورين مدَّ البصر، وشكَّل هذا الأمر عبئًا علينا لأن قيادة مثل هذه الأعدادِ الغفيرة مع فُقدانها للتدريب وحُلُولها أيضًا من الموائيق والعهود التي تُلزمها بالطاعة لك والانقياد أمرٌ في غاية الصعوبة، وحصل إرباكٌ شديد في الساحة، وكان حي الجولان قد انتزع دَقَّة القيادة وصار قاعدةً للقادة ومركزًا للتوجيه، ومجمعًا يلتقي فيه الإخوة الكبار لتقرير المواقف ويأتي إليه المجاهدون لتلقِّي الأوامر وطلب الإمداد والأعداد.

وبرز أبو خطاب قائدًا فذاً استطاع بهمةٍ ودؤوب وعزمٍ لا يلين وصدور يسع الجميع أن يكون الرقم الأصعب في الميدان، أما أبو عزام البطل الهمام فقد كان الأمير لعموم الإخوة، ومع صغر سنه وحادثة تجربته لكنه تألَّق بآرائه السديدة وحسن نظره مع وُفُور عقلٍ وكمال أدب، وأبو مجاهد نائب الأمير؛ وفي ظل

^{٥٠} الجَذع الصغير السن، والمراد هنا أننا وددنا لو يرجع الزمان إلى الوراء فلا نقع في ما وقعنا فيه. "ميسرة"

الغياب المتكرر لأبي عزام في مهمات خارجية ملحة كان يقع على كاهله العبء الأكبر، وقد قام بالأمانة خير قيام.

هؤلاء الثلاثة إضافةً إلى أبي أوس الأمير العسكري للإخوة هم الذين قادوا المعركة وساسوا أحداثها حتى أرفأوا بسفينة الجهاد إلى شاطئ النصر والفخر ومن ورائهم أعدادٌ غفيرة من الجنود المجهولين عند البشر، وحسبهم أن الله يعلمهم وكفى به سبحانه.

وكان الخيطُ الدقيقُ والصفةُ المشتركةُ التي تربط هذه الأرواح هو المنهج السلفي، وكان هذا واضحًا جليًا في ساحة المعركة، وكنت ألمسه واضحًا أثناء تطوافي على الثغور.

فَصْلٌ فِي إِتِّخَاذِ الْكُفَّارِ الْمَنَارَاتِ لِلتَّقْنِيصِ

قال أبو أنس: استشهد في هذه الأيام -نحسبه والله حسيبه- إمام مسجد المعاضيدي الشيخ عثمان، وكان على تصوّفه مجاهدًا مقدامًا، وقد آوى كثيرًا من الإخوة المهاجرين، ومسجد المعاضيدي هذا له بريقٌ خاصٌ فهو يقع في أطراف الجولان في نهاية الفلوجة ولكنه كان في قلب الأحداث.

فمنارته لعلوها اتخذها الأمريكان قاعدةً للقناصة، وقد جاء الشباب واستفتوني في ضرب المنارة بالصواريخ لأن ذلك هو السبيل الوحيد للقضاء على خطر القناصة؛ فأفتيتهم بالجواز، وذلك لأن قطرة دم من مسلم أغلى عند الله من منارات مساجد الدنيا، وقد تكرّر هذا الأمرُ أيضًا في مسجد الخلفاء والسامرائي وغيرها من المساجد، وكانت خاتمة المطاف أن منارة المعاضيدي سقطت تُعَانِقُ الأرض بسبب القصف الأمريكي عندما تغيرت رياح المعركة واتخذها الشبابُ المجاهدُ قاعدةً لهم.

وقد حاول الأمريكيان في هذا اليوم الاستيلاء على منارة مسجد السامرائي في حي نَزَّال، وانبرى لهم أسدُ الجولان أبو الخطاب في سرية طاردت فُلُولهم وكنست آثارهم، فوَلَّوْا الأدبار، وأذَّن أبو خطاب في المسجد معلِّناً بأذانه نصر الله وهزيمة الأمريكيان.

كما وحاولوا السيطرة على منارات مسجد الخلفاء؛ فصبَّ عليه الشبابُ حمم صواريخ الـ(آر بي جي وسي فايف كي)، فارتدوا على أعقابهم خائبين.

وقد أصدرت هيئة العلماء بياناتٍ تستنكر فيه "وبشدةٍ" استهداف المساجد، وفي الحقيقة فقد كان سلاح القناصة من أنكى الأسلحة، وأوقع فينا كثيرًا، وكان هؤلاء القساة العتاة لا يُفَرِّقون بين مجاهدٍ ولا امرأةٍ ولا سيارةٍ إسعاف، فقد كان كل متحرك هدفًا مشروعًا لهم، ولم نجد لهم حلًّا أنجح من القناص، فالقناص دواؤه القناص، وعلى قلة الكوادر في هذا الباب والمُتَقِنين لهذا الفن فقد أبلى (قناصونا) بلاءً حسنًا، وقَلَّمُوا أظفار قناصة العدو بحمد الله، وقد اعترف العدو في هذا اليوم بسقوط قناصين أمريكيين على يد قناصة الإسلام.

قال ابن منصور: كانت أصوات التكبير تنطلق من مساجد الفلوجة طوال الوقت، وكانت دعوات الناس للصبر والجهد لا تتوقف، وكان يمكن أن يقوم بذلك شخص واحد داخل كل مسجد، إلا أن التكبير انطلق من عشرات المآذن في وقت واحد.

قام الجيش الأمريكي بالهجوم والاعتداء على بعض المساجد مدعيًا أن المجاهدين يتحصنون بها، فبعد توغلهم داخل المدينة يوم الأربعاء (١٧ صَفَر) صعد القناصة على مآذن مسجد الخلفاء الراشدين المرتفعة واتخذوا منها مواقع لقنص السكان في حي الضباط وحي نَزَّال والحي العسكري، واتصل بنا أحد سكان حي الضباط، وقال: إن قناصًا أمريكيًّا فوق مئذنة مسجد الخلفاء الراشدين قنص ابنه

البالغ من العمر ثمانية عشر عامًا فأرداه قتيلاً.

كما بدأت تصلنا تقارير من المستشفى الميداني وملحقاتها تفيد بأن عدد الذين يصلون إلى المستشفى شهداء وجرحى جراء إصابتهم برصاص القناصة الأمريكيين في ازدياد، وأن من بينهم أطفالاً ونساءً وعجائز، حتى أنني رأيت في المستشفى بعد ذلك شيخاً في الخامسة والسبعين من عمره مصاباً بنيران القناصة، وكذلك بعض الأطفال، وقمنا ببث صورهم جميعاً بعد ذلك، وأبلغنا مرافقاً لأحد الجرحى في المستشفى الميداني - وسجلنا إفادته وقمنا ببثها في نشرات الأخبار - أن القناصة قتلوا طفلين من إخوته وأصابوا والده.

في نفس الوقت قامت القوات الأمريكية بالهجوم على مسجد عبد العزيز السامرائي في حي نَزَّال حيث يوجد مقر هيئة علماء المسلمين، ولم نكن نحن بعيدين عن المسجد إلا عدة مئات من الأمتار، فقبل أن يقتحموه قاموا أولاً بقصفه بالصواريخ، وقد اعترف الليفتنانت كولونيل (برينان بايرن) الناطق باسم الجيش الأمريكي في بغداد بهذا وقال للصحافيين: إن طائرة أمريكية من طراز (كوبرا) قامت بقصف مسجد عبد العزيز السامرائي في مدينة الفلوجة للقضاء على المتحصنين بداخله. فيما قال ناطق آخر: إن طائرة من طراز (إف ١٦) ألقت على المسجد صاروخاً وقنبلتين؛ وزن كل منهما (٢٢٥ كيلو غرام) موجهة بالليزر. وأضاف المتحدث: إن أكثر من أربعين ممن سماهم "الأشرار" قُتلوا داخل المسجد. وقال الناطق الأمريكي: لقد بتنا نسيطر على (٢٥%) من المدينة بعد ثلاثة أيام من القتال الضاري. وأكدت القيادة العسكرية الأمريكية أنهم قرروا أن يقصفوا المسجد بعدما جرح خمسة من عناصر (المارينز) برصاص مسلحين متحصنين في داخله، وأكد على هذا الكابتن في مشاة البحرية (بروس فريم) في تصريحات أدلى بها من المقر العام للقيادة العسكرية الأمريكية في تامبا في ولاية فلوريدا في

الولايات المتحدة: بحسب المعلومات الأولية التي تلقيناها، أصيب خمسة من (المارينز) بإطلاق نار مصدره المسجد مما أدى إلى قصفه بالطائرات.

إِعَانَةُ الْمُسْلِمِينَ لِإِخْوَانِهِمْ

قال أبو أنس: لا يسعنا هنا أن نغمض العين وأن نطوي الصفحة قبل أن نُشيد بالحرائر الصابرات على الدوائر والمُخَدَّرَات في بيوتهن، فقد ثبت عددٌ كبير من العوائل وتآزر رجالها ونساؤها وكانوا نعم العون لنا، فأمور الطعام والشراب وغسل الثياب إلى غير ذلك من المستلزمات الضرورية والمدد الأساسي لمسيرة الجهاد؛ قام بها أولئك الجنود المجهولون.

في هذا الوقت انتدب الأسدُ المصور والشجاع الجسور أبو عبد الله البغدادي رسولاً بيننا وبين أهل بغداد، وكان يُوقِر^{٥١} راحلته في كل راحلة أسلحةً وعتاداً.

وإذا لم تخني الذاكرة فقد أردفنا في هذا اليوم بخمسة من الإخوة الأكراد منهم الأخ جند الله - رحمه الله -، وتقدم هؤلاء الأكراد إلى الصفوف الأولى وبقوا مرابطين في نحر العدو إلى آخر لحظة في المعركة، وقد كنتُ أشرتُ عليهم أن يكشفوا للناس هُويَتهم وأن لا يُخفُوا جنسهم وأن يستعلنوا بهذا الأمر حتى يُثبتوا للأمة أن الأكراد أحفاد صلاح الدين ما زال ولاؤهم وحبهم لهذا الدين ولأهله وإن غشيت أرضهم غاشية سوداء من غواشي الكفر والردة على يد الطالباني والبرزاني وحزبيهما.

قد تسامع الناس أن البيشمركة - جند الطالباني - قد شاركوا في الحرب إلى جوار الأمريكان، وكذا فيلق الغدر بدر، وقد اعترف بذلك بعض أعضاء الحكم، وقد أعلنت وكالات الأنباء في يوم السبت (٢٠ صَفَر) عن مقتل عشرين من البيشمركة.

^{٥١} الوَقِر هو الجَمَل، أي كان يُحَمَلُ راحلته.



وقد حدثنا عددٌ من الثقات من أهل المدينة أنهم شاهدوهم في السيطرات
الأمريكية، وأنهم سبّوهم وشتموهم هم وسائر أهل الفلوجة بحقد وغيظ.

حَوَادِثُ يَوْمِ الْجُمُعَةِ (١٩ صَفَر)

قال أبو أنس: انفجر الفجر مع انفجارات القصف والعصف المستمرة، وبدأت المدينة خاويةً على عروشها، والناس في حذر ووجل، وأقبلت غربان الشر، فقصفت (إف ١٦) منطقة نزال ودارت معارك ضارية في الجولان واعترف الأمريكيان بسقوط اثني عشر قتيلاً أمريكياً، كما ودمّر الأبطال ثلثي دبابات وأحرقوا ست سيارات همر، وانتقم الأمريكيان من مصور عراقي يعمل لصالح (القدس برس) فقتلوه بدم بارد، واعترف أحد قادتهم ببسالة أبطال الإسلام قائلاً: "إنهم يبقون إلى أن يقتلوا أو يُقتلوا"، وانتظرنا خطب الجمعة وأرهفنا آذاننا وتتبعنا الأخبار ونحن نُمَيِّن أنفسنا أن نجد فتياً صريحة أو حصّاً وتحريضاً، واشترأبت الأعناق نحو رئيس هيئة علماء المسلمين في العراق ننظر منه صرخة وإعلاناً صريحاً، وتمخّض الجبل فولد فأراً! كان غاية ما اجترأ على النطق به أن أفتى بوجوب مقاطعة البضائع الأمريكية، لقد كنا في واد وكان هو في واد آخر.

قال ابن منصور: كانت هناك جموع هائلة من الناس رجالاً ونساءً وأطفالاً وشيوخاً تتحرك سيراً على الأقدام أو تضع أمتعتها على سيارات، وكان الجميع يحملون أعلاماً بيضاء ويسيرون نحو مخرج المدينة الجنوبي من جهة النعيمية، وكلما اقتربنا من الطريق العام الذي يربط المدينة بالنعيمية كانت أعداد الناس تزداد، لكن ما إن وصلنا إلى طريق النعيمية حتى بدا المنظر وكأنه يوم الحشر، آلاف مؤلفة من الناس في موجة نزوح جماعي من المدينة هرباً من الموت وجحيم الحصار بعدما انتشرت إشاعة مفادها أن القوات الأمريكية تركت طريق النعيمية مفتوحاً لمن أراد الخروج من المدينة، ثم تقوم بعد ذلك بعملية اجتياح للمدينة حيث ستدمرها على رؤوس من سيقى فيها، فخرج عشرات الآلاف من الناس بنسائهم وأطفالهم وعجائزهم هائمين بحثاً عن مخرج وهرباً من الموت القادم الذي سيجتاح المدينة،

ولم تكن هناك سيارات تكفي لنقل عشرات الآلاف من الناس في تلك الهجرة الجماعية من المدينة، فكانت الأغلبية تمشي على أرجلها ترفع أعلامًا بيضاء يحملها الكبار والصغار طلبًا للأمان.

وكان المجاهدون كما أشرتُ آنفًا قد دمروا مساء الثلاثاء (١٦ صفر) مركز النعيمية الذي أقامته القوات الأمريكية التي فرت من الموقع مع أشلاء قتلاها وجرحاها، لكنها عادت بعد ذلك وبقي المخرج تحت سيطرتها الجوية والبرية حيث كانت تقصف كل من يحاول استخدامه، لكن الإشاعة ملأت المدينة في ذلك اليوم أن القوات الأمريكية قد فتحت المخرج لمن أراد الخروج.

حينما وصلنا إلى هناك شعرت بالفعل بأهوال أقرب ما تكون إلى أهوال يوم القيامة، الفزع والخوف والهلع والفوضى والصراخ والبكاء والنحيب والناس تجري في كل اتجاه.

نساء وأطفال وشيوخ، جرحى وموقوفون، صراخ وبكاء وعويل وضياع، المشهد لا يمكن أن يوصف، إنهم جميعًا كانوا يريدون الفرار من الموت الذي أصبح يتخطف الناس في الفلوجة من كل مكان في المدينة، يخطف الرضيع من على صدر أمه برصاصة قناص، والأب من بين أبنائه بقذيفة، والطفل وسط إخوانه بشظية، والعائلة كلها أحيانًا عدا رضيع أو عجوز بصاروخ.

لقد كدت أشعر في تلك اللحظات أنني لا أستطيع أن أجمع شتات نفسي، ثم صرخت فجأة حينما رأيته؛ رأيته هائمة تبكي وتصرخ وتذهب في كل الاتجاهات، إنها طفلة كانت تائهة ضائعة بين الزحام، تصرخ بحثًا عن أمها أو أي أحد من عائلتها التي ضاعت منها وسط الزحام في حالة الهرج والمرج والفوضى والضياع والهروب من الموت الذي كان يجتاح المدينة، لكنني حينما نظرت إليها وهي هائمة تصرخ وتبكي لم أرَ وجهها، وإنما رأيت وجه ابنتي الصغيرة رهام التي

كانت في مثل سنّها، فصرخت وأنا أركض تجاهها أحاول أن أساعدها في الهروب من الموت: آآآآآه يا صغيرتي آآه.

هزت أحداث الفلوجة البيت الأبيض ونقلت الوكالات في هذا اليوم أن الرئيس الأمريكي (جورج بوش) اطلع بنفسه على الوضع المتردي للقوات الأمريكية في اتصال عبر الفيديو من الفلوجة، كما تحدث إلى حليفه (توني بلير) وطلبه إلى اجتماع عاجل في واشنطن حدد له (٢٦ صفر)، علاوة على ذلك عقد (بوش) اجتماعاً لمجلس الأمن القومي الأمريكي لبحث الوضع في العراق.

قال بول بريمر في مذكراته: إن الاجتماع الذي عقد عبر دائرة تلفزيونية وحضره كلٌّ من الجنرال (جون أبي زيد ودونالد رامسفيلد وريتشارد مايرز وكوندوليزا رايس وديك تشيني والرئيس الأمريكي بوش) كان مخيباً للآمال من خلال العرض الذي قدمه الجنرال (جون أبي زيد) عن الوضع العسكري في العراق وقال (بوش) في نهاية الاجتماع: علينا أن نكون أشد من الجحيم الآن، الأمريكيون يريدون أن يعلموا بأننا نلاحق الأشرار، علينا المبادرة إلى الهجوم ومواصلته. لذلك عقدوا اجتماعاً آخر في نفس اليوم، لترتيب إجراءات الضوء الأخضر الذي أخذه من (بوش) لكي يكونوا أشد من الجحيم، لكن هذا اليوم لم ينتهِ بعد، فقد وردت أنباء تفيد بأن (المارينز) يواجهون مقاومة شديدة في الفلوجة.

فَصْلٌ فِي مَعَارِكِ اللَّيْلِ

قال أبو أنس: مع تضيُّفٍ^{٥٢} الشمس للغروب في هذا اليوم بدأت طائرات (الهليكوبتر) بالانسحاب من سماء المدينة، ولم تُعد تجرؤ على التحليق مُفسحة المجال للطيران الحربي، وكان هذا إعلاناً غير صريح بانكسار الموجة وفشل الخطة، وقد أصيب في القصف ليلاً أبو عمر الحلبوسي شهيداً -نحسبه- فسقط يتضرّع بدمائه،

وَجُرِحَ الْعَدُوُّ فِي هَذَا الْيَوْمِ خَمْسَ مَرَّاتٍ عِنْدَمَا حَاولَ أَنْ يَقْتَحِمَ الْمَدِينَةَ مِنْ مَسَارِبِ شَتَّى مِنْهَا مَرَّتَانِ فِي الْجَوْلَانِ؛ كُلُّ ذَلِكَ يَصْطَدِمُ بِإِرَادَةٍ لَا تَعْرِفُ الْقَهْرَ، وَعَزِيمَةً وَضَاءَةً كَبْرَى، وَأُسْقِطَتْ مَرْوَحَتَانِ وَاحِدَةٌ فِي الْجَوْلَانِ وَالثَانِيَةُ فِي الْعَسْكَرِيِّ، كَمَا وَأُسْقِطَتْ اثْنَتَانِ أُخْرَيَانِ فِي مَنَاطِقَةِ الْكُرْمَةِ، وَاعْتَرَفَ (كَيْمَت) بِسُقُوطِ خَمْسَةِ عَشَرَ جَنْدِيًّا أَمْرِيكِيًّا، وَأَمَّا مَصَابُ أَهْلِ الْإِسْلَامِ فَبَلَغَ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ نَحْوًا مِنْ ثَلَاثِمِئَةِ قَتِيلٍ وَخَمْسِمِئَةِ جَرِيحٍ.

طُويَتْ صَفْحَةُ الْخَمِيسِ وَحُلَّ الظَّلَامُ وَهَلَّ^{٥٢}، وَسَكَتَ الرِّصَاصُ وَخَيَّمَ سَكُونٌ لَمْ يَكُنْ يَخْرِقُهُ إِلَّا هَدِيرُ النَّقَّاتِ تُحَلِّقُ وَتَقْصِفُ بَيْنَ الْحَيْنِ وَالْآخِرِ.

الإِغَاثَةُ الْمُنْقَطِعَةُ

قال أبو أنس: ابتدأت بحمد الله قوافلُ الإِغَاثَةِ تَتَرى بِغَيْرِ انْقِطَاعٍ، بَلْ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا أَنَّهُ تَنَاهَى إِلَى سَمْعِنَا أَنْ دَفَقَ السِّلَاحُ وَالْأَمْوَالُ هَلَّ كَمْوَجٍ هَادِرٍ، وَإِنْ كُنَّا -عَلَّمَ اللَّهُ- لَمْ يَصِلْنَا شَيْءَ الْبَثَّةِ لَا سِلَاحَ وَلَا مَالٍ، وَلَمْ يَكُنْ يَصِلُنَا إِلَّا الْخِيَارُ وَالْبَنْدُورَةُ وَالْبَسْكَوِيَّةُ الْخُجْ، وَمَا عَدَا هَذَا فَكَانَ كَعَنْقَاءٍ مُغْرِبٍ يُسْمَعُ بِهَا وَلَا تُرَى، لَقَدْ كَانَ مُنْتَهَى الْقَوَافِلِ إِلَى مَقَرِّ الْحِزْبِ الْإِسْلَامِيِّ وَكَذَا الْحُضْرَةُ النَّبَوِيَّةُ، ثُمَّ يَخْتَفِي كُلُّ شَيْءٍ، وَلَمْ نَكُنْ نَسْتَطِيعُ فِي مِثْلِ هَذَا الظَّرْفِ أَنْ نَتَّبَعَ أَوْ نَسْتَقْصِي أَوْ نَفْتَحَ عَلَى أَنْفُسِنَا أَبْوَابَ فَتْنَةٍ، وَكَانَ عِنْدَنَا مَا يَشْغُلُنَا، وَالْمَشْغُولُ لَا يُشْغَلُ.

اسْتَمَرَّ الْكُرُّ وَالْفَرُّ وَتَسَارَعَتْ حُمَى الْهَرُوبِ الْكَبِيرِ مِنَ الْمَدِينَةِ، وَأَوْحَشَتْ الطَّرِيقَ، وَطُويَتْ صَفْحَةُ الْيَوْمِ وَاسْتَوْنَفَتِ الْحَيَاةُ صَبَاحَ السَّبْتِ.

حَوَادِثُ يَوْمِ السَّبْتِ (٢٠ صَفَر)

قال أبو أنس: صرح في هذا اليوم أحد قادة (المارينز) قائلاً - وصدق وهو كذوب - إن المجاهدين في الفلوجة أشرس من أيّة مقاومةٍ واجهها الجيش الأمريكي في فيتنام على الرغم من استخدام القوات الأمريكية لأعنف الأساليب العسكرية وأكثرها فتكاً.

كما وصرّح (باول) بأنه فُوجئ بضراوة المعارك.

فَصْلٌ فِي الْهُدْنَةِ مَعَ الْكُفَّارِ

قال أبو أنس: هذا الانكسارُ العسكري حمل الخبيث والحية الرقطاء (مارك كيميت) على التصريح مُرغمًا في مؤتمر صحفي بأن إدارة الاحتلال مستعدةٌ لتنفيذ هُدنةٍ مع العناصر المعادية.

وجعلت قافلةً الوسطاء تغدو وتروحُ بيننا وبين الأمريكان كالشاةِ العائرة^{٥٤} بين قطيعين، وكانت شروطنا كالاتي:

١- وقف الغارات.

٢- وقف المdahمات وترك دخول المدينة.

٣- الانسحاب الكامل.

٤- التعويض.

وأرسل الأمريكان يشترطون الآتي:

١- تسليم الأربعة الذين مثّلوا بالأمريكان.

^{٥٤} العائرة هي التي لا يُعرَف لها مالك، أو المترددة بين قطيعين لا تدري أيها تتبع.



- ٢- تسليم المجاهدين العرب.
- ٣- تسليم أسماء المنشقين من الشرطة.
- ٤- التعهد بعدم إطلاق النار على الجيش.

حَوَادِثُ يَوْمِ الْأَحَدِ (٢١ صَفَر)

قال ابن منصور: قال (جورج بوش) في خطاب ألقاه في قاعدة (فورت هود) لبعض عائلات القتلى الأمريكيين في العراق: لقد واجهت قواتنا أسبوعًا قاسيًا! وأنا أصلي كلَّ يوم من أجل أن تتراجع الحسائر.

قلت: في خطابه الأسبوعي الإذاعي الذي بُثَّ في نفس اليوم مخاطبًا الأمريكيين بنبرة الهزيمة: هذا الأسبوع في العراق واجهت قوات التحالف تحديًا، ونقلت القتال إلى ساحة العدو، وإن إرادتنا الدفاعية سوف تستمر خلال الأسابيع المقبلة.

قال أبو أنس: تم الاتفاق على وقفٍ لإطلاق النار لمدة اثنتي عشرة ساعة وخرجت الحية الرقطاء (كيميت) فزعم - كاذبًا كعادته - أنهم قبضوا على خمسة مقاتلين من مصر والسودان وسوريا، واعترفت أمريكا بمقتل جنديين على يد قنَّاصٍ.

وفي نحو الحادية عشرة صباحًا حصل اقتحامٌ من ناحية حيِّ الجغيغي، واستعرت لظى حربٍ زُبُونٍ^{٥٥} امتدَّت ستَّ ساعاتٍ ونصفَ الساعة إلى نحو الساعة الخامسة والنصف مساءً، فهدأ عند ذلك ضجيج الحرب وأمسكت طلُّوها عن الدَّقِّ وانسحب الكفارُ يحملون خمسة وعشرين قتيلاً، وانجلى عجاج المعركة عن تدمير أربع مدرعات وحرقت خمس همرات، وفي الحي العسكري دُمِّرت مُدَرَّعةٌ وقُتِل أربعة جنود، وكان من الفواقِرِ^{٥٦} التي وقعنا فيها أننا وافقنا على هُدنةٍ للتفاوض، وكانت خدعة أريبٍ وقعنا فيها بشكل غريب، وإلى الله المشتكى.

^{٥٥} حرب زُون أي تصدمهم وتدفَعهم.

^{٥٦} الفواقِر جمع كلمة (لفاقرة) الداهية، يقال: فَقَرْتُهُ الْفَاقِرَةُ؛ أي كَسَرْتُ فَقَارَ ظَهْرِهِ.

حَوَادِثُ يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ (٢٢ صَفَر)

قال أبو أنس: أسرَّ الأمريكيان إلى الوفد المفاوض بإسقاط جميع الشروط، ومن الطرائف أنهم قالوا لهم: بالنسبة للعرب فنحن نعرف أنهم انسحبوا!! وبدا أن المشكلة هي فيمن سيتولى الأمر ويمسكُ بزمام الأمن في المدينة بعد رحيل الأمريكيان، وتشاورنا في هذا الأمر وبدا لنا أننا لم نتهياً بعدُ لحُكم المدينة، وأنه لا يُعقلُ من بعدُ أن تقيم دولةً في الفلوجة فقط، فسكتنا وأغمضنا العين على رجوع الجنود والشرطة، شرط أن لا يتعرضوا لمجاهد، وبموازاة ذلك أعلن الربيعي غير الموفق استقالته من مجلس الحكم ليُعيّن مستشاراً للأمن القومي الأمريكي عفوًا العراقي!!

وقد تسامع الناسُ بأنه والجلبيّ وعلاوي كانوا يضغطون لجهة إنهاء المعركة وحسم القضية بقنابل دمارٍ شاملٍ تمسح المدينة من الخارطة؛ ليُصار إلى مسحها بعد ذلك من الأذهان، وأنه المخرج من هذه الورطة والحلُّ لهذه المعضلة المسماة (الفلوجة).

وفي ذات الوقت نشرت بعضُ وكالات الأنباء خبر احتفال الجنود الأمريكيان بـ(عيد الفصح) وأنَّ إبليس قد أرسل بقسّيسٍ يشاركهم عيدهم ويرفع لهم من معنوياتهم الهابطة، وأنه قال لهم مثبتًا: لم نعتد بأن تكون المهمة سهلة، لكن أخبرنا الرب بأنه معنا على طول الطريق. وأضاف قائلاً -وكذب-: لسنا خائفين من الموت؛ لأن السيد المسيح سيُعطينا حياةً أبديةً.

كان ذلك محاولة يائسة لرفع معنوياتٍ منهارةٍ لجنودٍ سُكّارى يُجْبُون الدنيا والحياة.

فِتْنَةُ الرَّهَائِنِ

قال أبو أنس: أخبرنا الدكتور رافع أن الجنود احتفلوا به وأقبلوا يستثبتونه عن خبر الانسحاب وأن أساريهم قد انفرجت وضحكاتهم قد خرقت السماء فرحاً وغبطةً بهذا الخبر، وفي هذا اليوم أُفْرِجَ عن الرهائن الصينيين بإشراف هيئة العلماء! وهنا لا بد لنا من تسليط الضوء على هذا الحدثِ وأمثاله، فلقد رأى الناس كيف جدَّ هؤلاء واجتهدوا وبُثُّوا عيونهم وأرهفوا آذانهم وكانوا يبحثون بجِدٍّ منقطع النظير عن الأسرى من الكفار الذين وقعوا بأيدي المجاهدين، وأشهد أنهم جاهدوا في هذا جهاداً صغيراً! ولم يألوا جهداً^{٥٧}، واستعملوا كل أساليب الإقناع وطرائق التوسل والرجاء مع كثيرٍ من الاستخذاء ليظفروا بهذا الشرف العظيم أعني إطلاق الرهائن، لقد كانت فرصة عظيمة للمجاهدين لو قتلوهم وقطعوا رؤوسهم أن يُحدثوا شرخاً في بناء التحالف وأن يُشردوا هؤلاء من خلفهم ليذوقوا عاقبة انقيادهم للأحق المطاع، لكن هؤلاء -العمائم- لا يُحسنون إلا فقه الهزائم!

أما الرهائن اليابانيون فهذه -وايم الله- مذلة العصر، فبدل الإنجاد والإمداد والإعداد للجهاد ونصرة إخوانهم المحاصرين، وبدل أن يركب هؤلاء خيب المنايا ويُسرِّجوا جياذ الفداء والاستشهاد؛ ركبوا سياراتهم الفارهة ومضوا يُسابقون الزمن ويتراكمون بسعيٍّ محمومٍ للوصول إلى هؤلاء البرآء -خطيئة- ليظهروا أمام العالم أنهم جملانٌ وديعةٌ بل شياؤه مناقدةٌ لا تُحسن إلا الثُّغَاء^{٥٨}، لا أظن أن الأيام تمحو من ذاكرتي أو تنسخ من مخيلتي صورة مندوب هيئة العلماء وهو يُعانق الأسرى اليابانيين بل يقيمهم من مجلسهم ليحظى بهذا العناق الكريم، لقد كان تلك الليلة برّاق الثنايا وثغرة قد افتتحت عن بسمَةِ تحكي فرحاً غامراً بهذا النصر الحاسم في الوقت الذي كانت طائرات العدو تصبُّ حمم الموت الزُّؤام على رؤوس

^{٥٧} لم يَأَلُ جَهْدًا أَي لم يدع جهداً ولم يقصّر.

^{٥٨} الثُّغَاء صوت الشاة والمعز ونحوهما.



الأبرياء من أهل الإسلام.

حَوَادِثُ يَوْمِ الثَّلَاثَاءِ (٢٣ صَفَر)

قال أبو أنس: في هذا اليوم تجرأت دبابة فاقتحمت ناحية حيّ نَزَال وحصلت زعزعة وزلزلة، وانتدب لها أبو أوس فرماها بصاروخ (آر بي جي) فلم ينطق، وانتحى جانباً وألقم قاذفته الصاروخ الثاني فخاب كأخيه، ثم أكرمه الله فبسمل ورمى فأصاب منها مقتلاً، وتعالى في السماء دخانها، مرت لحظات قاسيةً وشديدةً، فقد بدا أن العدو قد اخترق تحصيناتنا ودمّر دفاعاتنا ومضى حتى وصل إلى العمق.

فِتْنَةُ الْمُرْجَفِينَ

قال أبو أنس: وابتدأت سنة التمحيص، وداخل القلوب رُعبٌ شديدٌ وخوفٌ هائل، أقبلت بعد ذلك الطائراتُ المقاتلة فألقت أحمالاً بطنها وصبت جاماً^{٥٩} غضبها، وكان هذا قبيل الغروب وبدت تلك الليلة وكأنها مِرْجَلٌ يغلي بأثون^{٦٠} الفتنة التي لاحت نُذُرُها في الأفق، ومع الصباح أقبل جمعُ المرْجفين وتراكضت خيولُ المُخْذِلين وعلى رأسهم بعض عمائم الشر والسوء يثُثون في الناس الوهن، ونعق ناعقهم بأنّ المجاهدين قد بدأوا في الانسحاب وتسليم السلاح، وأن الأمريكان سيدخلون المدينة.

هنالك ابتلي المؤمنون، وبدأت الوحشة تسري في القلوب، فلقد خوت طرقات المدينة وأقفرت أَرْقَتْها؛ وتلك السنة الإلهية في الابتلاء، وذلك أنه وبسبب البطولات والفداء التي سطرّها المجاهدون -مهاجرين وأنصاراً- التحق بالقافلة وركب القطار الغثُ والسمينُ وغصّت الثغورُ بمن هبَّ ودبَّ وحمل الجميع السلاح، فكان لا بد من التحميص والحصصة^{٦١}.

^{٥٩} الجام الإناء أو الكأس.

^{٦٠} الأثون الموقد.

^{٦١} الحَصَصَة: الحركة في شيء حتى يَسْتَقَرَّ فيه وَيَسْتَمْكِن منه ويثبت.

كنتُ في هذا الوقتِ أشعرُ بالعِيبِ الرَّزَّاحِ^{٦٢} ينوءُ^{٦٣} به كاهلي وأنا أطوف على الثغور واعظًا ومذكرًا، لقد كانت الوجوه شاحبةً والأرواح مكدودةً والقلوبُ مرهقةً والجميع يتساءل: أحقًا سنسحب؟ وهل سيدخل الأمريكان؟

ووجدتني مدفوعًا من حيث لا أدري إلى أن أقوم فيهم فأقول: والله إنكم لمنصورون، ولن يدخل الأمريكان، والله إننا سننتصر في غزائنا هذه لو نُهزم.

فَصْلُ أَخْبَارٍ وَمَوَاقِفَ مُتَفَرِّقَةٍ يَرْوِيهَا أَبُو أَنْسٍ

قال أبو أنس: كنت أحاول -على تقصيري- أن أطوف بالمرابطين على الثغور في الفلوجة مُذكِّرًا وناصحًا لهم، وكنتُ أجدُ نفوسًا ظامئةً وقلوبًا عطشى إلى الهدى والعلم وأرواحًا تتقافزُ طلبًا للكمال، وحين يعظمُ البأسُ ويشتدُّ ليلُ المحنِ كنتُ أجدُ نفوسًا قلقةً تتلهَّفُ إلى موعظةٍ تسكبُ فيها طمأنينة، وتتلفَّتُ تبحث عن تذكِّرةٍ تُردُّ بعض الأمل والثقة بالنصر، وربما ألحَّ عليَّ بعضهم أن لا أفارقهم فأتعلَّلُ صادقًا بأن هناك غيرهم ممن يحتاج إلى مثل ما يحتاجونه.

اسْتِشْهَادُ أَبِي الْبَرَاءِ الْأَنْصَارِيِّ

وقال أبو أنس: استشهد في هذه الأيام جمال أبو البراء الأنصاري من الخالدية، كان يتحرَّق للشهادة، ولما سمع بأمر الهدنة وظن أن الحرب ستضع أوزارها ابتأس وبدأ عليه حُزنٌ عميق وهو يقول: ها قد ضاعت مني فُرصةُ الشهادة، مشى يومًا فأبصر على الأرض ظروف طلاقاتٍ فارغةٍ فالتقط بأنامله ظرفًا، وقال وهو يتأملُه حسيّرًا كسيّرًا: "طلقة أو اثنتان ثم الشهادة"، كان واقفًا بعد ذلك نحو أربعة من الإخوة ناحية القائم مقامية وفجأةً تعمدته قنَّاصٌ برصاصة في جبهته فخرَّ صريعًا لليدين وللنم، وانطبعت على محيَّاه ابتسامةٌ رقيقةٌ تحمي فرحته بتحصيل أُمْنِيَّتِهِ،

^{٦٢} رَزَّحَ أي سقط من الإعياء هُزَّالًا.
^{٦٣} ناء بحمله أي نهض بجهد ومشقة.

فرحمه الله.

الجَوَاسِيسُ

وقال أبو أنس: كانت الساحة تُمُور بالجواسيس والسَّقطة الذين باعوا دينهم وأمتهم مقابل لُعاةٍ من مال، وقد أثر هؤلاء في بعض المواقِفِ وأنكوا فينا نِكاية شديدة؛ من ذلك أن أحدهم ألقى قرصًا في كراج أبي سرمد فقُصفوا واستشهد عدد منهم وأصيب آخرون واحتُرقت حاوية سلاح كُنا ندَّخِرُها للمُلمَّات، وانسحب الإخوة وخلا ثغر الجبيل من حراسة، ولبثنا نحو ثلاثة أيام لا نجد أحدًا يسُدُّ هذه الثَّغرة، حتى يسَّرَ اللهُ بعد ذلك الأمر ولملنا بعض الإخوة من هنا وهناك فربطوا على أن يُشاغلوا العدو إذا دهمهم لحين حُضور المدد والعون من سائر الثغور والنقاط في المدينة، نعم أيها المسلم؛ ثلاثة أيام وهذه النقطة فارغة ليس فيها أحد، ولو دخل منها العدو لاقتحم إلى قلب المدينة من غير قتال، لقد كُنا ننام تلك الليالي بقلوبٍ وجِلَّةٍ وأفئدة قلقله، لا تملك إلا الدعاء والتضرع لرب الأرض والسماء أن يأخذ بعيون الكفار عن هذه النقطة.

مِنْ أَحْوَالِ الثَّابِتِينَ

قال أبو أنس: الذين ثبتوا مرابطين على الثغور حتى انكشف الغمة وانكسار الموجة لا يتجاوزون المئتين والخمسين فقط! والعتاد قد تناقص، والذخيرة قد شحَّت، وشُدِّد الحِنَاق، وضاق بنا الفضاء في آخر الأيام بحيث صِرنا نجمع للإخوة طلقات بنادق (الكلاشنكوف) تسوُّلاً من الثغور، طلقة من هنا وأخرى من هناك، ولعله لو قامت معركة تستمر ربع أو نصف ساعة لما بقي معنا شيء نرمي به العدو، لكنه الفضلُ الإلهي، ومع هذا الضيق كُنا نشعر حقيقةً أن الله مولانا ولا مولى لهم.

قال أبو خطاب: في آخر أيام المعركة، خصوصاً في معركة جُبَيْل، نفدت عندنا الذخيرة بكاملها؛ وخصوصاً العتاد الخفيف، فشكوت الأمر لأبي أنس فقال لي: "اجمع الإخوة"، فجمعت له الإخوة، فرفع يده بالدعاء فقال: "يا رب الأمر أمرك ونحن عبيدك، خرجنا لنصرة دينك، وأخذنا بالأسباب فلم يبقَ إلا نصرك، ولم يبقَ إلا مددك، اللهم هذا ذلنا ظاهر بين يديك وحالنا لا يخفى عليك، فأنزل علينا نصرك وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين"، وأصبح يذكّرهم بموعود الله، وسأل الله لنا الثبات؛ وما هي إلا ساعات حتى أعلنت أمريكا اللعينة انسحابها من حصار الفلوجة وهي تجر أذيال الهزيمة وتلعق جراحها التي لم تلتئم إلى الآن.

قال أبو أنس: مشكلتنا كنا ننام ونستيقظ على أزيز الطائرات وهدير القاذفات وأصوات القصف؛ حتى صارت لنا كأهازيج النور التي تُهدّد الأمّ بها ولدها الصغير حتى ينام.

الرُّؤَى

وقال: لقيتُ هذا اليوم أبا حفص المقدسيّ بعد طول غياب لأنه يمرض^{٦٤} بعيداً عنا في مكان آمن، وبعد العناق الحار تذاكرنا أيام المعركة وحديث الجهاد فأفضى إليّ ببعض الرؤى التي رآها بعضُ إخواننا؛ ومن ذلك رؤيا رآها عبد الرحمن من الجزيرة العربية رأى فيها عموداً من نور نزل من السماء إلى الفلوجة فأضاء ليلها ثم انتشر عرضاً في طول البلاد وعرضها، وهي رؤيا حق - إن شاء الله -.

وقال أبو أنس: أخبرني أبو عبد الرحمن البغدادي بعد الأحداث أنه رأى في منامه رجلاً ملثماً يحمل قاذفةً يقاتل مع المجاهدين فسأل: من هذا؟ فقليل له: هذا رسول الله. فكانت بشارة خير.

فَصْلٌ فِي رُعْبِ الْكُفَّارِ مِنَ الْمُجَاهِدِينَ الْأَبْرَارِ

قال أبو أنس: العدد نقص جدًّا في الجولان، وكان الإخوة يُرابطون في الوسط من منطقةٍ ممتدةٍ، ولنقصِ العددِ لم نكن نستطيعُ أن نُغَطِّيَ كلَّ المداخل، وشاء الله أنهم قرروا الاقتحامَ وتهَيَّأوا للدخولِ والتسلُّلِ مع بواكيرِ النهار، لقد ساقهم الله بحكمته واستدرجهم بمكره إلى النقطة التي يربط فيها الإخوة، ولو تسلَّلوا من الجناحين لالتفوا حول الإخوة وبطشوا بهم، سمع حَسَّهم أبو عمار السوري فغمز (البي كي سي) فزغردت وأصاب عددًا منهم، وتصايح الإخوة وقاموا من نومهم مبادرين ودارت رحي حربٍ ضروسٍ، وقذفت الدبابةُ بحمَمِها فهَدَّمت بعض البيوتِ وصَيَّرَتها أنقاضًا، وكان الوحيد الذي أُصيب الفتى عمار السوري أصغر المجاهدين في هذه المعركة، في نحو الثانية عشرة من عمره.

استمرت المعركة إلى ما بعد العصر، وكان الإرهاقُ أخذ من الإخوة كلَّ مأخذٍ بحيث إنه لو طالت المعركة ساعة أخرى لأخذهم العدو مسك اليد، لكن الله ألقى الرعب في قلوبهم فانسحبوا خائبين، وأقبلت في إثرهم المقاتلاتُ تقصِّفُ بكل أنواع القنابل المحرمة دوليًا!

أصغينا تلك الليلة إلى الأخبار؛ فزعم الأمريكيان أنهم صدوا هجومًا للإرهابيين وكبدوهم نحو ثمانية وثلاثين قتيلاً! ولم ندرِ أنضحكُ من هذا الهراء أم نبكي؛ لأننا لا نستطيع أن نُفْرِحَ أمتنا بالحقيقة التي عشناها؛ لم يُقتل أحدٌ في هذا اليوم حاشا أحد الإخوة برصاصِ قنَّاصٍ في الحي العسكري، ولعل الأمريكيان عدُّوا قتلهم ثم انقلب عليهم الأمر فخالوهم منا!

ومن المواقف المُعْجِبة في هذه الحرب أنهم كانوا ينادوننا قائلين: "استسلموا لقوات (المارينز) التي لا تُقهر" كنوع من الحرب النفسية، ولم نلبث إلا أيامًا حتى

رأينا مُدْرَعَاتِ الْعَدُوِّ وَجَنَدَهُ يَرْفَعُونَ الرَّايَاتِ الْبَيضَاءَ، إِي وَاللَّهِ وَذَلِكَ بِفَضْلِ اللَّهِ.

وَلَا أُنْسَى تِلْكَ الْحَادِثَةَ الْعَجِيبَةَ الَّتِي تَحْكِي الْخَوْفَ وَالرَّعْبَ الَّذِي دَاهَمَ قُلُوبَهُمْ وَاقْتَحَمَ أَفْئِدَتَهُمْ؛ حِينَ أَقْبَلَ رَكْبٌ مِنْ خَمْسَةِ جُنُودٍ مِنَ (الْمَارِينِزِ) يَتَقَدَّمُهُمْ وَاحِدٌ مِنْهُمْ يَحْمِلُ رَايَةَ بَيْضَاءَ مِنْ نَحْوِ الْحَيِّ الْعَسْكَرِيِّ، وَلَمَّا رَأَاهُمْ صَاحِبُ النُّوبَةِ لَمْ يَدْرِ مَا يَصْنَعُ فَأَصْلَاهُمْ مِنْ فُورِهِ حَمَمَ (الْبِي كِي سِي) فَجَنْدَلُ مُقَدِّمَهُمْ حَامِلُ الرَّايَةِ وَوَلَّوْا الْأُدْبَارَ.

وَأُطْرَفَ مِنْ هَذَا أَنَّ مَنَادِيَهُمْ نَادَى مِنْ نَاحِيَةِ السُّوقِ -الْجَسْرِ الْقَدِيمِ- قَبْلَ انْكِشَافِ الْغَمَةِ بِيَوْمَيْنِ يَقُولُ: "هِيََا اخْرُجُوا أَيُّهَا الْجَبْنَاءُ لَتَقَاتِلُوا نِسَاءَ قَوَاتِ (الْمَارِينِزِ)"، فَرَمَاهُمْ عِمَادٌ بِالْهَائُونَ فَوْقَ وَسْطِهِمْ فَأَقْصَدَهُمْ، وَمَا هِيَ إِلَّا لَحْظَاتٌ وَإِذَا بِصَائِحِهِمْ يَنَادِي وَيَقُولُ: "الرَّجَاءُ التَّزَامُ الْهَدَنَةُ، الرَّجَاءُ الْهَدَنَةُ"، وَقَلْنَا سُبْحَانَ اللَّهِ!

وَقَالَ: لَا أُنْسَى هُنَا أَنَّ أَشِيدَ بِالْبَطْلِ عِمَادَ قَائِدَ كَتِيبَةِ الْهَائُونَ هُوَ وَمَجْمُوعَتُهُ، فَقَدْ كَانُوا السَّلَاحَ الْمُنْكَيَ وَالْيَدَ الْبَاطِشَةَ الَّتِي رَجَّحَ اللَّهُ بِهَا كَيْفَةَ الْمُجَاهِدِينَ، فَجَزَاهُمُ اللَّهُ عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ خَيْرًا.

وَقَالَ أَبُو أَنْسَ: عَبْدُ الْحَقِّ الْبَغْدَادِيُّ قَنَاصٌ، لَقِيتَنِي هَذِهِ اللَّيْلَةَ فَبَادَرَنِي مَبْشَرًا بِأَنَّهُ تَرَكَ التَّدْخِينَ وَتَابَ مِنْهُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى تَوْفِيقِهِ رَابِطٌ فِي حَيِّ الشَّهَدَاءِ مَعَ مَجْمُوعَةِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ التُّونِسِيِّ فَصَدُّوا وَرَدُّوا عَدَدًا مِنْ غَارَاتِ الْعَدُوِّ وَكَسَرُوا عِدَّةَ مَوْجَاتٍ بِجَوْلِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ.

تَتَابَعَتِ الْأَحْدَاثُ عَلَى هَذَا الْمَنْوَالِ، وَرَأَيْنَا غَدَرَ الْأَمْرِيكَانِ وَنَكْثَهُمُ بِالْعَهْدِ مَا لَا يُوصَفُ، وَالشَّيْءُ مِنْ مَعْدِنِهِ لَا يُسْتَغْرَبُ.

حَوَادِثُ يَوْمِ الْأَحَدِ (٥ رَبِيعِ الْأَوَّلِ)

قال أبو أنس: مع إشراقة هذا اليوم بدأت العوائل المُهَجَّرَة التي ضاق بها الفضاء ولم تسعها الأرض بما رُحبت بالعودة إلى المدينة، وكان أمرُ الهدنة ما زال ضبابيًا، وإن بدا واضحًا للعيان أن إرادة القتال قد أفلست عند الأمريكيان، وأنهم يبحثون عن كُؤَّةٍ في جدار الذل الذي أحاطت بهم أسواره ليخرجوا منها ببعض ماء الوجه.

وكنّا نحن نشعر بهذا، ولذلك وافقنا على دخول عدد محدود من العربات الأمريكية في الطريق الرئيسي الواصل إلى القائم مقامية وفي مسار محدود ولأجل محدود وميقاتٍ مضروب، كنوعٍ من ردِّ الاعتبار.

وفوجئنا ليلة التنفيذ بالحية الرقطاء (كيميت) يصرّح بأن القوات الأمريكية لن تدخل المدينة مخافة أن يغدر المقاتلون ويأخذوا الأمريكيان رهائن ويتخذوهم دروعًا بشرية!

كل هذه الأحداث والقصف الجوي مستمر لا ينقطع، ومن المضحكات أن الجنود الأمريكيان كانوا يتعمدون فتح الموسيقى الصاخبة طوال الليل وبأعلى صوت عبر سماعات ضخمة، وما درينا أهو غيظٌ منهم للقرآن الذي كانت تبثه منابر المساجد أم هو أفيون تخدير ينقلهم من المأساة التي يعيشونها إلى عالم الطرب وسكر النفوس هربًا من الحقيقة شديدة الوطأة.

حَوَادِثُ يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ (٦ رَبِيعِ الْأَوَّلِ)

قال أبو أنس: تقدم عدد من الإخوة تسلاً إلى أطراف الجولان بقيادة أبي ناصر الليبي ومنهم جند الله الكردي وأبو الحارث البغدادي ومجيد الفلوجي وأبو الوليد الكويتي وأبو الزبير النجدي وأبو علي الفلوجي وأبو مسلم اليمني وأبو معاذ الفلوجي وعبد الهادي اليمني وعمر وعبد المجيد من الفلوجة.

كان الإخوة في أطراف الجولان بإمرة أبي عمار السوري قد اجتمعوا وتحادثوا في أمر بيتٍ عسكريٍّ فيه الأمريكان، واتفق الجميع على خطة اقتحام، وتقدم المذكورون من جهتين، وحين دنت المجموعة الأولى من البيت الملاصق للهدف سقطت علبة دخان فارغة ألقاها أحد الجنود الأمريكان على رأس أحد الإخوة، فتبين لهم أن العدو متمركز في بيتين لا بيت كما توهموا، وانقسموا مجموعتين، واقتحم الأسود، تقدم الأبطال وعلى رأسهم جند الله وعبد الهادي اليمني وباستعمال القناديل اليدوية تم التمشيط بال(بي كي سي والكلاشنات) فأخذوا لهم كل مقاومة، وركبوا الإخوة السطح واستهدفوا البيت الآخر فأخرسوا مقاومته، ورأى أبو المهاجر -وقد أشرف على المقبرة القريبة- جموعاً من جنود المشاة فصاح: العلوج! وغمز (البي كي سي) فجندل منهم عدداً، وابتدأ قصف رهيب شاركت فيه مدرعة كانت بالقرب من الموقع، وانضم إليها جموع من الأمريكان كانوا فوق ظهر بيت في نهاية الجولان، وهم الذين ظهرت صورهم على شاشات التلفاز.

وانسحب الإخوة سريعاً، وأصيب في الانسحاب جند الله الكردي بطلقة في بطنه فاضت معها روحه الطاهرة إلى الله، كما وأصيب أبو الحارث البغدادي برصاصة في رأسه نُقِلَ بعدها إلى بغداد لتغادر الروح الجسد إلى الله تعالى، وعبر جدران وأسوار المنازل انسحب الإخوة يحملون جثامين إخوانهم من سور إلى سور

حتى أفضوا إلى مكان آمن، وتتابع القصف الأمريكي على الموقع فدمروه وأجهزوا على من عساه يكون حيًا من جنودهم.

فَصْلٌ فِي غَزْوَةِ الْعَيْرِي

قال أبو أنس: كنا نتربص هاتيك الأيام وننتظر ضربة البصرة البحرية، وذلك أننا كنا نؤمل أن تكون ضربة قاصمة تزلزلهم وتهُدُّ بنيانهم فيضطرون إلى فك الحصار وتخفيف الضغط علينا، وكلما رُسِمَتْ في شاشات التلفاز إشارة خبر عاجل تحفزت النفوس واشترأبت الأعناق.

حتى أذن الله بالفرج؛ فكانت أولاً ضربات مراكز الشرط في البصرة؛ وكانت ضربات موجعةً منكية بحمد الله، وتبعتها بحمد الله قاصمةٌ الظهر لهم (غزوة يوسف العيري رحمه الله) البحرية، صحيح أن العملية لم تكن تمامًا كما قُدِّرَ لها، وذلك أن دوريةً من أربعة عشر جنديًا بريطانيًا اشتبهت في أحد القوارب فأوقفوه وانتقلوا إلى قاربه للتفتيش، فما كان منه إلا أن فجَّرَ فانتقل وإياهم إلى الدار الآخرة وليسوا سواء إن شاء الله، فتوتر الجو وانكشف الأمر قبل أن تبلغ بقية القوارب منتهاها، ومع ذلك فقد كانت ضربةً موجعةً، وحسبُك أنهم لم يُظهروا صورة للميناء ولميدان العملية، كما وانقطع ضخ النفط شهورًا طويلة، وكان ينبغي أن تُفجَّرَ ناقلتان كبيرتان وثلاث مدمرات حربية للقوات الأسترالية، كانت الضربة موجعة، ومع ذلك فنحن نُقِرُّ أننا لا ندري حجم الخسائر، ذلك أن الموقع كان على بعد خمس ساعاتٍ من الشاطئ؛ لذا فقد كان تصوير الأحداث متعذرًا، ولكن حسبُك إضافةً إلى ما تقدّم أن رئيس الوزراء الأستراليّ جاء سريعًا وفي زيارة خاطفة إلى العراق، وكفى بهذا شاهدًا.

حَوَادِثُ يَوْمِ الثُّلَاثَاءِ (٧ ربيع الأول)

قال أبو أنس: فجر استشهاديُّ سيارته في الرضوانية؛ وتطايرت أشلاء نحو سبعين جنديًّا أمريكيًّا، ومن الغد الثلاثاء (٧ ربيع الأول) تبعثها أخرى في اليوسفية كان حصيلتها نحو خمسين جنديًّا أمريكيًّا، أثلجت الأخبار صدورنا وقرّت بها عيوننا وانفسح أماننا ميدان الأمل مدّ البصر بقرب النصر والظفر.

حَوَادِثُ يَوْمِ الْخَمِيسِ (٩ رَبِيعِ الْأَوَّلِ)

قال أبو أنس: دَمَّرَ الأمريكيُّانُ منارةَ المسجدِ المعاضيدي.

وقال: في هذه الليلة -تقديرًا- عُدْتُ^{٦٥} بِرِفْقَةِ أَبِي خُطَّابٍ وَأَبِي عَبْدِ اللَّهِ بَعْضَ الْإِخْوَةِ الْمَصَابِينِ مِنْهُمْ، سَامَرْنَاهُمْ قَلِيلًا وَصَلَّيْنَا الْعِشَاءَ جَمِيعًا ثُمَّ قَفَلْنَا عَائِدِينَ صُوبَ الْجَوْلَانِ وَالْقَصْفِ لَا يَفْتُرُ فَوْقَ رُؤُوسِنَا، وَحَلَّقَتْ فَوْقَنَا طَائِرَاتُ الْمَوْتِ الزُّوَامِ، وَوَقَفْنَا بِرَأْسِ فَرْعٍ نَائٍ نَاحِيَةَ بَيْتِ أَبِي خُطَّابٍ عَلَى نَحْوِ خَمْسِينَ مِترًا، فَعَقِبَ عَلَيْنَا مَازِحًا وَقَالَ: هَلَّا أَتَمَّمْتُمْ عَمَلَكُمْ وَأَوْصَلْتُمُونِي بَابَ الْبَيْتِ؟ فَاعْتَذَرْنَا بِسُخُونَةِ الْأَجْوَاءِ وَحَرِّ الْمَوْقِفِ، وَتَرَجَّلَ حَذِرًا يَمْشِي بِمَحَاذَاةِ الْبُيُوتِ، وَأَطْلَقْنَا سِيقَانَ السَّيَّارَةِ لِلرِّيحِ لِحِظَاتٍ وَانْهَالَ قَصْفٌ كَالْمَطَرِ عَلَى الشَّارِعِ وَدُمِّرَتْ ثَلَاثُ سَيَّارَاتٍ كَانَتْ تَعْبُرُ فِيهِ، وَمَضَيْنَا نَحْنُ تَحْتَ أَزْيِزِ الطَّائِرَاتِ حَتَّى أَرْفَأْنَا^{٦٦} إِلَى بَيْتِنَا سَالِمِينَ.

اشْتَدَّ الْقَصْفُ فِي هَذِهِ اللَّيَالِي جَوًّا وَبَرًّا بِالطَّائِرَاتِ وَالدَّبَابَاتِ وَالْمَدَافِعِ، وَبَدَأَ أَنْ الْأَمْرِيكَانِ قَدْ اسْتَكَلَبُوا بَيْنَ يَدَيِ انْسِحَابِهِمْ تَغْطِيَةً لْجُنُودِهِمِ الْمُنْهَزِمِينَ، حَتَّى كَانَ يَوْمَ السَّبْتِ.

^{٦٥} هي زيارة المريض.
^{٦٦} أرفأ إليه: لجأ.

حَوَادِثُ يَوْمِ السَّبْتِ (١١ ربيع الأول)

قال أبو أنس: في هذا اليوم ابتدأت القوات الأمريكية بالانسحاب، وتزامن انسحاب الفوج الخامس من الكتيبة الأولى لمشاة البحرية من الأطراف الغربية الجنوبية للفلوجة مع دخول لواء الجيش العراقي.

ومن الأخبار الطريفة أن الشرطة العراقية في الحي الصناعي تفاجأت بقيام أحد الجنود الأمريكيين بالصياح والصراخ والبكاء بحالة هستيرية فرحًا بالانسحاب.

كما وحلقت في هذه الليلة طائرات (بي ٥٢) مُحَدَّثَةٌ دَوِيًّا رَهِيًّا؛ وهي تروم - بظنهم - إرهاب المجاهدين وإخافتهم.

وفي محاولة أخيرة فاشلة حصل هجوم على الجولان في نحو الساعة (٧:٤٥) واستمر إلى الساعة (٨:٢٠) وباء بفضل الله بالفشل وانكفأوا خزايا وندامى.

حَوَادِثُ يَوْمِ الْأَحَدِ (١٢ رَبِيعِ الْأَوَّلِ)

قال أبو أنس: سَمِعَ قِصْفَ وَدُويٍّ ثَمَانِيَةِ انفجارات قوية في حي الجعيفي والعسكري قبيل الظهر، كما وأُعلِنَ عن وصول سبع جثث للبشمركة إلى كركوك، وامتنع الناس عن الصلاة عليهم.

تتابع الانسحاب سريعاً وتتابع جموع العائدين تترى، وطويت صفحات محنة ومنحة خافضة رافعة، ارتفع معها بعض الناس فطاولوا عنان السماء، وانحط آخرون كانوا فيما مضى بُدورًا وأقمارًا أو هكذا ظن الناس، وهذا شأن الفتن وحديث المحن وصنيع الابتلاءات، صفحات لا تُنسى أحداثها، ولا تنسخ الأيام عبقها وأريجها في صدور أهل الإيمان.

فَصْلٌ فِي مَأْسَاةِ الْأَمْوَاتِ

قال ابن منصور: بدأت المشكلة تتفاقم مع أول يوم للحصار الأمريكي للمدينة حيث أن المقبرة الرئيسية للبلدة كانت تقع على الضفة الأخرى من نهر الفرات كما أشرت من قبل، وحينما ضربت القوات الأمريكية حصارها حول المدينة كانت المقبرة من بين الأماكن التي وقعت تحت سيطرة القوات الأمريكية.

في الأيام الأولى للحصار كان عدد الشهداء محدودًا إلى حد ما، فكانوا يقومون بدفنهم في المقابر القديمة الموجودة داخل البلدة والتي لم تعد تستعمل منذ سنوات طويلة، لكن حينما بدأت أعداد الشهداء تزداد أصبحت المشكلة معقدة، وبلغت ذروة التعقيد يوم الأربعاء (١٧ صَفَر).

فالعائلة التي استشهاد أربعة وعشرون من أفرادها في حي الجولان بقيت جثثهم مع جثث أخرى في مسجد أبي أيوب الأنصاري إلى اليوم التالي لعدم وجود مكان لدفنهم، وكان أهل المدينة كلما حاولوا أن ينقلوا بعض الموتى إلى المقبرة التي تقع تحت سيطرة القوات الأمريكية أمطرهم الأمريكيون بالرصاص فيعودون بجثث الشهداء ومعهم شهداء ومصابون جدد من المشيعين، وقد استشهاد كثير من أهل الفلوجة أثناء قيامهم بدفن شهدائهم حتى في المقابر البديلة بعد ذلك.

وأذكر أنني حينما ذهبت صبيحة الأربعاء (١٧ صَفَر) لحضور إحدى الجنازات والاطلاع على حال المقبرة القديمة وسط المدينة كما سبق أن أشرت، كان الناس متذمرين للغاية لأن المقبرة كانت ممتلئة، ولا توجد بها أماكن لقبور جديدة، ويصعب حفر قبور جديدة بها، كما أن عدد الشهداء كان يتزايد بشكل كبير يومًا بعد يوم، وأصبح الجميع يتساءلون في غضب حينما شاهدوني وقالوا لي: أين نذهب بالأموات؟ هل هذه هي الديمقراطية التي جاءت بها أمريكا إلينا، أن

يسيطروا على المقبرة ويمنعوننا من الوصول إليها وأن يصل الحال بنا إلى عدم القدرة على دفن شهدائنا؟

من جانب آخر فإن بعض الأسرى في حي نَزَّال تحديدًا الذي حاصرتهُ القوات الأمريكية عدة أيام وكانوا يطلقون النار على كل شيء يتحرك فيه حتى سيارات الإسعاف؛ اضطروا إلى دفن شهدائهم في حدائق المنازل، وأذكر أن عائلة الشهيدين اللذين سبق وأن أشرت إليهما في حي نَزَّال طلبوا منا بعدما عجزوا عن نقلهم إلى المستشفى أو إلى المقبرة أن نذهب لتصوير جثث أبنائهم وبثها أثناء إقامة جنازة لهم، وتصوير مقبرة في حديقة المنزل فرمما يساعد هذا في حل مأساتهم، وأن تسمح القوات الأمريكية بفتح الطريق إلى المقبرة الرئيسية للبلدة وفك الحصار عنها، لكننا في ذلك اليوم الخميس (١٨ صَفَر) كنا تحت الحصار من قبل الجنود الأمريكيين والقناصة ولم نكن نستطيع أن نتحرك ونذهب لتسجيل وقائع تلك الجنازة المؤلمة، فالقناصة الأمريكيون كانوا يطوّقون المنطقة.

وعلمنا بعد ذلك أنه خوفًا من تحلل الجثث اضطر أهل البيت أن يدفنوا ولديهما في حديقة المنزل وكذلك فعل آخرون، ولنا أن نتخيل أن فلذة كبدنا الذي كان حيًّا في البيت قبل ساعات أصبح قبره في جانبٍ منه مع باقي أفراد الأسرة من الأحياء، كيف يكون حجم الألم لدى أهله وقبره ماثل أمامهم بالليل والنهار فلا يلتئم لهم جرح، ولا يحف لهم دمع؟ لا شك في أن دفن الموتى في المقبرة يخفف كثيرًا من الآلام عن كون الأسرة ترى قبر ولديها في حديقة البيت بالليل والنهار.

وفي محاولة للتغلب على هذه المشكلة قرر أهل الفلوجة في هذا اليوم الخميس (١٨ صَفَر) تحويل الملعب الرياضي في المدينة إلى مقبرة للشهداء، ورغم أن هذا كان حلًّا جزئيًّا لأن بعض المناطق ظلت تعاني من جراء القصف ولا تستطيع حمل

شهادتها لدفنهم في مقبرة الشهداء الجديدة لأنها كانت بعيدة عن أحيائهم، فكان معظم الشهداء يتم تكفينهم في المراكز الطبية القريبة منهم، وأذكر أنه مساء يوم الجمعة (١٩ صَفَر) أبلغني الدكتور واثق العاني مدير المركز الطبي في حي المعلمين في الفلوجة أن عبد الكريم عاشور إبراهيم استشهد فجر يوم الجمعة، وأخذه أهله وأقاربه لدفنه في مقبرة الكرامة بعد صلاة الجمعة، وأثناء مراسم الدفن والتشييع قامت القوات الأمريكية بإطلاق النار على المشيعين وهم داخل المقبرة فاستشهد ثلاثة منهم.

وفي يوم الجمعة أيضاً قام قناص أمريكي بقص بعض مَنْ كانوا يقومون بحفر قبور جديدة في مقبرة المعاضدي الملاصقة للمسجد الذي يحمل نفس الاسم، وفي أوقات أخرى قتلوا بعض المشيعين، وفي هذا اليوم وصل عدد شهداء الفلوجة منذ بداية الحصار إلى حوالي خمسمئة شهيد حسب الإحصاءات الرسمية من المصادر الطبية، هذا خلاف الذين بقوا تحت الأنقاض أو الذين لم تكن عائلاتهم قد أبلغت عنهم، وقد أطلقت في هذا اليوم نداءات من المساجد تدعو السكان لتوفير أكفان للموتى حيث كانت هناك مشكلة في عدم وجود أكفان كافية للموتى.

كما أنني أذكر حينما مررت بالمستشفى الميداني ليلة السبت (٢٠ صَفَر) قرب منتصف الليل وجدت جثثاً وصلت للتو لعائلة كاملة ممددة أمام المستشفى تنتمي إلى ثلاثة أجيال؛ من الجد الذي كان اسمه محمد جاسم المطلوب إلى صهره إلى حفيده الصغير، حيث قصفت الطائرات الأمريكية بيوتهم في منطقة جبيل بصاروخ فدمرته على رؤوسهم وماتوا جميعاً، وكان باقي العائلة قد تمكن من الخروج صباحاً من المدينة بينما أثر هؤلاء الثلاثة البقاء، وكانت بعض الجثث ممزقة جراء القصف حتى أنني لم أحتمل رؤيتها، وتحولت المراكز الصحية ليس فقط إلى مجرد مراكز لعلاج الجرحى ولكن أيضاً كان يكفن بها الموتى وتتحرك بهم سيارات

عادية إلى المقبرة مع أحد أقاربهم -إن وجد- أو مع أحد المتطوعين.

وكانت هناك مأساة أخرى هي مأساة بعض الجثث التي لم يتم التعرف على هوية أصحابها بسبب أن العائلات كانت ممزقة؛ بعضها خرج من المدينة وبعضها بقي وبعضها أوى إلى أقارب له في حي كان يظنه آمناً، لكن الموت كان يأتي الناس من كل مكان.

وأذكر أن بعض المقابر كانت تضم أطفالاً من عائلة واحدة اثنين وثلاثة أحياناً في قبر واحد، وقد شاهدت قبراً لثلاثة أطفال أشقاء كتب عليه: "ثلاثة أطفال أبناء ضاحي"، وما زالت هذه المقابر ماثلة بشواهداها في الفلوجة، لا سيما مقابر الأطفال، وهي تشير إلى الهمجية الأمريكية والجرائم التي ارتكبتها (بوش) وجنوده بحق أطفال الفلوجة وأهلها، لذلك لم يكن الأحياء وحدهم يعانون من نيران القوات الأمريكية وحصارها لمدينة الفلوجة ولكن الأموات أيضاً كانوا يعانون بشكل كبير.

فَصْلٌ فِي دَوْرِ وَمَوَاقِفِ أَبِي أَنْسٍ

وقال أبو حمزة: جاءت الفلوجة الأولى وكان للشيخ أبي أنس دور بارز جدًا فيها لم يحكه الرجل عن نفسه لما كتب قصتها، لكن أبرز وأهم ما قام به:

(١) كان له الدور الكبير والهائم في تحفيز الناس وخاصة الأنصار وتبشيرهم بالنصر وحثهم على الصبر والثبات.

(٢) كان عمله يسبق قوله، فكان يحفزهم ويتقدم أمامهم، فكان يسرع حينما يبطئ الناس.

(٣) كان يشكل مع عمر حديد وأبي عزام - رحم الله الجميع - أشبه بمجلس حرب يدير الأزمة ويسد الثغر ويشد العضد.

(٤) كان لثقة الإخوة به وخاصة الأنصار عامل هام جدًا في أن تسير الأمور على النحو المطلوب، فمثلاً لما كانت هناك مفاوضات، كنا نقول في كل شيء ما قال أبو أنس في هذا الأمر، هل وافق، هل أجازته؟

فما وافق عليه وافقناه، وما رفضه رفضناه، لثقتنا بعلمه وشجاعته، وربّ قائل يقول: وما دخل العلم بالشجاعة؟ فأجيبه وأقول: نعم كنت مثلك لا أعرف هذا حتى جاءت الفلوجة الأولى، فحينما كان يشير أبو أنس مثلاً بوقف القتال، كنا نحسب أن الرجل يرى الأصلح ديناً لا جبناً ولا خوفاً، فالجميع يعلم أنه بالنسبة إلى أبي أنس فليس بجهل، كما أن الرجل ناصح حريص فلا يتخذ قراراً إلا بعد أن يشير على شيخه ومن معه، فرحمة الله عليه.

و مما أذكر جيداً ولا أنساه ما حييت؛ أنه زارنا يوماً في الجولان وكان قليلاً جداً ما يزورنا نظراً لأن إخوة الجولان كان معظمهم من المهاجرين، وكان لا

يرى حاجة ملحة للمجيء إليهم.

أقول: زارنا الشيخ ونحن أحوج إليه من غيرنا في النصح ورفع المهمة، وكانت الأمور في أشد ما يكون ضيقًا، فسأل الحاضرين: "من يعرف رمز الحزب الجمهوري الأمريكي أهو الحمار أم الفيل؟" فقال أحد الحاضرين: أظنه الفيل يا شيخ؛ فالحمار رمز الحزب الديمقراطي، وأيّده آخر، فقال الشيخ: "كنت أعلم هذا لكن أردت أن أتأكد، إن صَدَقَ ما تقولون فأبشروا وأَمَلُوا"، ثم تلا علينا قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ} حتى أتى إلى نهايتها وأخذ يفسرها.

ثم أردف قائلاً: "اصبروا يا إخواني فوالله لجمع كجمع الكفار في الأحزاب، وسوف يفرق الله جمعهم في عدة كعدة الأحزاب، شهر أو قريب شهر".

ولقد صدق والله الشيخ، فكانت شهرًا أو قريبًا من الشهر، حيث استمر الحصار سبعة وعشرين يومًا، فالحمد لله على النعمة.

وجاء الدور الأبرز للشيخ بعد المعركة، فالرَّجُلُ كان يُدرك أن النصر لا بد من قطف ثمرته وعدم تركها للدجالين من الحزب اللا إسلامي العراقي والصوفية الغلاة والمشعوذين وغيرهم، فكان لا بد من وضع الأمور في مسارها، فشكّل وأسّس (مجلس شورى مجاهدي الفلوجة) بالتنسيق مع الشيخ أبي مصعب وبأمره؛ وحتى لا تذهب الثمرة إلى من جاء بعد المعركة، فكان هذا المجلس تقريرًا صمام أمان فيما بعد لكثير من المضلات.

ثم لعب الشيخ فيما بعد أحداث الفلوجة الأولى الدور الأهم والأبرز في حياته كلّها، بل والذي أرجو من الله أن يجزيه عليه خير الجزاء، فلقد بدأ الرَّجُل برصّ الصّف وتأليف القلوب على أبي مصعب وجمع الشمل له، فبدأ بالأقرب وهي

الفلوجة، وراح يطوف على كثير من المجموعات الصغيرة يُفَنِّدُ شُبَّهَهُمْ وينصَحهم ويعظهم حتى جمعهم جميعًا تحت راية التوحيد والجهاد.

ثم بدأ الشيخ الشهيد الحبيب بعد ذلك يتخذ طابعًا عسكريًا أكثر منه غير ذلك، فأشهد الله أنه ما ثارت ثائرة قط في الفلوجة إلا وجدته من أول القادمين المتقدمين، يحرض ويقا تل ويفعل كل ما بوسعه فعله، ثم رأيتُه بعد ذلك حاضرًا لجميع لجنات التنسيق العسكري التي كانت تتم في الفلوجة، وكان له الدور الأبرز بين الإخوة.

وصل الشيخ إلى المكان ثم بدأ القصف وكان الشيخ خارج المنزل، ثم فجأة رأى صاروخًا يدمر البيت على أكثر من أربعين أخ وصلوا لتوهم ولم يُفَرِّقُوا إلى أماكنهم بعد، فصرخ الشيخ بأعلى صوته في الأخ الذي خارج المنزل والذين بعدُ لم ينزلوا من السيارة يأمرهم بالإسراع في الانتشار والابتعاد عن المكان؛ لأنه يعرف كما يعرف جميع أهل الفلوجة والذين اكتووا بنيران القصف الجوي الأعمى أن الطائرات الأمريكية في الغالب تقصف المكان أكثر من مرة في نفس الوقت، لكن شجاعة وشهامة ومروءة الشيخ لم تتخلف عنه حتى في أحلك المواقف وأشد الظروف ولو هتف به الموت من كل مكان، حيث سمع أننا يأتي من بعيد من بين الأنقاض فأسرع إلى إخراج ما يمكن إخراجه من بين الأنقاض حتى وصل إلى أخ يأنُّ بقوة وسط ركام البيت بينما تبعه الأخ الشهيد أبو عبد الله سعد والذي حكى لي القصة، وكان أبو عبد الله في طرف البيت يحاول إنقاذ أخ آخر، وفي تلك اللحظة جاء الصاروخ الثاني وليرمي بأبي عبد الله مسافة بعيدة لكن دون أذى يذكر والحمد لله.

قال أبو خطاب: وكان أبو أنس يسمي معركة الفلوجة بـ(معركة الأحزاب)، وكان يذكر الناس بسيرة النبي عليه الصلاة والسلام، وعندما يذهب إلى أي مكان

كان يكثر من الدعاء.

وقال أبو حمزة: كانت ثُقُطَةُ الشَّيْخِ عُمَرُ حديدَ دَائِمًا مَحَلًّا لِقِصْفٍ دَائِمٍ ومستمر، فلم يتركوا فيها أرضًا ولا بيتًا، آخرهم كان البيت الذي يُسْتخدَمُ مخزنًا للذَّخيرة، وكان ذلك قبل انتهاء المعركة بأيام، وكانت هذه الذخيرة آخر ما كان عندنا من عَتَادٍ، فحَزِنَ عُمَرُ حُزْنًا شَدِيدًا، واشتكى إلى الشيخ أبي أنس، فقال له: "يَفْرِجُ اللَّهُ يَا عُمَرُ"، وبعدها جاء النَّصْرُ وَالظَّفَرُ، وذلك بعد استِغْرَاغِ الْوَسْعِ فِي بَذْلِ السَّبَبِ، فَلَمَّا ذَهَبَتْ أَسْبَابُ الْأَرْضِ نَزَلَ سَبَبُ السَّمَاءِ بَفَتْحٍ مُبِينٍ.

فَصْلٌ فِي أَمِيرِ الْحَرْبِ فِي الْفُلُوجَةِ الْأُولَى

قال أبو حمزة: كان أبو عزام أحد هؤلاء الرجال، بل كان سيّد الرجال وشيخهم حيث كان أمير الحرب في تلك المعركة، وكان الأمير العام للفلوجة.

وقد كان الشيخ أبو عزام يرأسل أسد الرافدين وشيخه أبا مصعب بتقرير مفصل يوميًا عن أحوال الجبهات والمعارك والسلاح والإخوة، قتلاهم وجرحاهم وما لا بد منه، ويتلقى التعليمات والنصائح كذلك يوميًا عن طريق أخ كريم بذل في ذلك مهجته.

ومن النكات التي تحضرني في هذا الأمر أن الأخ الذي كان يحمل الرسائل جاء ليأخذها من أبي عزام، وكان أبو عزام لم ينته بعد من كتابة تقريره اليومي، وبدأت ملامح الظلام تدخل ولا بد أن يغادر الرجل وهناك بصيص ضوء، وأخذ الشيخ أبو أنس يحث أبا عزام على سرعة الانتهاء، فلما لم يجد لذلك أملاً قال له: "مشكلتك يا أبا عزام أن عندك سمعًا وطاعة أكثر من اللازم"، فضحك الرجل وضحكنا وانطلق البريد.

فَصْلٌ فِي بَعْضِ أَخْبَارِ الْجُنْدِ فِي الْمَعْرَكَةِ

قال أبو حمزة: أبو المرضية اليميني فتح الله عليه الكثير، وأثلج الصدر بقتال تعجب له الجميع، وأهم ما قام به هذا الأسد زرع الثقة في نفوس إخوانه، رآه العالم أجمع في لقاء صحفي قامت به قناة (إل بي سي) مع بعض مجاهدي الفلوجة، فما زال الجميع يذكر هذا الشاب النحيف القصير وقد التف حوله مجموعة من إخوانه يقول: "سننتقم لإخواننا الذين قتلوا في الشيشان وأفغانستان وفي فلسطين، لن ننسى هذا، والله الذي لا إله إلا هو ما دمنا أحياء على هذه الأرض فإننا سننتقم منهم، حتى لو خرجوا من أرض العراق وخرجوا من أرض فلسطين سنلحقهم ونقطع دابرهم بقوة الله ليس بقوتنا، وسترون هذا بإذن الله تعالى"، وأشهد أن الرجل قد برَّ بيمينه وصدق ما وعد الله ورسوله؛ فما ترك سلاحه حتى مات وهو يحضنه ملبياً نداء ربه.

أبو المرضية أصابته طلقة قناص أقعده في آخر المعركة من المشاركة، ثم شفاه الله منها بعد الفلوجة الأولى وأسند إليه بعد ذلك حراسة مدخل المدينة من جهة النعيمية، ثم أسند إليه حراسة كافة المداخل الواقعة في الجزء الجنوبي من المدينة، فكان بحقٍّ نعم القائد لهذه المهمة الصعبة، فكان يدور عليهم يتفقد أحوال السيطرات من حيث القوة والضعف والاستعدادات اللازمة لقرب معركة تدق في الأفق القريب، وبدأت طبول الحرب تدق بعنف وبعنف، وبدأ القصف مستعراً على المدينة، واستمر القصف عنيفاً لا يكاد يتوقف قرابة الشهر، وكذلك أخذ العدو في حرب استنزاف استمرت شهرين، فقد جرب جميع نقاط الجبهة؛ من ذلك جهة السيطرات والتي شهدت معارك ضارية وخاصة من جهة الشهداء وسيطرة النعيمية والتي كان أبو المرضية مسؤولاً عنها.

قال أبو حمزة: سارع أبو الحور أثناء حصار الفلوجة مع مجاهدي الرضوانية في

قطع الطريق السريع، فلطالما سدّد قاذِفَتَه نحو أفعِدّة أعداءِ الله، نعم فلقد كان صاحبنا رامياً ماهراً بقاذفة (RPG٧).

ذكر في صحيفة النّبأ العدد ٢٢: أبو محمد اللبناني ما كان يدخل عملية إلا ويبيع إخوانه على الموت، وما تخلف عن غزوة خطط لها، بل تجده في مقدمة الصفوف، وكان له دور بارز في إشغال العدو في بغداد وغيرها أثناء معارك الفلوجة الأولى، ويشهد له شارع حيفا بالإقدام الذي لا نظير له.

وذكر في العدد ٢٤: بدأ وسام عبد زيد (أبو المغيرة القحطاني) جهاده حين شكل مع مجموعة من أبناء مدينة الفلوجة مجموعة صغيرة تقاتل الصليبيين، ثم انضم مع رفاقه إلى الشيخ أبي مصعب الزرقاوي تقبله الله، وشارك في الدفاع عن مدينته في معركة الفلوجة الأولى التي كان فيها من المرابطين على ثغورها، حيث توطدت علاقته أكثر بالشيخ أبي حمزة المهاجر -تقبله الله- الذي غالباً ما كان يحل ضيفاً عليه أثناء وجوده في المدينة.

وذكر في العدد ٣٦: شهد أبو الفاروق الحسيني أحداث معركة الفلوجة الأولى، وقُدِّر له أن يتعرض لغارة جوية صليبية، نجا فيها من القتل ولكنه فقد يده اليمنى، لتبدأ مسيرة الابتلاءات، فقد ابتلاه الله تعالى بفتنة الأسر لدى أعداء الله في سجن (بادوش)، وحُكم عليه بالسجن ست سنوات، ولكن الله فرّج عنه حينما حرّر المجاهدون السجن، فعاد إلى صفوف إخوانه في ولاية الفلوجة من جديد.

قال عبد الأعلى المضريّ: أبو أسامة التونسي وليد ولد الهباط، كان رحمه الله من السابقين إلى الجهاد في بلاد الرافدين، خاض معارك الفلوجة وأبلى فيها بلاء حسناً، وكان من المقربين للشيخ أبي مصعب رحمه الله، وكان ممن شارك في الاستعراض الأخير، رافق الشيخ أبا حمزة المهاجر حفظه الله بعد الفلوجة، ونهل من



معينه الذي لا ينضب، فإذا رأيته فكأنك ترى الشيخ الوزير.

فَصْلٌ طَرَفٍ مِنْ أَخْبَارِ الْأَمِيرِ عُمَرَ حَدِيدٍ

قال أبو حمزة: عندما اقْتَحَمَ الأمريكيانُ الفلوجةَ أول الأمر اختبأ أكثرُ الناس في بيوتهم، وبدأ الوَجَلُ يدبُّ في أوصالهم، وخافوا على أهلهم وأولادهم وأموالهم.

لكنَّ عُمَرَ ما خافَ إلا الله، فذهب إلى بيته وأخذ يُخْرِضُ أهله وأبناءَ عُمومته ومن معه، ثم حَمَلَ رشاشه وجرى خلفه أخوه عبد السَّيِّير وأبناءَ عُمومته وعلى رأسهم الشاب جاسم.

فأسرع الناس إليهم قائلين: "ما لَكُمْ، مجانين؟! غَطُّوا وجوهَكُمْ، الأمريكان، الجواسيس!" والرجل يجأُرُ بأعلى صوته: "اخرُجوا يا ناس، دافعوا عن أعراضكم، لن يتزكوكم، اصدّقوا مع الله ساعة"، وأحسنُ الناس من يأت له بشماغ يغطّي به وجهه، أو شربة ماءٍ يروي بها ظمأه.

ورأيتُ والله الحُرْقَةَ على الدين تملأُ عُيُونَهُ، والخوفَ على العِرض يملأُ قلبه، والجرأةَ في أمرِ الله سَمْتَهُ، فقُلْتُ: سبحان الله، صدق ابنُ عباس لما تكلم عن أبي بكر فقال: "ما سَبَقَكُمْ أبو بكرٍ بكثيرِ صلاةٍ ولا صيام، ولكن بشيءٍ وقر في قلبه"، ولعلَّ عُمَرَ حديد وقر في قلبه حبُّ الدين والغيرة على أهله، فلذا ضحّى بنفسه وأهله ولم يلتفت.

وعلى الرغم من أن كثيرًا من يُيوت الفلوجة قُصِفَتْ ودُمرت برغم خلّوها حيثُ هَجَرَهَا أهلُها وفرُّوا؛ إلا أن بيتَ عُمَرَ والذي كان مأوىً للمُجاهدين من المهاجرين والأنصار ومقرّاً لطعامهم ودوائهم لم يُصَبْ بسوء، بل إنهم قصّفوه أكثر من مرة ولم يُصَبْ بسوء، بل دُمِّر ما حوله؛ فسُبْحان الله.

بدأت المعركة؛ وشكّل عُمَرَ مع الشيخ أبي أنس الشامي وأبي عزام وغيرهم القيادة العامة للمعركة، وكان من نصيب عُمَرَ الإشرافُ العام أو الإمارة العامة

على أثخن أماكن الصراع وأشدّها وطأة (الجولان)، حيثُ حاول العدو مرات ومرات أن يدخُل المدينة من جهتها لأسبابٍ كثيرة أهمها:

- قِصْرُ المسافة بين مواقع العدو ومقر الجولان.

- طولُ خط الجبهة من هذه الجهة مما يصعب على المجاهدين حمايته.

فوالله لقد كنتُ في هذه الجبهة، فلصوتُ عُمرَ في المعركة بألفِ فارس، ورؤيته ترفعُ الروح المعنوية وتزرعُ الثقة في النفوس.

أذكر مرة أن مجموعةً من الإخوة ذهبت لمهاجمة أحدِ مواقع الأمريكان، وبلغ الخبرُ إلى الشيخ عمر حديد أنَّ الإخوة محاصرون، فجاء كأنه الريح المرسلة يحمل رشاشه وكان من نوع (ناتو) أبو الأخمص الحديدي، وبدأ ينشرُ الإخوة ويزارُ فيهم: "لا بدَّ أن نُخلِّص الإخوة، هيا يا شباب"، وتقدَّم بنفسه من أحدِ الجهات وبدأ بتنسيق الجهات الأخرى حتى يسَّرَ الله وخرَجَ الإخوة مُنتصرين بعد أن كانوا مُحاصرين.

فَصْلُ طَرْفٍ مِنْ أَخْبَارِ أَبِي فَارِسٍ الْأَنْصَارِيِّ

قال أبو حمزة: تطوّرت أحداثُ الفلوجة، واتَّخذ الإخوة قرارًا بمنع دخول الأمريكيّين إلى الفلوجة، وذلك بعد عملية تغيير القوات في منطقة الأنبار، واستبدالهم بقوات (المارينز)، وصدرت الأوامر إلى المجموعات -ومن ضمنهم مجموعة أبي فارس- بمغادرة الصحراء والمجيء إلى المدينة والبدء مع إخوانهم في حراسة المدينة ليلاً والكمين نهاراً، وظلَّ هذا الوضع هكذا حتى حدثت العملية التي هزّت العالم، عملية مقتل ضباط التخطيط الأمريكي الأربعة والمسّمين زوراً بالمقاولين، ورأيتُ بعيني كيف يُجرُّهم حمائر في شوارع الفلوجة، ذلك بعد أن علّقوا في إشارة ذكية على الجسر الحديديّ، والذي بناه (الإنجليز) وهو أهم وأقدم معالم المدينة.

وأذكرُ يومها أنّي كنتُ جالساً في إحدى المحلات بالصناعة، فرأيت البطل الشهيد الحاجّ ثامر المذكور آنفاً يدخلُ عليّ والبسمة تملأُ وجهه والفرحة تعبّر عن نفسها، ثم قال: "انظر" ورمى لي برزمة من الأوراق، فتصفّحتُها بسرعة، وإذا بها جوازات أمريكية وبطاقات ائتمان لبُنوك أمريكية بدولة الكويت، ورأيت ختم دخول الكويت لأحدهم منذُ خمسة أيام، وأظهرت الترجمة أنّ القتلى الأربعة ضباطُ تخطيطٍ وتدريب، جاؤوا في صورة مقاولين ليضعوا الخطّة العبقريّة لكيفيّة اقتحام الفلوجة، فكان في انتظارهم بائعُ خضارٍ سَحَلهم بحماره الذي يجرُّ به زُبالة السُّوق بعد انتهاء العمل.

وتسارعت وتيرة الأحداث، وهجم الأمريكيّون على الفلوجة، وبدأوا الهُجوم من جهة الصناعة لأنّها المكانُ الأضعف للمُجاهدين لصعوبة السيطرة عليها من قِبَل المُجاهدين، حيثُ إنّها حيٌّ صناعيٌّ كبيرٌ مكشوفٌ جدّاً للطيران وليس به سكان، يسهلُ ضربُ أيّ هدفٍ متحرك فيه، وبالليل وفي الساعة الثانية اشتبكت

كتائبُ المجاهدين مع الأمريكيان وحمي الوطيس، وثبتَ المجاهدون وفدوا الدِّين بأجسادهم، وتقدَّم الأبطالُ وليس لهم دروغٌ إلا صُدورهم الممتلئة باليقين والإيمان، ولسان حالهم: "فلا نامت أعينُ الجبناء"، وأمطرَ الخنازيرُ المجاهدين بوابلٍ من الطلقات والقنابل العنقودية، وأُصيب بطلُنَا القائد إصابةً قاتلةً فقادَ سيارته بنفسه، واتَّجه إلى المستشفى وفي الطريق قابله الشهيد البطلُ والأسدُ الكبيرُ جمال من الخالدية فقادَ السيارة مكانه وأجلَّسه في صندوق السيارة حيثُ اشتدَّت آلامه، وأمَامَ باب المستشفى جاء الأمريكيان من كلِّ حدبٍ وصوبٍ ونيرانُ أسلحتهم تحرقُ كلَّ شيءٍ، واختَرَقَت جسدَ القائدِ البطلِ عدَّةُ رصاصاتٍ لتُعْلِنَ له عن بدءِ حياةٍ جديدةٍ خاليةٍ من كلِّ كدٍّ ونَصَبٍ لِيَبْقَى أبو فارس مثلاً يُحتذى وجبلاً أسمى.

وكانت المفاجأة في الوصية التي تركها؛ فبعدَ نُصْحِهِ لزوجِه وأولاده أوصى أن لا يسيرَ أخٌ له -يعملَ شرطياً- في جنازته وقال إنه بريءٌ من كلِّ مَنْ يسمح له، لتعلم الدنيا أن أبا فارسٍ معلِّمٌ خيرٌ وإمامٌ هُدىٍّ ومُصباحٌ عقيدة حيًّا وميتًا.

وقال أبو حمزة: كان أبو فارس قائداً ومُخَطَّطاً لأهم عملية غيَّرت مجرى الجهادِ في العراق عامةً وفي الفلوجة خاصة، حيثُ إنه كان المخططُ والقائدُ لعملية اقتحام الفلوجة الأولى والتي تُسمَّى هنا (عملية مُديرية الأمن والقائم مقامية)، حيثُ تمَّ سدُّ منافذِ الفلوجة واقتحامُ مع إخوانه مديرية الأمن، وقال لي إنه عند اقتحامها وعلى مدخلها وجدَ ضابطَ شُرطة من فرطِ خوفِه وجُبْنِه نائماً على الأرض يبكي ويصرُخُ قبل أن يُطلق عليه رصاصة واحدةً في رأسه، وليسَ المقامُ مقام وصف هذه العملية، لكن المقصودُ هنا أنَّ هذه العملية جرَّأت الإخوة على احتلال المدن، وكانت تجربةً مهمة في اختبار الذاتِ ومعرفةِ مواضع الخلل والتقصير، كما أنها أدَّبت جهازَ الشرطة بالفلوجة، بحيث إنه أصبح يؤرِّخ لها؛ يقول الناس: هذا العملُ قبل أحداثِ الشرطة وهذا بعده.

حتى إنّ مجلس الأمن الأمريكي اجتمع ليدرُس آثارَ هذه المعركة ونتائجها، وللعلم؛ فقد أُصيب بطلُنَا في هذه العملية بطلقةٍ في فخذِه ما جلس لها يومًا واحدًا على فراشه، فكنتُ أراه يسعى في خدمة إخوانه ويجرُّ رجله، فأقول له: "استرح يا أبا فارس"، فيقول: "هي بسيطة وأنا مو تعبان".

فَصْلُ طَرْفٍ مِنْ أَخْبَارِ الْأَمِيرِ أَبِي عَزَامٍ

قال أبو حمزة: أول تلك الملاحم الكبرى والعمليات العظمى معركة الفلوجة الأولى، أعني بها أول مرة نزل جنود محمد ﷺ إلى الفلوجة وسيطروا عليها سيطرة تامة وأسقطوا مديرية الأمن والقائم مقامية وانسحبوا تاركين وراءهم العدو في دمائه وحيرته، بعدها اجتمعوا صفًا ليدرسوا آثار هذه الغزوة المباركة والتي كان قائدها وبطلها الأسد المحنك الأخ أبو فارس الأنصاري.

كان الشيخ أبو عزام هو المشرف الرئيسي على تلك العملية المباركة، وأول ما أراد الفتى أن يتعود الإخوة النّزال ويكسروا هيبة الأعداء وتنغمس أيديهم في الدماء -أعني دماء العدو- فتطيب قلوبهم وتقوى نفوسهم ويستهنوا بعدوهم ويغرسوا في قلبه شوكة وبين ضلوعه رمحًا لا يزول إلا بروحه؛ وقد كان، فقد كانت هذه الغزوة كما أسلفنا لها ما بعدها من الأثر في المعارك التالية، وكان أبو عزام أحد هؤلاء الرجال، بل كان سيّد الرجال وشيخهم حيث كان أمير الحرب في تلك المعركة، وكان الأمير العام للفلوجة، وقد حمل الرجل العبء الثقيل واستعان بالله ومضى.

فَصْلٌ فِي أَخْبَارِ الْأَمْرِيكَانِ

عَدَدُ الْجَيْشِ الْأَمْرِيكِ

قال بول بريمر: أخبرني الجنرال (سانشيز) أنه قبل شروق الشمس أقامت قوة من ألف وثلاثمئة رجل من (المارينز) وقوات فيلق الدفاع المدني وقوات الجيش العراقي الجديد حواجزَ حول مدينة الفلوجة، وفرضت عليها حصارًا، ودخلت مركبات (هيمفي) المزودة بمكبرات الصوت مدعومة بالمركبات المصفحة الفلوجة، وأعلنت عن حظر التجول من الغروب إلى الفجر، وهددت بالقضاء على المتمردين الذين يرفضون تسليم أسلحتهم والاستسلام، والوضع هناك معقد وخطير، على غرار الأزمة التي نواجهها في مدينة الصدر والجنوب^{٦٧}.

تعليق ابن منصور: تحدّث (بريمر) عن ألف وثلاثمئة جندي؛ لكن أعداد الجنود الأمريكيين كان أكبر من ذلك بكثير؛ حيث كان عدد الذين هاجموا المنطقة الصناعية ألفي جندي حسب تصريح قائدهم، وبالتالي فإن تقديرات بعض الخبراء أشارت إلى أن القوات التي أحاطت بالفلوجة وحاصرتها في المعركة الأولى كانت تزيد عن أحد عشر ألف جندي أمريكي خلاف المتعاونين من العراقيين.

وقال ابن منصور: قدرت بعض المصادر عدد القوات الأمريكية التي حاصرت الفلوجة ولم تستطع دخولها آنذاك بحوالي أحد عشر ألف جندي أمريكي؛ هذا خلاف الذين شاركوا من قوات الحرس الوطني أو الجيش العراقي الجديد، وقد أدلى الكابتن (ساليغان) الضابط في الكتيبة الأولى التي كانت تقوم بالهجوم بتصريحات للوكالات قال فيها: إن الهدف من العملية اعتقال المتمردين والإرهابيين.

^{٦٧} مذكراته التي نشرها تحت عنوان (عامّ قضيتُهُ في العراق)، ص ٤٠٠.

الْحَلُّ الْحَذَرُ

قال ابن منصور: عملية الحل الحذر هو الاسم الذي أطلقه الأمريكيون على عملياتهم التي كانوا يقومون بها في الفلوجة، حيث ألقت الطائرات بالمنشورات التي تحذر سكان المدينة من التقاعس عن تسليم المتهمين بقتل المرتزقة الأمريكيين وسحلهم في الشوارع.

لَوْنُ الطَّائِرَةِ الْأَمْرِيكِيَّةِ

قال ابن منصور: إن حامداً تلقى اتصالاً على الهاتف بأن طائرة مروحية أمريكية أسقطت في منطقة عامرية الفلوجة، فقلت له: اسأله في أي ساعة؟ وهل تشتعل فيها النيران أم لا؟ وهل شوهد جنود أمريكيون قتلى أم جرحى فيها؟ وكيف ومتى وصلت قوات أمريكية لإنقاذ أو تفقد من كان على متن الطائرة؟ وغيرها من الأسئلة الأخرى الكثيرة التي لا نهاية لها والتي أشبه ما تكون تحقيقاً أكثر منها استعلاماً.

وكان الرجل يجيب على كل الأسئلة وكنت أدون ما يقوله، وفي النهاية قلت له: اسأله ما لون الطائرة؟ تُطلى الطائرات المروحية عادة إما باللون الصحراوي الأصفر أو اللون الأخضر، فإذا كانت تطير فوق مناطق خضراء أو بساتين عادة ما يستخدمون الطائرات ذات اللون الأخضر، وإذا كانت تطير فوق أماكن صحراوية استخدموا الطائرات ذات اللون الصحراوي، وكان كثير من الذين يتصلون بنا ليبلغونا عن تدمير طائرات أو آليات نقول لهم: صوّروها وأحضروا لنا الصور.

وَصْفُ الْجُنْدِيِّ الْأَمْرِيكِيِّ

قال أبو أنس: الجندي الأمريكي دمية لوحش مخيف مملوءة بالهواء؛ يوشك أن

تطيش بوخزة إبرة ولها (ووووش)، وهكذا الجندي الأمريكي؛ ما أسرع أن ينقلب على عقبه ويؤولي الأدبار، وله ضُراط عند أول مقاومة يجدها، وأشدُّ من هذا أنهم يبدؤون سراعًا بالعواء كالجراء عند أول صلية نار.

قلت: طالعت ما عند الصليبيين من أخبار المعركتين، فوجدته إما ثرثرة وذكر أمور لا تسمن ولا تغني من جوع؛ من نوع الكتيبة وأسماء جندها ونحو ذلك، أو يذكرون طرفًا من أخبار مَنْ قتل منهم وأهوال المعركتين، مثل قول أحد الجند في أحد المعارك: هجموا علينا من كل مكان في كمين محكم وأطلقوا علينا النار من كل مكان وأحدثوا فينا مذبحة.

والآخر الذي يقول: أنهم يرمون علينا في مكان ثم نرمي ونجدهم اختفوا كالأشباح.

وآخر يتحدث عن قبضهم على العُزّل من الناس بحجة اشتباههم بهم.

وما إلى ذلك، وهذا النوع من الروايات التي تلمس فيها الصدق قليلٌ جدًا مقارنة بالثرثرة أو الكذب والتدليس الذي يملأ كتابات ومرئيات القوم. وقد كتب جيريمي سكاهيل صاحب كتاب (بلاكووتر) عن طرفٍ من أخبار القوم في فصل (سنطوع القلوجة).

فَصْلٌ فِي مَسْكِ الْأَرْضِ وَالْمُنَافِقِينَ

أبو حمزة: يعلم الجميع الأثر العظيم الطيب لأحداث الفلوجة الأولى وما أعقبها من مسك الأرض، وكيف أن معظم الجماعات الجهادية أعلنت عن نفسها بعد هذه الأحداث مستفيدةً من الأمن الذي حققه حينها رجالُ التوحيد والجهاد بدمائهم مع بعض المخلصين.

جاءت معظم الحملة ضد هذا النوع من القتال من فصيلٍ معينٍ على لسان متحدثهم الرسمي، والقوم يعلمون أكثر من غيرهم أنهم كانوا المستفيد الأكبر من هكذا أسلوب، فعلى الرغم من أنه لم يكن لهم في أحداث الفلوجة ولا حماية المدينة ناقة ولا جمل؛ إلا أنهم عندما اختطفوا الصحفيين الفرنسيين أين ذهبوا بهما؟

لقد أتوا بهما إلى الفلوجة، ولقد كنا نعلم مكانهم والبيت المحتجزين فيه والقائم على مسؤولية حراستهم وقبضوا الملايين من الدولارات، ولم نجد منهم كلمة شكر واحدة للأسود في خنادق القتال تحت حر الشمس وقذائف العدو يحمون بيضة الإسلام بدمائهم، بل كان الجزاء طعنًا ونقداً.

فَصْلٌ فِي أَقْوَالِ الْأَمْرَاءِ فِيهَا

قال الزرقاوي: حاصر الصليبيون مدينة الفلوجة تسعًا وعشرين ليلة كما هي عدة ليالي غزوة الأحزاب، وبعد مرور تلك الليالي العصبية على الإخوة المحاصرين كسر الله تعالى شوكة العدو وأسقط هيبتهم على يد ثلة قليلة لا تمتلك غير السلاح الفردي الخفيف، وليس لها من ملاجئ تقيها بأس القصف العنيف الذي وجهته طائرات العدو ومدافعهم الثقيلة غير حفظ الله تعالى، لقد أجرى الله تعالى كرامات كثيرة على يد هؤلاء الفتية الصابرين الذين اختاروا الجهاد طريقًا والعزة مقصدًا ورفع راية الدين هدفًا.

إنَّ أعظم الكرامات التي رأيناها أن الإخوة المقاتلين دفاعًا عن المدينة كانوا بالعشرات وما بلغوا المئات، وفي نهاية المعركة بدأت الذخيرة تنفذ، وكان بعض الإخوة يترك ثغره ويأتي إلى الإخوة في وسط المدينة فيأخذ رصاصة من هذا ورصاصة من ذاك ثم يرجع إلى مكمنه عند ثغور المدينة، هكذا واجه الإخوة آلة الأمريكان وعدتهم، لكن لما علم الله تعالى أن الإخوة قد استنفدوا الوسع واجتهدوا في إرضاء ربهم -عند ذلك- أذن الله تعالى بانكشاف الغمة، وألقى الرعب في قلوب الأمريكان، وأخذ بنواصيهم بعيدًا عن أطراف المدينة، وأرجع جيشهم الجرار ذليلاً خائبًا ليطلبوا الهدنة فلا يحصلوا عليها، ويتوسل بعض أطراف النفاق للحصول على الأمان لجيشه ساعة انسحابه، انسحب جيش الصليب مخذولًا مطارداً تتخطفه سرايا الإخوة قتلاً وأسرًا وغنيمةً، هذه المعركة كان فيها عبر عظيمة، ففوة بهذا العدد وبهذه العدة وطائرات ودبابات ومدركات وجميع الأسلحة وقرابة ثلاثين ألف جندي لا يستطيعون أن يقتحموا المدينة؟! هذا إن دلَّ دلَّ على أن النصر من عند الله.

وهذا مثال صغير في مدينة صغيرة لا تزيد عن (٥ كيلو متر مربع)، ومع ذلك

استطاع المسلمون أن يثخنوا بهذا العدو بفضل الله عزَّ وجل، فهذا مثال للأمة أنها تستطيع أن تفعل ما فعله هؤلاء، أي أن الله عزَّ وجلَّ أراد أن يضرب مثلاً للأمة.

قال أبو محمد العدناني: لقد انكسرت أمريكا في الفلوجة الأولى وانهمزت بعد قتالٍ دام شهراً؛ ليخرج جيشها الجرار من المدينة مدحوراً يطلب الهدنة فلا يحصل عليها، متوسلاً بعض أطراف النفاق للحصول على أمان ساحة الانسحاب دون جدوى، ثم فرَّ لا يلوي على شيء، ولم يجرؤ بعدها أمريكيٌّ واحد على الدنو من المدينة الصغيرة التي ليس فيها سوى بضع مئتين من المجاهدين، وقد سقط قناع أمريكا التي لا تُقهر، وزيح ستار قدراتها فبان عجزُ يُسْتَر، وسجّل التاريخ هزيمةً جديدةً للأمريكان، ولم يعد يخشى جيشهم حتى الغلمان.

فَصْلٌ فِي مَا قِيلَ فِي مَعْرَكَةِ الْفُلُوجَةِ الْأُولَى مِنْ شِعْرِ كَوَاكِبِ النُّورِ

قال أبو حمزة المهاجر: كنتُ أثناءَ معاركِ الفلوجة الأولى واقفاً مع زُمرة من أسود التوحيد حوالي الساعة الثالثة فجراً، وإذا بصاروخٍ يُفَرِّقُ أجسادنا ثمَّ ثانٍ وثالث، فاستشهد في الحالِ حوالي عشرة من الإخوة، وأُصِبتُ حينها إصابةً بسيطةً بحمد الله، وكانَ قد سبقَ هذه الحادثةَ رحيلُ الأسدَيْنِ الحاجِ ثامر وأبي فارس الأنصاريين، فجلستُ في البيتِ مهموماً، فلا أنا في ساحاتِ الوغى أَشْفِي غليلي، ولا أنا فُزْتُ بجنة عَرْضها السمواتُ والأرضُ، فجلستُ أُعَيِّرُ نفسي فكانت هذه المشاعر، وكانَ ذلك في بيتِ القائدِ عُمَرَ حديد الكائن بحِجِّي الجُولان:

وَجَلَّ عَلَى الْأَشْوَكَ أَمْشِي بَاكِياً	فِي ظِلْمَةِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ مَنَادِيَا
أَيْنَ الْحَبِيبِ وَأَيْنَ حُسْنِ حَدِيثِهِ	مَنْ لِلضَّعِيفِ يُعِينُهُ وَهَادِيَا
كَوَاكِبُ النُّورِ مَضَتْ تَتَرَنَّمُ	مَنْ بَاعَ نَفْسًا نَالَ رَوْضًا عَالِيَا
نَحْنُ الَّذِينَ تَاجَرُوا لِرَبِّهِمْ	الصَّادِقُونَ الرَّابِحُونَ... بِنَادِيَا
هَانَتْ نَفُوسُنَا فَعَزَّ مَقَامُنَا	هَذَا الْجَزَاءُ يَا تَقِيًّا غَازِيَا
فَقَوَافِلُ الشُّهَدَاءِ بَرَقَ خَاطِفُ	رِيحِ الْعَبِيرِ تَحْقُفُهُمْ فَحَنَانِيَا
أَنَا الصَّدِيقُ وَالرَّفِيقُ بِمَحَنَةٍ	دَامَتْ عَلَيَّ فَلَا حَبِيبًا حَادِيَا
أَنَا الَّذِي قَعَدَتْ بِهِ ذُنُوبُهُ	أَشْعُرُ أَنِّي بِالْمَعْصِي عَارِيَا
وَحَدِي بَقِيْتُ فَلَا تُعَزُّوا مُكَلَّمَا	هَيَّا خُذُونِي لَا أُرِيدُ مُعَزِّيَا
حَسْبِيَ أَخِي بِأَنَّنَا نُحِبُّكُمْ	هَلْ يَنْفَعُ الْحُبُّ قَعِيدًا جَانِيَا

قال الشاعر غازي الجمل:

بالطائرات المرسلات عَوِيلاً *** ترمي بأطنان الرّدى تنكيلا
 بالراجمات القاذفات قنابل *** فوق الرؤوس تدقُّقا موصولا
 بقذائف (النايلم) تحرق أرضنا *** وتُحِيل أرض الرافدين طولاً
 بأبي رغال العربي أمامهم *** مستوجب اللعنات سار دليلاً
 بالكاذبين المفترين بأنهم *** قد طبّقوا التوراة والإنجيلاً
 بالمجهزين على الجراح بِخَسَّةٍ *** إذ يُمعنون بشعبنا تقتيلاً
 بالمانعين من الإغاثة أهلها *** ودماؤهم تجري هناك سيولاً
 بالجاعلين من المساجد ويحهم *** سقفاً يُهدُّ على الرؤوس مهيلاً
 ما فت في عضد الفلوجة كيدهم *** وارتد جيش الأصغرین ذليلاً
 فالله أقوى من هدير سلاحهم *** أنعم ربّ العالمين وكيلاً
 وسيعلم الباغي مغبة مكره *** ولسوف يعلم من أضل سبيلاً
 يا ابن الفلوجة يا بقية عزنا *** يا من رأوا بك صارماً مسلولاً
 قف شامخاً مثل المآذن طولاً *** وابعث رصاصك وابلاً سحجلاً
 مزّق به زمر الغزاة أذقهم *** طعم المنون على يدي عزريلاً
 جاؤوا على قدرٍ يسوق لحفهم *** من بعد نأي عن مداك طويلاً
 أحرق جثامين البغاة ورجسها *** وانثر على أشلائهم بترولاً
 طهر به ماء المحيط منظفاً *** خطراً على ماء المحيط وبيلاً
 سطر على هام الزمان بأننا *** أهل الكرامة والأعزّ قبيلاً
 فليحرقوا كلّ النخيل بساحنا *** سنطلّ من فوق النخيل نخيلاً
 فليهدموا كلّ المآذن فوقنا *** نحن المآذن فاسمع التّهليلاً
 إن يبتروا الأطراف تسعى قبلنا *** قدّمًا لجنات النعيم وصولاً

نحن الذين إذا ولدنا بكرة *** كُنَّا على ظهر الخيول أصيلا
 نحن الشهادة والشهيد وشاهد *** ولأُسْدِنَا قد فُصِّلَتْ تفصيلا
 في عالم الصمت المهيمن حولنا *** حتى غدا مستبَكَمًا مشلولًا
 نطقَت فصاحتنا بلحن كفاحنا *** أعلى البيان صواعقَ وقتيلا
 صوت الرصاص أبو البيان بلاغة *** وأشدَّ إفصاحًا وأقوم قِيلا
 سندُك جيش البغي من عزماتنا *** ونرده خلف الحدود ذليلا
 فالعِش تحت الاحتلال جهنم *** زقومها غسلينها المرذولا
 والعز جنتنا وروح حياتنا *** من دونه أضحى العراق قتيلا
 أهل الفلوجة يا طلائع زحفنا *** يا من رضيتم بالإله وكيلا
 ورفعتم القرآن فوق جباهكم *** ورضيتم الهادي الحبيب رسولا
 سرتم على درب الجهاد بعزة *** سعيًا لجنات الخلود مقيلا
 يا مَنْ صبرتم للحصار طويلاً *** في عزة تعلو المجرة طولاً
 تحت القذائف والحريق جهنم *** لم تقطعوا التكبيرَ والتهليلا
 لقنتم الدنيا الدروسَ صريحةً *** لا تقبلُ التزييفَ والتدجيلا
 أن الأعزَّ محمدٌ وجنوده *** والله أكبرُ ناصرًا ووكيلا



بَابُ مَا جَرَى بَيْنَ الْمَعْرَكَتَيْنِ مِنْ أَحْدَاثٍ

بَاب مَا جَرَى بَيْنَ الْمَعْرَكَتَيْنِ مِنْ أَحْدَاثٍ

فصل

الإعداد

قال أبو حمزة: مضت الفلوجة الأولى، وبين المعركتين (الفلوجة الأولى والثانية) انشغل أبو ناصر الليبي بتدريب عدد كبير من الإخوة على تصنيع المتفجرات وتشكيل سرايا للقتال خارج العراق وتم له ما أراد، ومضت المعارك ضارية وخاصة قبل موعد الفلوجة الثانية بشهر أو شهرين، فتم تنظيم الحماية للمدينة وتوزيع الكتائب لحماية مداخلها فأُسندت الصناعة للقائد عبد العزيز، وجبيل للقائد أبي ياسر، والعسكري للقائد أبي عُبيدة رحمه الله، والشهداء للقائد أبي عبد الله التونسي، وأخيراً وأهم النقاط "الجولان" للقائد الشهيد أبي ناصر، وحتى لا أُطيل؛ قام الشهيد بترتيب مجموعته على قدر المستطاع إلا أن هذه الكتيبة كانت أحدث الكتائب تشكيلاً والتحق بها معظم الإخوة الجُدد من قليلي الخبرة.

أَصْحَابُ أَلَمٍ نَكُنْ مَعَكُمْ

قال أبو حمزة: انتهت معركة الفلوجة الأولى وبدأت معركة أخرى؛ معركة مع أهل الزيغ والضلال؛ معركة مع خفافيش الظلام، وكما يسميهم العراقيون (كِلَابُ الطَّق) أي إذا انطلق الرصاص طارت الأفئدة وطاروا معها خارج نطاق النزال.

بدأ الفتح وخطّ معه سيل جارف من أولئك المتنفعين وأشهروا سلاحهم في الطرقات وبدأوا يحتفلون بالنصر وأنهم فرسان الميدان وأبطال النزال، يدفعهم في

هذا الاتجاه طغاةُ الحزب الاستسلامي ورؤوسُ أهل التصوف العفنة؛ أعني بهم أهل الشرك والدروشة.

وكان مكسب هذه المعركة لا يقل أهمية عن رحى الحرب، فثار أبو عزام مهذّبًا ومحدّرًا أن المدينة لن يحكمها إلا من جاد فيها بالنفس والنفيس، ولن يكون لمن خرج منها يحمل الخزي والعار إِبَّانَ القتال نصيب من الرأي والحُكم، ولن نقبل أن تضيع وتسرق ثمرة الجهاد ونصب الجياد.

واتفق الجميع على ذلك؛ فتم تشكيل (مجلس شورى مجاهدي الفلوجة) من شباب التوحيد ومن شارك الجهاد من غيرهم، وكان حتمًا أن يكون أبو عزام عضوًا لهذا المجلس، فتم تعيينه (عضو مجلس شورى المجاهدين)، والحق يُقال؛ إنه كان صاحب الكلمة الفصل في هذا المجلس نظرًا لكونه يقود كتلة التوحيد ومن انضم إليهم في المجلس، فكانت لهم الغلبة والكلمة.

مَرَحَلَةُ الْبِنَاءِ

قال أبو حمزة: مضت القافلة وبدأت مرحلة البناء، بناء المدينة نفسيًا وعمرانيًا وعسكريًا، وبدأ أبو عزام رحلة شاقة أخرى واصل فيها الليل بالنهار، كما بدأت في الأفق مراحل بناء أخرى حيث بدأ يتوافد إلى الفلوجة فرسانُ الجهاد وأمرأهُ المجاميع يريدون اللحاق بركب التوحيد والجهاد.

وبدأ معهم أبو عزام بالإضافة إلى الشيخ أبي أنس هذه الرحلة، فطافوا البلاد ليجمعوا الناس على كلمة الجهاد، فأحكموا سامراء، وأسَّسوا الموصل، وكتَّلوا بعقوبة، ورَتَّبوا الأنبار، وغرسوا في كركوك، وزرعوا الأمل في البصرة، رحلات مكوكية كان لها كبير الأثر في بناء جيش الجهاد والتوحيد في هذه البلاد.

ومضت القافلة وبدأ العدو يستخدم تكتيكًا جديدًا في الحرب بقصف الخطوط

ثم البيوت ثم بيوت العائلات، واقترح الإخوة وعلى رأسهم أبو عزام الشيخ أن يُؤوي كلُّ بيتٍ من الأنصار رجلاً من المهاجرين حتى تتلافى قصف تجمعات المهاجرين، ولكن هذا الاقتراح لم يجد له أثراً أو نصيبَ قبول، ولذلك انتشر الشباب في الطرقات يفترشون الأرض ويلتحفون حر السماء وكان منظرهم يقطع الأكباد، وكان أبو عزام الرحيم الرقيق يموت ألماً ويهرم خجلاً لما يرى من هذه المواقف.

ومضت القافلة وبدأت ريح مسمومة تهبُّ من قِبَل الأمريكيان تنذر بحرب طاحنة أخرى، وبدا العدو لها هذه المرة أكثر استعداداً وأكثر حقدًا وغيظاً.

وقال أبو حمزة: بدأ الشيخ عُمر حديد بعد الفلوجة الأولى أهمَّ مراحل حياته، حيثُ بدأ يؤسِّس لبداية عصرٍ من الخير والبركة، فشكَّل مع مجموعةٍ من إخوانه (مجلس شورى المجاهدين) والذي كان يأمل أن يكون نواة حكم إسلاميٍّ لمدينة الفلوجة، بل بدأ عُمر وإخوانه يقومون بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقام بتنحية شيوخ التصوف المذموم الذين فرُّوا من المدينة مع بداية الهُجوم الأمريكي، وقام بتعيين مجموعةٍ من الشباب الموَّحد ممَّا جعل عُمرَ عُرضةً لِسِهَام هؤلاء الجبناء، فبدأوا يلصقون به كلَّ تُهمة، ويبرِّئونونه من كلِّ حسنة، لكن الشُّرفاء من أهل المدينة عرفوه ناصحاً للناس حاكماً بينهم بالعدل، وإذا عُرضت عليه مشكلة يأخذ الحقَّ من الظالم مهما كان حجمه وقدره.

و من مآثر عُمر المعروفة؛ أنه لما شَعَرَ بأنَّ فيلق الفلوجة من الحرس الوثني بدأت تظهرُ منه رائحةُ الغدر والخيانة هَجَم على مقراته، وقبَض على رؤوسهم، ثم أَعَدَمهم واستولى على مقراتهم بما فيها من سلاحٍ وعتادٍ ولباس، وطَهَّر المدينة من دَنَسهم، ولَحِزن الأمريكيان عليهم قام هؤلاء الغُزاة بعمل لوحةٍ ضخمة أَمَامَ أَحَد أهم قواعدهم عليها صورةُ آمر الحرس الوثني بالفلوجة، ثم استمر عُمر يُعَدُّ ويُجهِّز

لغزوٍ مُحْتَمَلٍ مِنَ الْأَمْرِيكَانِ؛ بَدَأَ مِنْ تَجْهِيزِ وَشِرَاءِ السِّلَاحِ وَسَدِّ الثُّغَرَاتِ، وَأُسْنَدَتْ إِلَيْهِ مَرَّةً أُخْرَى قِيَادَةُ الْجَوْلَانِ.

وقال أبو حمزة: انتهت الفلوجة الأولى بالنصر والظفر وبدأنا مرحلة هي أصعبُ من الأولى وهي مرحلة البناء، بناءً المدينة عسكرياً ومن قبلُ إيمانياً، لكن أبا محمَّد الجزائري -والحقُّ يُقال- كان غيرُ مقتنعٍ أنَّ الناسَ هنا جادُّون في أنَّ الجهاد بالنسبة لهم دينٌ لا وطنية ولا قومية، وقد كان على حقٍّ بالنسبة لعددٍ من ضعافِ النفوس الذين جاؤوا بعدَ المعركة وأرادوا أن يقطفوا الثمرة على دماء الشهداء وأطرافِ المعوّقين، فإنَّنا نعلم أنَّنا وجدنا من الخير في هذه البلادِ ما لم نجده في غيرها، وأن الله اختارها لرفعة دينه وإقامة عِلْمِ الجهاد في أرضه.

قال أبو حمزة: بدأ أبو عمار ترتيب أوضاع المدينة مع إخوانه إلا أنه التفت لأمر آخر وهو أمر العمل الخارجي، وهكذا كان حاله مع الإخوة، وشارك أثناء ذلك في عدة عمليات كان منها عملية ضد (السي آي إيه) على طريق المطار ببغداد، وعدة عمليات ضد الشرطة.

وفي أثناء ذلك اتخذ الإخوة قرار اقتحام سجن (أبي غريب)، فأعد الإخوة العدة لذلك، وتمت العملية بقيادة الشهيد أبي محمد اللبناني، وذهب الإخوة إلى الهدف وأحاطوا به، إلا أن تأخر السيارات الاستشهادية وعدم قيام جماعة الصواريخ بالواجب أدى إلى إلغاء العملية بعد أن حاصر الإخوة الهدف لمدة ربع ساعة، وعاد الشباب، وفي أثناء ذلك اتخذ الإخوة قرار العودة مرة ثانية إلى الهدف وذلك بعد خمسة أيام من المرة الأولى، وذلك لأسباب منها:

١. الخوف من أن يزيد العدو تحصيناته على الهدف.

٢. مفاجأة العدو والصديق على حد سواء، إذ إنه من الصعب تصور أن

الإخوة يعيدون الكرة خلال هذه الفترة البسيطة.

وأخيراً وُجِدَ أبو عمار بعد ثلاثة أيام على بُعد مترين في الأرض من أثر الهدف ولم يتغير منه شيء، بل كان كأنَّه مات من لحظات، ونُقِلَ لِيُدْفَنَ بالقرب من إخوانه في مقبرة الشهداء، وليُشْهَدَهم أنه ما تخلف بعدهم، ففقدت المدينة بمقتله أحد أهم أبطالها ورجالها، وليترك بعده شبلاً وأسداً ليتم الطريق بعده هو ابنه عمار.

فَصْلٌ فِي اسْتِشْهَادِ أَبِي أَنْسٍ الشَّامِيِّ

معركة سجن أبي غريب

قال أبو عزام: قبل أن تبدأ معركة؛ كان أبو أنس الشامي في سامراء يعلم الإخوة المجاهدين ويربيهم ويتلو عليهم القرآن ويحفظهم، وبعد أن انتهى من هذه المهمة، أرسل إلى الشيخ أبي مصعب الزرقاوي ليطلب منه المشاركة في تلك المعركة، فقال له الشيخ أبو مصعب: "يا أبا أنس لو بقيت معنا لأننا نحتاجك"، فقال أبو أنس: "والله لأن أقتل في سبيل الله من أجل تحرير أخواتي السجينات خير لي من أن أعيش". فكانت هذه الكلمات محفزة للشباب أن يذهبوا معه.

قلت: وقبل يوم من المعركة؛ جمع أبو أنس إخوانه المجاهدين، وألقى عليهم درسًا يرغبهم فيه الجنة، وكان مما قال: "نحن غداً يا إخوة بإذن الله ستكون معركة الفتح -يقينا على الله تبارك وتعالى سيفتح الله علينا- ونسأل الله تعالى أن يرى منا خيراً، وأن يأخذ بأيدينا". وأخذ يدعو: "اللهم حرر بأيدينا إخواننا وأخواتنا، اللهم ألحقنا بالأحبة محمدًا وحزبه، اللهم أحيينا سعداء وأممتنا شهداء، اللهم لا تحذلنا بذنوبنا، اللهم امنحنا أكتافهم، اللهم اجعل يوم غد فتحاً مبيناً". وعندما خرج للمعركة؛ ودّعه إخوانه المجاهدون.

قال أبو خطاب: وعندما قررنا تنفيذ عملية سجن أبي غريب، وخرج الإخوة، قمت بتوديع الشيخ أبي أنس، فودعني بوجه مبتسم، وقال لي ممازحاً: "سلم لي على أم أنس"، فقلت له: إنك لن تقتل في هذه المرة، وأسأل الله أن يردك سالماً معافاً ثم رجع من العملية بعد تأجيلها، وشد الرحال إلى العملية مرة أخرى، وكنت آخر شخص يودعه. ودعني أبو أنس وداع مفارق، ورأيت في وجهه نور الشهادة. فطلبت منه أن ينتظر حتى أطلب من الشيخ أبي مصعب أن يأذن لي

بمرافقته في هذه المعركة، فأجابني: "لا أريد أن تفقدنا الفلوجة نحن الاثنين؛ فإما أن تذهب أنت أو أذهب أنا". وقال لي أيضاً: "سلم لي على الشيخ أبي مصعب"، فعلمت أنه لن يعود، فقبلت رأسه وعينييه، وطلبت منه أن يشفع لي، فقال لي: "الوداع يا أبا الخطاب"، فقلت له: لا تقل الوداع وقل اللقاء، فقال: "لقاؤنا في الجنة إن شاء الله".

قال أبو ياسر: تحرك هذا الجيش بقيادة أبي أنس وكان يقول: "يا حبذا الموت على أبواب أبي غريب"، وكان الترتيب للمعركة بحسب ما أمكن وتيسر، وعندما ذكرنا ذلك لأبي أنس، قال: "علينا أن نقدم ما عندنا ونتوكل على الله". انطلقنا على بركة الله سبحانه وتعالى.

وكان من عادته أنه يدعو في كل حاله جالساً أو ماشياً، لنفسه وإخوانه، وعندما سرنا وركبنا السيارة كان يدعو الشيخ دعاء بسيطاً فقلت: فرصة أن أرفع يداي وأؤمن على دعائه، فلما أمنت، هو رفع يديه واسترسل في دعائه. وأخذ يسأل الله أن يفتح عليهم فتحاً مبيناً، وأن ينصرهم نصراً مؤزراً، ونسأل الله أن يثبتنا ويكتب هذا النصر بأسمائنا، وأن يختم لنا بالشهادة في سبيله. وألح كثيراً على طلب الشهادة، وأكثر من البكاء. وتحمس الإخوة في الخلف، فأخذوا يؤمنون وبكى بعضهم.

وعندما انتهى الشيخ، بشرني ببشارة، قال: "أبشرك يا أبا ياسر أن شيخنا أبا أحمد -يقصد الزرقاوي-، سوف يعلن بيعته للشيخ أبي عبد الله". دمعت عيناى، فقلت: يا شيخ أنت الآن كفتت عن البكاء، وأنا أبكي.

قبل أن نصل إلى الهدف، قلت: يا شيخ لعلك تلقي على الإخوة كلمة، فقال الشيخ: "رأسي يتعبني". وكان أبو أنس مُجهداً، قد ظهر عليه أثر التعب، فهو لم يذق طعم النوم منذ أربعة أيام، ولكنه كانت له إشراقة غريبة، شهد له بذلك

الإخوة المجاهدون.

وصلنا إلى موضع المبيت، قريبا من ساحة المعركة، ونزلت السيارات، ونزل أبو أنس، وكان يستطلع الموقع الذي سنبيت فيه، ورجع مرة أخرى وركب السيارة فبدأت أقود السيارة، وصلنا إلى البيت الذي سنبيت فيها. نزل الشيخ حتى يرى الوضع في الداخل، فتأخر بعض الشيء فنزلت أراه، فدخلت عليه فسلمت عليه فقلت: الإخوة في الخارج ننزلهم في هذا المنزل أو في منزل آخر، قال: "لا أنزلهم"، والإخوة منهم أبو محمد اللباني، وأبو عمار -تقبلهم الله في الشهداء-؛ وكان الجميع يتسم ويضحك، كأنه مقبل على زواج. فخرج الشيخ على إثري، وكنت أنزل الإخوة من السيارة، وفي هذه الأثناء وجدت الشيخ جالسا يتكلم في مجمع من الإخوة الأنصار، فجلست على مقربة منهم. وكان هناك صوت حيوانات (الواوي) -الثعلب-، فابتسم الشيخ -رحمه الله- وقال: "تسخر منا أم هي فرحة بنا؟". فقال الإخوة: "لا، إن شاء الله فرحة بك".

وسمعنا صوت الطائرة تحلق في السماء، وما هي إلا لحظات إذ سمعنا صوت الصاروخ ينطلق من الطائرة وسقط على البيت الذي كنا فيه، وبعد الصاروخ لم أر شيئا بدأ الغبار والدخان والتراب، وبعد أن تجلت الرؤيا ولكننا نجونا ولم نمت، ونفض أبو أنس عن وجهه التراب، فقلت: يا أبا أنس لو أخرجنا الإخوة من البيت وسحبناهم إلى الفلوجة، فقال: "جيد استعن بالله وابدأ بهذا"، فلم يفر من البيت، بل بلغ من الشهامة أن ذهب إلى الإخوة ليخرجهم، مع أن البيت كان مظنة القصف مرة أخرى.

فإذا بصاروخ ثان يسقط على المنزل، وأخبرني بعض الإخوة: أن الصاروخ نزل عليه أو بجانبه، وإذا بأبي أنس جريحا على الأرض، ثم استشهد.

بدأ القصف المدفعي، استمر ربع ساعة، بدأت بسحب الإخوة إلى نهر، أتت

طائرات مروحية. بدأ القصف المروحي وانتشر الإخوة، فانسحبنا انسحاباً ثم من المنطقة ككل. كنا في مسيرة معنا أخ عراقي استطلع المنطقة، مشينا مسافة بسيطة وكان معنا بعض الجرحى. وعندما عبرنا هذه المنطقة، وجدنا أخاً عراقياً قال: "هنالك أخ جريح يتبع لكم". وطلبني شخصياً قال: "في مجموعتكم أخ يقال له: أبو ياسر". فقلت: أنا، فقال: "يحضر معي حتى يجلس مع هذا الأخ لأنه محتاج أن يراه". فذهبت فجلست معه فإذا به أخ من المجموعة. عرض علينا صاحب المنزل المبيت عنده، فإذا الأمر فيه خطر، فقلت: لعل المنطقة تطوق. فخرجنا متوكلين على الله، وقلت: نصبر على الجراح ولكن ننتقل، نخشى بعض الإخوة يقعون في الأسر، لا يحملون السلاح، وجراحهم ثقيلة بعض الشيء. ومشينا مسيرة نصف ساعة، ثم أتت سي ١٣٠، وبدأت تقصف القاصفة لقراءة الساعتين. بعد ذلك هدأ القصف، انطلقنا وواصلنا المسيرة، وسرنا ما يقارب ٣٠ أو ٣٥ كيلو متر. والإخوة بين تعب وخوف وجراح. أما الإخوة الباقون؛ فكان منهم من قتل، ومنهم من جرح، فانسحبوا إلى الفلوجة، وأخذ الإخوة يصبر أحدهم الآخر بهذه المصيبة، ويقول بعضهم لبعض: "لا تحزن إن الله معنا".

وذاع نبأ استشهاد الشيخ أبي أنس -رحمه الله-، وكان وقع المصيبة على المسلمين شديداً، إذ إنهم فقدوا عالماً مجاهداً وصديقاً ومعلماً.

استشهاد

قال ميسرة الغريب: تهيأت الجموع صَوْبَ أبي غريب بقيادة القائد الشجاع أبي أنس الشامي ومعه خيرة القادة الميدانيين لفك أسرى المسلمين الذين أسرههم الصليب وأعوانه ولم يُقدِّم لهم العالم الإسلامي والعالم الإسلامي أكثر من مقالة اللسان، وكان الشيخ الزرقاوي رحمه الله يتفقد الإخوة عصر الخميس بسيارته، فجاءنا أبو أنس يُودِّعنا، ومدَّ رأسه ليودِّع حبيبه الشيخ أبا مصعب، لقد كانت

صفحة وجهه كالقمر المتلألئ حتى أنها لفتت نظري، وقد انحدرت دموع الوداع من عينيه، فسألت عبد الرحمن البصراوي -السائق-: أكان أبو أنس يُودّع هكذا في كل مرة؟

لقد تسلل إلى نفسي شعور قوي أنه اللقاء الأخير بيننا، حقًا لقد جمع أبو أنس بين النقيضين عادةً "الرِّقَّةُ والشَّجَاعَةُ"، وهكذا كان الجيل الذي أعده نبئنا عليه الصلاة والسلام؛ فرسانٌ في النهار رهبانٌ في الليل.

وانطلقت الجموعُ وغادرنا مع الشيخ الراحل نتعشى في إحدى بيوتات الأنصار الذين أحبوه وأحبهم؛ وتجاذبنا أطراف الحديث وتطرقنا إلى القرضاوي ما له وما عليه، وإلى علاقة الشيخ السابقة بشيخ المجاهدين أسامة بن لادن وسبب عدم انضمامه في أفغانستان إليه، وأحداث (سبتمبر)، كانت جلسة غزيرة.

وإذا بأمر الفلوجة يدخل علينا ليخبر الشيخ بالخبر المفجع؛ كمينٌ من الأمريكان، تزامنَ هذا مع إعلان الفضائيات -الجزيرة وغيرها- نبأ مقتل ستين عنصرًا من جماعة التوحيد والجهاد، فانقطعت شهيتنا للطعام، ولم يكن ثمة متسع من الوقت لاستجلاء الخبر، فلا بد أن ننتظر على جمر الصبر إلى الصباح.

جاء الصباح الثقيل وتضاربت الأنباء عن القتلى مَنْ وَمَنْ، كلنا يستجلي الحادثة ويستبين الخبر، ويستلهم من مولاه الصبر؛ قُتل أبو عمار، وأبو محمد اللبناني، وتضاربت الأنباء عن أبي أنس، وتوجَّهْتُ إلى حي الشهداء وإذا بأبي ميسرة العراقي هناك في زيارة، فما أن سَمِعَ نبأ أبي أنس حتى انفجر بكاءً لدرجة أنه دهشني! فما كنت لأتوقع منه كل هذا البكاء، ورحت أزيل غشاوات الشائعات بما استطعت من قوة بيان إلى حين تَبَيَّنَ الخبر.

وجاء المساء ودخل جنح الليل فَوَصَلْنَا قرص فيه صور القتلى، فسارعت مع

الشيخ إلى الحاسوب وبدأنا ننظر الصور واحدة واحدة، وقلوبنا تَدُقُّ تنتظر المفاجآت، حتى خرج الوجه النّير والإصبع الموحدة والتراب المهال عليه -رحمه الله- فعرفنا أنه حق.

لقد تجلّد شيخنا الراحل لهذا النبأ تجلّداً كبيراً وكأني بدمعته قد احتبسها في محاجرهِ ينتظر اختلاّءً منه بنفسه ليسكب كل ما جمّعه فيهما، وسرعان ما وجهني إلى المضافات والمفارز وسائر الأحياء، وقال: "صارت مهمتك الآن صعبة"، يعني في المجال الشرعي بعد فقْدِ أبي أنس، وطلب مني أن أجوب المفارز وأرفع المهمة، وأخفف الأحزان ببلسم الآلام.

وبسبب الحادث المفجع أصدر شيخنا -رحمه الله- أمراً بمنع كل الجولات، وانضبط الإخوة فكانت ضربةً موفقةً للعدو إذ استفاد كثيراً من الجولات فيما سلف، فعجّبوا الآن لإخوة -وخاصة المهاجرين- كيف يستعملون الجوال والمعصية تكتنف المتصل لحظة بلحظة حتى يغلق السماعة ويتوب ويعزم أن لا يعود.

وحسبنا عدد القتلى فإذا به حوالي ثلاثين، فما أكذب الإعلام، وما أكذب الجيش الأمريكيّ المفلس اللعين!

وشتان ما بين الفريقين "المجاهدين والصليبيين"؛ فالشيخ أبو مصعب أبي وبشدة ذات مرة نشرَ خبرٍ فيه زيادة في عدد خسائر العدو عن الحقيقة، وقال ما معناه: "المسلمون ينظرون إلينا وينتظرون منا فلا يجوز أن نخونهم ونلّبس عليهم كما يفعل عدونا".

فَصْلٌ فِي بَيْعَةِ الزَّرْقَاوِيِّ لِأُسَامَةَ

ذكر في بيان جماعة التوحيد والجهاد: كانت هناك اتصالات بين الشيخ أبي مصعب مع الإخوة في القاعدة منذ ثمانية أشهر، وتم تبادل وجهات النظر، ثم حصل انقطاع قَدَرِي، وما لبث أن أكرمنا الله بعودة الاتصالات، فتَفَهَّم إخواننا الكرام في القاعدة استراتيجية (جماعة التوحيد والجهاد) في أرض الرافدين أرض الخلفاء، وانشرحت صدورهم لمنهجها فيها.

ومع إطلالة شهر رمضان شهر العطاء والانتصارات، وفي ظرف أحوج ما يكون فيه المسلمون إلى لَمْ شَمْلِهِم ليكونوا محرزًا في أعين أعداء الدين؛ تَرَفُّ إلى أمتنا الغراء خير أمة أخرجت للناس بشرى تُفرِّحُ المؤمنين وتُثَبِّتُ من شدة الغيظ الكافرين، وتُرْعِبُ كلَّ عدوٍّ للمسلمين، تَرَفُّ إليها تَبًّا بَيْعَةٍ (جماعة التوحيد والجهاد) أميرًا وجنودًا لشيخ المجاهدين أسامة بن لادن على السمع والطاعة في المنشط والمكره؛ للجهاد في سبيل الله حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.

بَابُ مَعْرَكَةِ الْفَلُوجَةِ الثَّانِيَةِ

سبعون يوماً

من رمضان حتى الثاني عشر من ذي القعدة
لعام ألف وأربعمئة وخمسة وعشرين للهجرة

بَابُ مَعْرَكَةِ الْفُلُوجَةِ الثَّانِيَةِ

التَّاسِعُ مِنْ رَمَضانَ

قال أبو حمزة: لما اشتدَّ الخطبُ وعرفَ الجميعُ قُربَ الاقتحامِ العامِّ للفلوجة عرضتُ على الشيخ أبي مصعب -تقبله الله وغفر له- أن يكونَ أبو أحمد طارقَ الرَّجلِ المسؤولِ العسكري للمدينة، فوافقَ الشَّيْخُ على تعيينه مستشارًا عسكريًا ورئيسًا للجنة المُساءلة والمُتابعة، فقد كان طارقُ جريئًا جدًّا يفتحُ المهالك، ولذا رفضَ الشَّيْخُ تعيينه مسؤولًا واكتفى أن يكونَ مستشارًا فقط.

وفي هذه الفترة عرفتُ طارقًا الإداريَّ والعسكريَّ، فقد اجتمعَ مع القادة الميدانيين للفلوجة وعرضَ خطَّته، كانت الفلوجة تقريبًا لا يوجد بها كتيبة دفاع جويٍّ منظمة ومرتبَّة لهذا الهدف، بل سلاحٌ مع هذه الكتيبة وآخر مع أخرى، فاقترح تشكيل سرِّيَّة الدفاع الجوي وبدأ الرجل:

أ- اختارَ نخبةً من الأبطال أوَّلًا ثمَّ أدخلَهُم دوراتٍ تدريبيةً مكثَّفةً وسريعةً، كل مجموعةٍ على سلاح بعينه، فهذه على (الدوشكا) وأخرى على الـ(٣٧) والثالثة على الـ(٥٧).

ب- سعى في جلب ضابط سابق يقوم بإدارة هذه السريَّة ويتولى هو بنفسه - أي الضَّابط - تحديد أماكن توزيع الأسلحة، ومربَّعات السَّيطرة، ويأمرُ بإطلاق النَّار ونقل القطاعات، وإلى غير هذا من الأمور المهمة.

ج- جمعَ كل ما لدينا من سلاح جويٍّ وأدخله للصَّيانة وبحضور الطَّاقم المختص بكل سلاح حتى يتعوَّد على تصليحه وصيانته بنفسه.

د- تمَّ تحديد نقاط كثيرة في الفلوجة لتكون محلاً لإشعال النَّفْط فيها لتكون كثافة دخانية تمنع الرؤيا، وحتى يضطرَّ طيران العدو إلى النزول كثيرًا مما يدخله في مرمى نيراننا.

وفي تلك الأثناء ذهبْتُ مع طارق إلى الصِّناعة، أثنى نقاط الجبهة، وزُرنا نقطة الإخوة الأكراد فرسان الصِّناعة، فأخذنا أحد أهم أبطالها وهو الأخ (شامل) إلى منطقة الرِّصد والقنص، وأثناء رَصْدنا للسَّريع ونقاط العدو رأيتُ غبارًا كثيفًا ومفاجئًا في منطقة المعارض، ونظر طارق فإذا هي دبابات العدو كانت تسيرُ على السَّريع ثم دخلت مسرعة في اتجاه خطِّ الإخوة بالشهداء.

الْعَاشِرُ مِنْ رَمَضان

قال أبو حمزة: في مساء العاشر من رمضان أسرعنا بالعودة إلى الإخوة في الشُّهداء، وذهب طارق إلى مجموعة خليفية أعدّها لهذا الأمر -أعني المعونة والمُساعدة دون الاشتراك المباشر في جبهة من الجبهات- وكانت هذه هي مجموعته التي يعتمد عليها منذ كان محلُّ عمله بالرَّمادي.

وأخذنا عددًا من الإخوة وانطلقنا باتجاه العدو وكان المغرب على الأبواب، وهنا رأيتُ طارقًا الوحش على حقيقته، لبس جعبة ال(آر بي جي) وحمل قاذفه وقال لي: لا بُدَّ أن تبقى في الخلف حتى إذا احتجنا إلى مددٍ تقوم بالأمر. ثم دوى زئير الأسد؛ الله أكبرُ الله أكبرُ خربت أمريكا، سيُهزمُ الجمعُ ويولُّون الدُّبر، الصَّبر الصَّبر يا عباد الله.

وتقدَّم إلى أقرب نقطة للعدوِّ وبدأ الإخوة يلتقون حوله ويتشجعون برؤيته بينهم، فقد كانوا يسمعون عن شجاعته وإقدامه، واستمرَّ الاشتباك طويلاً، وفي هذه الأثناء أصاب الإخوة جوعٌ وعطشٌ شديداً فقد كانوا أصلاً صياماً، والعدوُّ

لم يأتِ إلا السَّاعَةُ الرَّابِعَةُ قَرَبَ الْمَغْرَبِ فَلَمْ يَشَاؤُوا أَنْ يُفْطَرُوا.

فَارْسَلْتُ فِي إِحْضَارِ مَا يُمَكِّنُ إِحْضَارُهُ مِنْ مَاءٍ وَطَعَامٍ عَلَى شِدَّةٍ وَخَوْفٍ شَدِيدٍ أَلَمَّ بِالْإِخْوَةِ، إِذْ إِنَّ الْقَاصِفَةَ كَانَتْ فَوْقَنَا وَتَضْرِبُ كُلَّ مَا يَدْبُ عَلَى الْأَرْضِ أَوْ لَا يَدْبُ مِنْ بَنِيَانٍ وَمَآذِنَ، وَكَذَلِكَ طَائِرَاتُ الْإِسْطِلَاعِ الْمُتَوَسِّطَةِ وَالْمِيدَانِيَّةِ مِثْلَ (النَّسْرِ وَالصَّقْرِ) وَالَّتِي يُطْلَقُهَا الْعَدُوُّ لِلْإِسْطِلَاعِ الْقَرِيبِ وَعَلَى ارْتِفَاعٍ مُنْخَفَضٍ جَدًّا حَتَّى يُشْغَلَ الْخَصْمُ بِالسَّيْطَرَةِ عَلَيْهَا وَهِيَ بِدَوْرِهَا تَنْقُلُ صُورَةَ الْمُقَاتِلِ الَّذِي يَضْرِبُهَا وَأَمَاكِنَ وَجُودِهِ، فَعَلِمَ أَنَّهُ مِنَ الْخَطَأِ الْإِنْشَغَالُ بِهَا عَلَى الرَّغْمِ مِنْ خَطُورَتِهَا.

أَقُولُ: زَوَّدْنَا الْإِخْوَةَ بِمَاءٍ قَلِيلٍ وَطَعَامٍ، وَأَعْطَانِي هَذَا دَرَسًا فِي ضَرُورَةِ أَنْ يَكُونَ كُلُّ مُجَاهِدٍ يَتَجَهَّزُ بِقَلِيلٍ مِنَ الطَّعَامِ (كَالزَّبِيبِ وَالتَّمْرِ) وَكَذَلِكَ الْمَاءِ وَلَا يُفَارِقُهُ ذَلِكَ أَبَدًا.

وَقُتِلَ فِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ أَحَدُ الْإِخْوَةِ وَتَمَّ سَحْبُهُ إِلَى الْخَلْفِ، وَأَثْنَاءَ إِحْضَارِهِ رَأَيْتُ الْإِخْوَةَ يُكَبِّرُونَ فَتَعَجَبْتُ، فَلَمَّا قَرَّبُوا مِنِّي زَالَ عَجْبِي، فَوَاللَّهِ ثُمَّ وَاللَّهِ مَا زَالَتْ رَائِحَةُ مِسْكِ أَخِي هَذَا - وَالَّذِي أَصْلًا لَا أَعْرِفُ اسْمَهُ إِلَى يَوْمِنَا - فِي أَنْفِي، وَلَقَدْ انْتَشَرَتْ رَائِحَةُ الْمِسْكِ مِنْهُ إِلَى مَسَافَةِ مِئَةِ مِترٍ، وَهَذَا مَا لَمْ يَسْبِقْ لَهُ مِثْلٌ قَطُّ، فَقَدْ صَارَ مَشْهُورًا - وَالْحَمْدُ لِلَّهِ - فِي قِتْلَانَا فَوْحَانَ رَائِحَةِ الْمِسْكِ، وَلَكِنْ ذَلِكَ يَكُونُ إِذَا اقْتَرَبْتَ مِنَ الشَّهِيدِ وَشَمَمْتَ مَبَاشَرَةً دَمَهُ أَوْ مَلَابِسَهُ، أَمَا عَلَى مِئَةِ مِترٍ فَلَا.

وَبَقِيتُ إِلَى جَانِبِ الشَّهِيدِ خَوْفًا عَلَيْهِ مِنَ السَّبَاعِ الْمُنْتَشِرَةِ فِي الْمُنَاطِقَةِ، ثُمَّ وَضَعْتُهُ فِي سَيَّارَةٍ وَانْطَلَقْتُ بِهِ لِيُدْفَنَ، وَمَا دَفَنْتُهُ غَيْرِي مِنَ الْإِخْوَةِ.

وَعُودَةٌ إِلَى طَارِقِ الْوَحْشِ؛ فَقَدْ عَدْتُ إِلَى الْجَبْهَةِ وَسَأَلْتُ عَنْهُ فَقَالُوا مَا زَالَ فِي الْمَقْدِمَةِ، وَحَوَالِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ لَيْلًا سَمِعْتُ تَكْبِيرَ أَبِي أَحْمَدَ يَدْوِي، ثُمَّ سَمِعْتُ صَوْتَ آيَاتٍ، وَمَا هُوَ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّى جَاءَ الْبَطْلُ وَقَالَ انْسَحِبِ الْعَدُوُّ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ.

الخَامِسُ وَالْعِشْرُونَ مِنْ رَمَضَانَ

قال أبو حمزة: مضت الأيام واقترح العدو مستشفى الفلوجة عند صلاة العشاء في الخامس والعشرين من رمضان على ما أذكر، وبثت تلك الليلة أنا وأبو عبد الله الشامي مرابطين حذاء الجسر الجديد وفي نقطة حُدِّدت سلفًا لتكون محل الإدارة إذا تمَّ ما حدث، وأصبح الصباح وكان الجو باردًا جدًّا فاستعرتُ معطفاً من الأخ عمر حديد، ثم قابلتُ أبا أحمد الوحش وقلتُ له: ما العمل؟ ثم أردفت قائلاً: أشعر أنَّ أضعفَ نقاط الجبهة من جهة الجغيفي؛ فمع أنه لا وقت ولكن ليتك تذهب أنت ومجموعتك فتسلُّوا هذه الثَّغرة -وقد كانت من نصيب الشيخ عبد الله الجنابي وإخوانه-، وأثناء حديثنا قطع القنَّاصة شارع الحضرة المحمدية.

ومَضَى الرَّجُل لِعَمَلِهِ، لكنَّه وفي منتصف الليل بل قبل ذلك حَدَثَ ما توقعتُ وللأسف بعد فوات الأوان، دخل الأمريكان من جهة الجغيفي واخترقوا المنطقة بطريقة رأس السَّهم ثم انتشروا في الدَّاخل، وحُوصِرَ الإخوة في العسكريّ والجولان، بل فوجئ الإخوة في العسكريّ بالأمريكان معهم في الأفرع وبدأت المطحنة والملحمة.

وأما طارق الوحش فقد انحاز بحمد الله إلى نَزَال مقر القيادة في ذلك الوقت وقال: ما العمل؟ قلتُ: العملُ أن نقسمَ المدينة نصفين جنوبي وشمالي، ثمَّ ندافع عن القسم الجنوبي ونغيِّرَ على القسم الشمالي حتى نستردَّ ما فقدناه منه ونعاونُ مَنْ حُوصِرَ من إخواننا.

وتمَّ تكليف أبي أحمد طارق بمهمَّة إنشاء خط جبهة يحمي القسم الجنوبيّ وقد فعل الرَّجُل وسدَّ الثَّغرة، حاولَ الأمريكان مرارًا اختراق الخطِّ لكنَّ أبا أحمد كان لهم بالمرصاد يسدُّ هذه ويجبرُ هذه، واستمرَّ به الحال هكذا أيامًا والعدو لا يستطيع

التقدم، وكلما احتاج إلى إخوة أو سلاح أرسل إليّ وزوّدته بذلك، وكان الإخوة في هذا الوقت يتساقطون تساقطاً أوراق الخريف لكنّها غصّة طريّة خضراء.

وفوجئ أبو أحمد أن قنّاصاً تسلّل إلى عمارة مهمّة مُطلّة على أحد التقاطعات -وهو تقاطع الطريق القديم مع طريق شارع الفردوس- فقال أبو أحمد لأحد الإخوة - أظنّه أبا جعفر رحمه الله-: غطّ عليّ بواسطة (البيكا) وأنا أخرج أضرب مكانَ القنّاص بصاروخ مهداد (آر بي جي)، وفعل الاثنان ذلك لكنّ أبا أحمد جاءته طلقة في كليته أسقطته أرضاً.

ولما سُحِبَ إلى بيتٍ مجاورٍ ظلّ يبكي ويقول: "يا ربّ شهادة لا جرحاً، يا ربّ أنت أرحم الراحمين، يا ربّ إخواني"، ولما أرادوا أن يسحبوه من المعركة رفض ركوب السيارة وقال: "والله لا أخرج، لا أخذل إخواني، اتركوني"، فقال له أحد الإخوة: "اتّق الله إنك مجروح، يشفيك الله وترجع"، فرجع والبكاء هو حاله -لا جزعاً علّم الله- ولكن حبّاً للجهاد، ثمّ سُحِبَ من الجبهة وانسحب معه كثير من الإخوة المشخنين بالجراح، وحاولت أن أسدّ مكان طارق لكن كل جهودي ذهبت سُدىً، وبفقدني لأبي أحمد في الجبهة كُسِرَ الخطّ وتقدّم العدو إلى نزال، فقد كان طارق -والله- أُمّةً كأنّه ألف مقاتل، فلم يستطع أحدٌ قطّ أن يقوم مقامه.

وأثناء نقله إلى الخلف لاحظ أبو جعفر -رحمه الله- شيئاً على وسطه، حاول فكّه لكنّ طارقاً صرخ فيه: "اتركه"، وقد كان هذا الشيء حزاماً ناسفاً يُتَوَجَّح به جسمه ويثيره في عدوّه إذا اضطر لذلك، فهو الأبّي الذي لا يقبل الضيم، وهو الشجاع الذي لا يحتمل ذلّ العدو.

ولما اقتُحِمَ حيّ نزال دخل الأمريكان بيت أبي أحمد والذي كان جريحاً فيه، وعندما رآه الأمريكيّ جريحاً ظنّ أنّه عصفورٌ كسيرٌ تقدّم ليأخذه حتى يلهو

ويضحك به، وفجأةً ثَارَ الْبُرْكَانُ عَلَى هَذَا الْجَمْعِ؛ فَجَرَّ أَبُو أَحْمَدَ طَارِقَ الْوَحْشِ حَزَامَةً فَقَتَلَ عَدَدًا مِنْ عُلُوجِ الْأَمْرِيكَانِ وَلَيَّ نِدَاءَ رَبِّهِ بِالْخُلُودِ إِلَى جَوَارِ الصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ نَحْسَبُهُ كَذَلِكَ.

فَصْلُ عُمَرَ حَدِيدٍ

قال أبو حمزة: كان موقع عمر حديد بالجولان، وكنتُ بجي نَزَّالٍ مع الشيخ أبي عَزَّامٍ، وعبد الهادي وأبي ربيع، وآخرين من المهاجرين والأنصار، وبدأت أخبار الجولان تأتي إلينا غير سارة البتة، وكان آخرها أَلَمًا أَنَّ عُمَرَ حَدِيدَ قَدْ قُتِلَ، فتألم الجميع وصار الحُزْنَ سيد الموقف.

وفي صبيحة يومٍ مُشرقٍ، أَطْلَعَ عَلَيْنَا عُمَرَ وَقَدْ أُصِيبَ فِي ظَهْرِهِ وَكَتِفِهِ الْأَيْمَنِ، يَحْمِلُ رَشَّاشَهُ، وَفِي هَذِهِ الْمَرَّةِ (إم ١٦) الْأَمْرِيكِيِّ فَكَبَّرْنَا جَمِيعًا، وَسَجَدْنَا لِلَّهِ شُكْرًا، ثُمَّ حَكَى لَنَا قِصَّةَ إِصَابَتِهِ وَكَيْفَ اسْتَطَاعَ مَعَ إِخْوَانِهِ فَكَ طَوْقِ الْحَصَارِ الْمَفْرُوضِ عَلَيْهِ، وَجَاءَ إِلَى حَيِّ نَزَّالٍ، وَمِنْ هَذَا الْحَيِّ بَدَأَ عُمَرُ يُمَارِسُ دَوْرَهُ الْقِيَادِي، فَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ إِصَابَتِهِ وَصُعُوبَةِ حَرَكَتِهِ، كَانَتْ إِذَا اسْتَعَصَتْ مَنَاطِقُهُ أَرْسَلْنَاهُ إِلَيْهَا لِسَبِّ هَامٍّ وَهُوَ أَنَّ الْإِخْوَةَ إِذَا رَأَوْهُ يَتَحَمَّسُونَ وَيَتَشَجَّعُونَ وَيَكُونُ الْإِقْدَامُ شِعَارَهُمْ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَحْيِي مِنْهُ، ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ كَانَ صَاحِبَ سِرٍّ فِي هَذَا الْأَمْرِ اللَّهُ بِهِ عَلِيمٌ، وَاقْتَحَمَ الْأَمْرِيكَانِ حَيَّ نَزَّالٍ، فَقَاتَلَ قِتَالَ الْأَبْطَالِ، وَتَفَرَّقَ الْإِخْوَةُ مَجْمُوعَاتٍ، فَذَهَبَتْ مَعَ مَجْمُوعَةٍ وَذَهَبَ هُوَ مَعَ أُخْرَى، ثُمَّ جَاءَ مَعَ مُحَمَّدٍ جَاسِمِ الْعِيسَاوِيِّ (أَبِي الْحَارِثِ) وَآخَرِينَ وَالْبَسْمَةَ تَعْلُو وَجْهَهُ قَائِلًا: "إِنْ شَاءَ اللَّهُ النَّصْرَ لَنَا، نَهْزُمُهُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، إِنَّا نَطْمَعُ فِي مَا عِنْدَ اللَّهِ"، وَكُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ يَعْنِي الْجَنَّةَ، ثُمَّ بَدَأَ الْقِتَالَ فِي أَنْحَاءِ حَيِّ نَزَّالٍ فَبَدَأْنَا نَنْحَارُ مِنْ بَيْتٍ لِبَيْتٍ.

وَفِي هَذِهِ الْأَيَّامِ انْحَارَ الْإِخْوَةُ وَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنَا وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْإِخْوَةِ أَنْ نَنْحَازَ

لأسبابٍ كثيرة؛ ونَظَرَ عُمَرُ إِلَى الْبَيْتِ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ فَجُرَّ جُنُونُهُ؛ لِأَنَّهُ رَأَى الْقَنَاصَةَ فَوْقَ سَطْحِ الْبَيْتِ وَخَافَ عَلَيْنَا خَوْفًا شَدِيدًا، فَأَخَذَ سِلَاحَهُ (إم ١٦) وَبَدَأَ يَقْنَصُ عَلَيْهِمْ، فَقَنَصَ الْأَوَّلَ ثُمَّ قَنَصَ الثَّانِي، وَعَلَى إِثْرِهَا فَرَّ الْجُبْنَاءُ مِنْ سَطْحِ الْبَيْتِ، ثُمَّ سَهَّلَ خُرُوجَنَا -بِحَوْلِ اللَّهِ- مِنَ الْمَنْزِلِ.

ثُمَّ جَاءَ (نِدَاءُ الْمَرْأَةِ) كَمَا يَعْرِفُهُ مَنْ كَانَ فِي حَيِّ تَزَالِ، وَالَّذِي أَمَرُوا فِيهِ بِخُرُوجِ كُلِّ حَيٍّ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى أَمَاكِنَ حَدَّدُوها، فَعَلِمَ الْجَمِيعُ أَنَّ الْمَوْتَ قَادِمٌ لَا مُحَالَةَ، وَأَنَّ الْجُبْنَاءَ سَوْفَ يَسْتَخْدِمُونَ أَسَالِيبَ قَذِرَةٍ، وَبِالْفِعْلِ اسْتُخْدِمَتِ الْغَازَاتُ السَّامَّةُ وَالْحَارِقَةُ، وَمَا كَشَفُوهُ مَوْخَرًا مِنْ مَوْضُوعِ الْفُسْفُورِ الْأَبْيَضِ غَيْضٌ مِنْ فَيْضٍ.

وَبَدَأَ عُمَرُ يَنْحَازُ مِنْ مَكَانٍ لِآخِرٍ حَتَّى اسْتَقَرَّ بِهِ الْمَقَامُ فِي أَحَدِ الْبُيُوتِ مَعَ أَكْثَرِ مِنْ عَشْرَةٍ مِنَ الْإِخْوَةِ، وَإِذَا بِهِ يَشْعُرُ بِالْأَمْرِيكَانِ يَحَاوِلُونَ اقْتِحَامَ الْمَنْزِلِ، فَصَعِدَ عَلَى السَّطْحِ وَبَدَأَ فِي الْإِشْتِبَاكِ مَعَهُمْ، لَكِنَّ طَلْقَةَ قَنَاصٍ كَانَ مُحْتَبِنًا فِي بَيْتٍ مُقَابِلٍ أَصَابَتْهُ فِي رَأْسِهِ، فَتَرَجَّلَ الْفَارِسُ، وَإِنْ صَحَّ التَّعْبِيرُ؛ فَرَكِبَ الْفَارِسُ جَوَادَهُ لِيَصُولَ بِهِ وَيَجُولَ فِي عَلَيَاءِ الْمَجْدِ وَالشَّرَفِ وَيَمْرَحَ بِهِ فِي جَنَاتِ عَدَنِ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْتَدِرٍ نَحْسَبُهُ وَاللَّهُ حَسِيبَهُ.

وَأَصَابَ الْإِخْوَةَ بَعْدَهُ مَا أَصَابَهُمْ، لَكِنَّ الْجَمِيعَ احْتَسَبَهُ عِنْدَ اللَّهِ، فَقَدْ ارْتَاحَ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا وَتَعَبِهَا، وَمِنْ جَمِيلِ الْأَشْيَاءِ أَنَّ الْأَمْرِيكَانِ اسْتَخْدَمُوا فِي حَرْبِهِمْ هَذِهِ كُلَّ وَسِيلَةٍ كَعَادَتِهِمْ، وَمِنْهَا الْحَرْبُ النَّفْسِيَّةُ.

وَمَوْضِعُ الْجَمَالِ فِي الْقِصَّةِ؛ أَنَّهُ كَثِيرًا مَا كَانُوا يُنَادُونَ فِي مَكْبَرَاتِ الصَّوْتِ: "اخْرُجُوا، سَلِّمُوا أَنْفُسَكُمْ، إِنَّكُمْ مُحَاصَرُونَ، سَنُبِيدُكُمْ، لَقَدْ فَرَّ قَادَتُكُمْ، لَقَدْ تَرَكَوْكُمْ، عُمَرُ حَدِيدُ الْجَبَانِ فَرَّ وَتَرَكَكُمْ، طَلَبَ الْحَيَاةَ وَتَرَكَكُمْ تَمُوتُونَ"، فَيَسْمَعُهَا عُمَرُ وَيَضْحَكُ، وَيَضْحَكُ الْإِخْوَةُ مِنْ حَوْلِهِ، وَيَزْدَادُونَ ثَبَاتًا وَيَقِينًا فِيمَا عِنْدَ اللَّهِ، {فَرَّادَهُمْ إِيْمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}.

وأذكر مرة أنهم قالوا فيما قالوا: "لقد جئناكم بأسلحة مُدْمِرَة، سوف تحرق الأرض عليكم، وتُمطر السماء نارا، عندنا قوة جبارة لا طاقة لأحد بها"، فضحك الله ساعته من صميم قلبي وقلت لإخواني: "أبشروا، فوالله هذا الكلام بعده الفرج القريب". فما تأخر والحمد لله.

وقال أبو حمزة: وقُتل عمر حديد بين رجاله في الفلوجة، وقد كنا نضحك معًا حينما نسمع الأمريكان وهم ينادون في الفلوجة بمكبرات الصوت: "لقد هرب عمر حديد وترككم"، وكان قولهم هذا من دواعي ثبات الإخوة من حيث لم يحتسبوا، فوالله لو لم يبقَ في العراق إلا رصاصة واحدة لبقيت حتى أطلقها ثم أفجر حزامي الناسف في أقرب تجمع لهم.

فصل أبي الغادية

قال أبو حمزة: اتفقنا على أن يكون مقر قيادة الأزمة في القلب أمام جامع الفردوس، الشهيد أبو الغادية قد أخذ مكانه في حي نزال أمام جامع الفردوس، وفي هذا المكان تجلّت شجاعة الأمير الشهيد، حيثُ تقدم إلى المقدمة وأخذ يحفرُ الإخوة ويرتب شؤونهم ويقوّي من عزيمتهم، وما زال في ذلك على النحو المعروف حتى تمّ اقتحام نزال، وفي تلك الليلة المظلمة كنتُ جالسًا وإيَّاه مع أبي جعفر وعددٍ آخر من الإخوة ثم انحزت وإيَّاه إلى مكانٍ آخر، وأصبح الصباح على معارك ضارية تكبّد فيها العدو الكثير والكثير.

وما زلتُ أتقلبُ مع أخي وحيبي من مكانٍ إلى آخر حتى آخر ساعةٍ من ساعاتِ الفلوجة، فما افترقنا قطُّ في تلك الأزمة، وهنا أحبُّ أن أسجّل بحصرِ الأشياء المهمة التي حدثت معه ومعنا والتي كانت في بعض الأحيان ظريفةً ومضحكةً، ومن ذلك أننا لما اشتدَّ الخطبُ وأحاط بنا العدو من كل مكانٍ

اجتمعنا ليلاً في بيتٍ من بيوت الجهاد، وفي إحدى غرف هذا البيت الواقعة في مؤخرة المنزل يُضيءُ مصباح (الكيروسين) والمجاهدون حوله يقولون: يا الله.

و بدا لي حينها أن أقترح اقتراحاً فقلتُ: "إخواني؛ أرى -والله أعلم- أن حالنا أشدُّ ضيقاً وضنكاً من أصحاب الصخرة الذين دَعَوْا بصالح أعمالهم، فهياً ندعو بصالح أعمالنا لعلَّ الله أن يُفَرِّجَ عنا"، وقلتُ: "كأني يا إخواني أفهمُ من الحديث أن يكون الدعاء علانية، أي أن يجهرَ كلُّ واحدٍ منا بأرجى أعماله عند الله، وذكرتُ أن المجالسَ بالأمانات، وتعاهدنا أن ينسى كلُّ واحدٍ منا ما قاله أخوه أو يتناساهُ بعد الدعاء".

وبالفعلِ بدأ الإخوة يجتهدونَ في التقرب إلى الله بأرجى أعمالهم إلا أخوين اثنين استحيا أن يذكرَا شيئاً، وتمرُّ الأيام والليالي وإذا بجميع من دعا في تلك الليلة المباركة يخرج سالماً آمناً من أحداث الفلوجة، والعجب العجيب أن الأخوين المذكورين آنفاً كُتِبَتْ لهما الشَّهادة ولم يخرجَا، فالحمد لله على شهادة الإخوة وعلى سلامة الباقيين، وكان مما دعا به حبيبي عبد الهادي "أبو الغادية" أمراً يتعلق بموضوع خدمة الإخوان، ولولا ما تعاهدنا عليه لذكرتُهُ الآن، فالعذر منكم يا أحبائي.

وفي هذه الأزمة تنقَّلتُ والرَّجل من بيتٍ إلى آخر واختبأنا من مكان لمكان حتى اضطررنا ظروف الحرب أنْ جلسنا في جُحرٍ صغير، والذي صارَ بصحبة عبد الهادي (أبي الغادية) قصراً كبيراً، فكانَ يخدمنا خدمةً عجيبةً إلا أنه كان مقتنعاً أنه طبَّاخٌ؛ وليس بذلك، ففي بعضِ الأيامِ صارت لنا فسحة الطهي، فطهى لنا أرزاً تبينَ عند الأكل أنه وصلته النار من الوسط ولم يكتمل طبخُهُ من الجوانب، فأَوَّلَها أنَّ النار كانت صغيرةً تركَّزت في الوسط، وفي المرة الثانية جاء الأرز قد اكتمل طبخه من الجوانب وغير جيِّدٍ من الوسط، فادَّعى أن النار كانت كبيرةً فلم تصل

إلى الوسط، وفي المرة الأخيرة كانت المفاجئة؛ حبة أرز مطبوخة وأخرى لم تكتمل، فادّعى أنه خلط نوعين من الأرز، المهمُّ لا يمكن أن تأكلَ أرزًا مطبوخًا بصورةٍ جيدةٍ أبدًا والعذر دائمًا موجود، فأخبرتهُ أنني سأشهرُّ به في العالمين، وها أنا ذا أوفي بما قلتُ وأعلم أنه سيسامحني لأنه حبيبي.

كَانَ لوجودِ عبد الهادي في الأحداثِ دورٌ مهمٌّ، حيث كان الطبيب الوحيدَ معنا في تلك الأحداث أعني في حي نزال، فكانَ على الرغم من كونه صيدليًا إلا أنه كان يُضَمَّدُ الجراحَ ويعطي العلاجَ ويقومُ بعملٍ جبار في هذا الأمر، غير أنه كان حريصًا على أن لا يعلمَ أحدٌ أنه طبيب، فكان رحمه الله يجوبُ المنازلَ بحثًا عن بقايا دواء أو مُطَهِّر أو عَسَل أو أي شيء يمكنُ أن يُفيد في تطبيبِ الإخوة؛ والذين نَزَفَ أحدهم حتى الموت ولمدة ساعتين كاملتين.

فَصْلُ أَبِي الْمَرْضِيَّةِ الْيَمَنِيِّ

قال أبو حمزة: كان موقع أبو المرضية من أخطر المواقع وأشدّها ضراوة، حيث كان عند أول مدخل نزال من جهة الصناعة وبالتحديد فوق العمارة الموازية لجامع الخلفاء، وهناك تقدم الأمريكان حتى وصلوا أمامهم من جهة الضباط وغيره، ودارت في نقطة أبي المرضية معارك ضارية أكلت الكثير والكثير من الشباب، وبدأ القصف عنيفًا على الخطوط الأولى فذهبتُ إلى تلك النقطة ووجدت الحالة صعبة جدًا وحاولتُ قدر المستطاع سدَّ الثغرة وتقوية المهمة، وواعدتُ أبا المرضية مكانًا إذا أرادني أن يأتي إليّ فيه، فكان لا يكاد يتوقف عن الحركة بين جنوده وإخوانه، لا يعرف الكلل ولا الملل على الرغم من بقايا إصابته القديمة فكان لا يزال به قليل عرج يعوق سرعة حركته.

وانتشر القناصة في الجهة المقابلة لأبي المرضية فترك الإخوة البناية التي تقابلهم،

فلما جاء أبو المرضية ورأى ذلك غضب غضباً شديداً وأصرَّ على الذهاب إلى البناية مرة أخرى وحده، وألح عليه الإخوة قائلين له: إن الشارع الذي ستسلكه للبناية يسيطر عليه قناص. ولكنه أصرَّ على الذهاب وسدَّ الثغرة، فما إن كاد يقترب من هدفه حتى أصابه قناص في قدمه وفي نفس موضع إصابته القديمة، فسقط على وجهه وأخذ يزحف حتى رجع إلى الإخوة قائلاً: "الآن قد أعدرتُ إلى الله"، فما تأوَّه ولا اشتكى بل أخذ يربط على قلوب إخوانه تماماً كما يربط ساقه ويضمِّد هذه وهذه، وأخيراً اقتحم الأعداء حي تَزَال وكان نصيب أبي مرضية معي في الحركة، فأخذنا نتنقَّل من بيتٍ إلى بيت ومن سورٍ إلى سور، ولا أظنك يا أخي تجهل تلك الآلام التي كان يشعر بها الجرحى حال الحركة.

وأخيراً استقرَّ بنا المقام في بيت مع مجموعة من الجرحى، وبينما نحن كذلك إذ بدأت الجرافات تمسح البيوت، ووصلت إلى البيت الذي كان أمامي فأسرعتُ إلى الجرحى وأخذتُ وإخواني نساعدُهم على العبور إلى بيتٍ أكثر أمناً، وبالفعل تمَّ ذلك مع آخر واحدٍ إلا أننا لم نستطع العبور، وبدأت الجرافات تهدم البيت علينا ولكنَّ الله سلَّم في آخر لحظة ونجونا بحمد الله وفضله، واستقر أبو المرضية مع مجموعة أخرى، وكذلك الحال بدأت رحلة المطاردة، وبينما هم كذلك عبرت مجموعة من الإخوة من أحد البيوت وإذا بطائرة (إف ١٦) تقصف ما تبقى من الإخوة في البيت المستهدف وكان من ضمنهم البطل القائد والشهيد المغوار أبو المرضية.

فصلُ أبي عَزام

قال أبو حمزة: فلم يَهِنْ أبو عزام ولم يَلِنْ بل بدأ صلباً جلدًا على الرغم من رقَّة قلبه المعروفة وحِبِّه المفرط لإخوانه، وكان يقول: "الموت في سبيل الله غاية"، وكان من كراماته أنه لمَّا قُسمت المدينة إلى قسمين شمالي وجنوبي وانحزنا في

الجزء الجنوبي بدأنا نُعِدُّ العدة للكرّة مرة أخرى على القسم الشمالي، وتمّ تعيين الأخ القائد أبي ناصر الليبي لهذه المهمة، فقال له أبو عزام: "إن شاء الله يا أبا ناصر تُصَلِّي الظهر في جامع أبي عبيدة، والعصر في الفاروق"، فضحكت في نفسي وقلت: "الرجلُ يَحْلُم، وهل نستطيع أن نوغل في العدو إلى هذا الحد، ثم حتى إذا وصلنا إلى تلك الأماكن هل يتوفر الأمن للصلاة في هذه المساجد؟"

وبدأ أبو ناصر كالأسد يهدُّ الصفوف هدًّا مع إخوانه، وسبحان الله مع تكبيرة الظهر وصل إلى جامع أبي عبيدة ودخل مع بعض جنوده وصَلَّى فيه الظهر، ثم بدأ مستعينًا بالله الكرّة مرة أخرى يهدُّ صفوف العدو ويُفَرِّق جمعهم ويشتت صفوفهم حتى وصل مع تكبيرة أذان العصر إلى جامع الفاروق، ودخل مع بعض جنوده وصَلَّى فيه العصر، ثم مال عليهم العدو بعنفٍ وقوة فانحاز مع إخوانه إلى الموضع الذي خرج منه مستغربًا من فضل الله وبرّه بكلمة الشيخ أبي عزام.

واستمرت المعركة، وبدأ انخياز آخر لكن هذه المرة في القسم الجنوبي، فانحاز أبو عزام مع رفقة صالحة تعدادهم ثلاثة منهم عبد الرحمن البصراوي سائق الشيخ أبي مصعب وموضع سره، ودخل العدو عليهم البيت وأمطرهم بوابلٍ من الرصاص، ودخل جنديٌّ وأطلق رصاصة واحدة في رأس كل واحد منهم ليتأكد من وفاته، وكان من بينهم الشيخ أبو عزام رحمه الله، وبعد ساعات بدا لأبي عزام أنه حيٌّ فظنَّ أنه في الجنة، ولكن لا حور ولا أنهار، وشعر برأسه كأنها جبل أو أثقل ورأى نفسه وإخوانه يسبحون في بحر من الدماء، وإذا بالجميع بين يديه صرعى وركام البيت فوق رؤوسهم، فأراد أن يقوم فهوى إلى الأرض سريعًا مغمّي عليه، ثم أفاق مرة أخرى وأراد أن يدعو الله بدعوة صالحة وبعمل صالح ينقذه مما هو فيه من البلاء فقال: "اللهم إنك تعلم أن أبا سعيد (محمد حردان) كان من أحبِّ الناس إليّ، فإن كنت تعلم أني تركته واتبعْتُ أبا مصعب لك ففرِّج

عَنِّي مَا أَنَا فِيهِ"، ثُمَّ أَغْمِيَ عَلَيْهِ فَمَا شَعَرَ إِلَّا وَشَخْصٌ يَحْمِلُهُ بَيْنَ ضُلُوعِهِ وَيَهْرَبُ بِهِ مِنْ بَيْنِ طَلَقَاتِ الْعَدُوِّ إِلَى أَنْ وَضَعَهُ عِنْدَ إِخْوَانِهِ وَبَدَأُوا يَضْمُدُونَهُ حَتَّى عَافَاهُ اللَّهُ بَعْضَ الشَّيْءِ، ثُمَّ أَوَى إِلَى جَحْرٍ أَلِيمٍ وَضِيقٍ مَعَ بَعْضِ الْإِخْوَةِ، وَبِهِ مِنَ التَّعَبِ وَالْعَنَتِ مَا اللَّهُ بِهِ عَلِيمٌ، حَتَّى أَنَّ الْأَمْرِيكَانَ شَعَرُوا أَنَّ فِي هَذَا الْبَيْتِ أَحَدًا فَفَتَشُوهُ وَفَتَشُوهُ وَلَمْ يَجِدُوا أَحَدًا، فَأَرَادُوا أَنْ يَرِيحُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَضْرَمُوا فِيهِ النَّارَ ثُمَّ انْسَحَبُوا وَأَطْلَقُوا عَلَيْهِ عِدَّةَ قَذَائِفٍ مِنْ دَبَابَتِهِمْ، فَاشْتَعَلَتِ النَّارُ حَوْلَهُمْ وَأَصَابَتْ قَذِيفَةً جِدَارَ مَخْبَثِهِمْ لَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ؛ فَمَا كَانَ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنْ طَلْقَةٍ فِي الرَّأْسِ لِيُضَيِّعَهُ الْيَوْمَ، فَهُوَ أَهْلُ الْكَرَمِ وَالْجُودِ، يَحْفَظُ عِبَادَهُ مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ وَسُوءٍ.

وَانْتَهَتْ الْحَرْبُ، وَخَرَجَ أَبُو عِزَامٍ مِنْهَا أَصْلَبَ عَوْدًا وَأَصْفَى سَرِيرَةً وَأَكْثَرَ عِزْمًا وَأَمْضَى سَيْفًا وَأَعْقَدَ عِزْمًا عَلَى أَنْ تَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعَلِيَا وَكَلِمَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى، وَفَرَحَ بِمُخْرَجِهِ شَيْخُ الْمُجَاهِدِينَ أَبُو مُصْعَبٍ فَرَحًا شَدِيدًا حَتَّى أَنَّهُ لَمَّا وَصَلَهُ خَبَرُ خُرُوجِهِ مَعَانِيٍّ سَجَدَ لِلَّهِ شُكْرًا وَأَخَذَ يَبْكِي حَتَّى أَشْفَقَ عَلَيْهِ مَنْ حَوْلَهُ.

فَصْلُ أَبِي جَعْفَرٍ الْمَقْدِسِيِّ

وَقَالَ أَبُو حَمْزَةَ: احْتَلَّ أَعْدَاءُ اللَّهِ مَسْتَشْفَى الْفُلُوجَةِ الْعَامَ، فَقُلْتُ لِأَبِي جَعْفَرٍ: أَشَعُرُ أَنَّ نَقْطَةَ الْجَعْفِي - وَهُوَ حَيٌّ مِنْ أَحْيَاءِ الْفُلُوجَةِ - ضَعِيفَةٌ؛ فَادْفَعْ بِمَجْمُوعَةٍ إِلَيْهِ، وَبِالْفِعْلِ انْطَلَقَ أَسْوَدُ التَّوْحِيدِ إِلَى الْجَبْهَةِ، وَبَيْنَمَا هُمْ فِي الطَّرِيقِ إِذَا بِالْعَدُوِّ يَنْدَفِعُ بِقُوَّةٍ مِنْ هَذِهِ النَّقْطَةِ وَعَلَى طَرِيقَةِ رَأْسِ السَّهْمِ، فَانْتَشَرُوا أَمَامَهُ وَقَدْ أَخَذُوا مِنْ بَعْضِ الْبُيُوتِ سَاتِرًا، ثُمَّ شَرَعُوا فِي فَتْحِ الْبُيُوتِ عَلَى بَعْضٍ فَثَقَبُوا الْجُدْرَانَ حَتَّى أَصْبَحَ أَعْضَاءُ الْفَرِيقِ يَتَحَرَّكُونَ مِنْ أَوَّلِ الْخَطِّ إِلَى آخِرِهِ بِحَرِيَّةٍ، وَبَدَأُوا يَتَقَدَّمُونَ لِلنِّزَالِ ثَلَاثَةً ثَلَاثَةً.

وَكَانَ أَبُو جَعْفَرٍ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ قَدْ حُوصِرَ فِي حَيِّ الْأَنْدَلَسِ مَعَ أَسَدِ اللَّهِ الْقَائِدِ

أبي صُهيْبِ اللَّبنَانِيّ والأَسَدِ المِغْوَارِ أبا حفصِ المقدسيّ والذي كان شبه مُعاقٍ؛ لأنَّه كان مُصابًا في رجله، وبدأ أبو جعفرٍ وأصحابُه بحَيِّ الأندلسِ معركةً من أشرسِ المعارك، حتى أَنَّ أبا صهيْبٍ أوشكَ أن يأسَرَ طاقمَ دَبَّابَةٍ أمريكيةٍ لوحده، غيرَ أَنَّ الظرفَ والحالَ لم يُشجِّعاه على ذلك.

ومن عجائبِ الأمورِ أَنَّ الفريقَ الثلاثيَّ (أبا جعفرٍ وأبا صهيْبٍ وأبا حفصٍ) اشتبكوا مع إحدى الهمراتِ من منزلٍ كانوا فيه فدمروها بالكاملٍ وقتلوا مَنْ فيها، ثم أصابَ أبو صهيْبٍ بقاذفتهِ كبَدَ مدرعةٍ كانت بالقربِ منها، وفي ذلك الحين جاءت الدَبَّابَاتُ إلى إخوانهمِ من كلِّ حدبٍ وصوبٍ، وحاصرتِ الفرعَ الذي كان فيه الإخوة، واقتربت دَبَّابَةٌ من البيتِ الذي هم فيه، ثم وجهت مدفعها ناحية البيتِ واستعدَّت الإخوة للموت، وإذا بديكٍ على سطحِ البيتِ يرفعُ رجلَه ويقفُ على الثانيةِ ثم أخذَ يصيحُ، فوالله -والقولُ لأبي جعفرٍ -: "ما وقفَ عن صياحه؛ حتى لكانَ الأمريكيانَ يسوقُهم ملكُ الموتِ! أخذوا يفرُّونَ مِنَ الفرعِ بما فيهم الدَبَّابَةُ التي كانت أمامَ بيتنا حاملينَ قتلاهم وجرحاهم، فسجدنا لله شكرًا".

وبدأت بعضُ المعاركِ الجانبيةِ؛ إلا أنَّ حَيِّ الأندلسِ يكادُ أن يكون الآن مُسيطرًا عليه من قبلِ الأمريكيانِ لأنَّه أولُ الأحياءِ من جهةِ الجسرِ، وكذلك فهو الحيُّ الذي يوجدُ فيه السُّوق، فهو من الأهميةِ بمكانٍ بالنسبةِ لمن يريدُ السَّيطرةَ على المدينة، وفي تلك الأثناءِ كانت المعاركُ بالجهةِ المقابلةِ في حَيِّ نَزَّال، وقد فقدَ الجميعُ القائدَ أبا ناصرٍ الليبيِّ، فقلتُ: اللهمَّ أجِرني في مصيبتِي واخلف لي خيرًا منها.

وأرادَ أبو جعفرٍ وأخوَاهُ العبورَ إلينا إلا أنَّ أبا حفصِ المقدسيّ رفضَ ذلك وقالَ: "لا بُدَّ من عبورِ الشَّارعِ العامِّ، وهو ملغمٌ بالدَبَّابَاتِ"، وكانت نقطة عبورنا أمامَ الدَبَّابَةِ لا تتجاوزُ المئةَ مترًا.

وبينما هم في صمتٍ يُفَكِّرون إذا بأبي جعفرٍ يقول لأبي حفصٍ: "أسمع؟"، قال: "نعم، ولكن قل لي بالله عليك أنت ماذا تسمع؟"، قال أبو جعفرٍ: "أسمع صهيلَ خيولٍ"، فقال أبو حفصٍ: "والله إني لأسمع وقعَ أقدامها على الأرض"، وقطعوا الطريقَ ولم يطلق العدو عليهم طلقةً واحدةً، فسبحانَ مَنْ أعمى عنهم العيونَ وسترَهم بستره بعدما أسمعهم كرامته.

وفجأةً رأيتُ القائدَ أبا حفصٍ والقائدَ أبا صهيبٍ أمامي فسجدتُ لله شكرًا وقلت: "سبحانَ الله فقدنا واحدًا ورزقنا باثنين"، وعلى الفور أُسِنِدَتِ إلى أبي جعفرٍ قيادةُ الجبهةِ الشرقية، وأُسِنِدَتِ إلى أبي صهيبٍ قيادةُ الجبهةِ الغربية، وأُسِنِدَتِ قَبْلَ ذَلِكَ قيادةُ المقدمةِ إلى أبي أحمدَ الأنصاري.

وبعدَ طولٍ معاركٍ وقصفٍ عنيفٍ بكلِّ أنواعِ الأسلحة طالَ كلٌّ شبرٍ من نقاطِ الجبهة؛ اقتحمَ العدو الخطوطَ الأماميةَ في ليلةٍ سوداءٍ مستخدمًا المناظيرَ الليلية، وتسندُهُ في كلِّ ذلكِ القاصفةُ (سي ١٣٠) جَوًّا، حيث كانت تقصفُ كلَّ من يحاولُ التصدي، فكانوا يروننا ولا نراهم؛ لأنَّ طائراتَ الاستطلاعِ كانت تطيرُ بسمائنا بكثافةٍ لدرجةٍ أنَّه كانت تُوجدُ لكلِّ دبَّابةٍ طائرةٌ استطلاعٍ صغيرةٍ جدًا أمامها نسميها نحنُ "التَّسر" لشبهها به.

اقتحمَ العدوُ الجبهةَ، وفي صباحِ اليومِ الثاني بدأنا حربَ شوارعٍ ضروسًا، وفي لحظةٍ من تلكِ اللحظاتِ حملَ القائدُ البطلُ أبو جعفرٍ قاذفةً وتقدمَ إلى وسطِ أحدِ الأفرعِ، وبينما هو يسدُّ إلى العدوِّ القاذفةَ أمطره عدوُّ الله بوابلٍ من مدفعِ دبَّابةٍ عيار (٣٢ ملم) فأصيبَ عضدُ أبي جعفرٍ، فجاءَ إلينا متبسّمًا قائلاً: "لم أتمكنَ للأسف من ضربِ القذيفة" ووالله ما تأوّه! وكشفنا ثيابه -عفوًا مزقناها- فهالني منظرُ الضربةِ، كنتُ أستطيعُ أن أضعَ قبضةَ يدي في حفرةِ الجرحِ! فأغمضتُ عيني وتنحيْتُ جانبًا تاركًا لإخواني القيامَ بمعالجته.

وأسدل الليل ستاره، وأطبق صمت رهيب على أماكن تجمعات الشباب، وتحجمت الحركة إلا ما شدّ ونذر، وبدأ الإخوة يضعون الحراسات، وبالطبع لم يضعوا اسم أبي جعفر، فقال: "والله لا أشكو شيئاً، أستطيع أن أحمل السلاح بيد واحدة" ثم قال: "انظروا وكذلك أسدّد"، وكان أبو جعفر مفتول العضلات وحبّاه الله بوافر من الصّحة تماماً كوفرة أخلاقه وشجاعته.

فتعجبت -يعلم الله- من عزمته وقوّه بأسه وشكيمته لنفسه وعدوّه ومصابرته الآلام كما هي الأحران، وفي تلك الليلة كانت حراستي معه، وأشهد بالله أنه كان لا يدعني أخرج إلى الطريق لأتحسّس أيّ صوت غريب أو إنارة شاردة، بل كان يحميني بنفسه ويعزّ عليّ ذلك، على الرّغم من مرور ساعات قليلة على جرح ثقيل.

وسبحان الله؛ لم يكن عندنا بالطبع دواء ولا غيره، إلا أننا وجدنا في بعض البيوت بقايا عسل نحل، فجعل أحد الإخوة (وهو الأخ الدكتور أبو الغادية) ينظّف جرحه ويضع عليه قليلاً جداً من العسل، واستمرّ العلاج لمدة أسبوعين، بعدها فوجئ الجميع أن أبا جعفر برئ من جرحه! بل والله رأيت لحم عضده ينمو مكان الجرح بصفة يومية ملحوظة، حتى ليُخيّل إليك كأنّ أحداً يأتي بقطع اللحم ويضعها في الجرح الغائر، والذي يحتاج إلى أشهر طويلة، ولكن التأم في أيام قليلة، فسبحان الله.

ومضت المعركة وبدأت الأحزان تهبّ علينا، وكان أبو جعفر لا يعرف الحزن وليس له بصاحب، بل هو المبتسم دائماً، يزيل الهم بمجرد رؤيته، ومضت المعارك قويّةً ضروساً وانتشر الإخوة في مجموعات قتالية، وانحاز أبو جعفر مع مجموعة ولكنهم حوصروا من كلّ حدب وصوب، وتفرق الإخوة في البيوت وأراد أبو جعفر أن يلحق ببعض إخوانه، بينما هو أفلت بأعجوبة من قصف بيت خرج منه

كَأَنَّهُ لَتَوَّه خَرَجَ مِنَ الْقَبْرِ، وَقَدْ وَجَدَ أَمَامَهُ مَمْرًا صَغِيرًا بَيْنَ بَيْتَيْنِ فَاَنْدَفَعَ فِيهِ، وَلَمَّا تَوَسَّطَ الْمَمْرَ إِذَا بِجَنْدِيٍّ أَمْرِيكِيٍّ يُصَوِّبُ رَشَاشَهُ مِنْ سَطْحِ الْبَيْتِ: قِفْ قِفْ، فَتَوَقَّفَ الْأَسَدُ وَنَظَرَ فَوْقَهُ فَإِذَا بَعْدُو اللَّهِ يُصَوِّبُ عَلَيْهِ رَشَاشَهُ، وَبِخْفَةِ الْبَرْقِ اسْتَلْقَى عَلَى ظَهْرِهِ ثُمَّ أَمْطَرَ عَدُوَّ اللَّهِ بِوَابِلٍ مِنْ رَشَاشِهِ فَوَقَعَ عَلَى ظَهْرِهِ، ثُمَّ اَنْدَفَعَ أَبُو جَعْفَرٍ بِسُرْعَةِ الْبَرْقِ إِلَى دَاخِلِ الْبَيْتِ وَلَا يَدْرِي هَلْ قُتِلَ عَدُوُّ اللَّهِ أَمْ لَا، وَفِي دَاخِلِ الْبَيْتِ وَجَدَ مَجْمُوعَةً مِنَ الْإِخْوَةِ بَيْنَهُمُ الْأَخُ مُحَمَّدَ جَاسِمَ الْعِيسَاوِيِّ، وَإِذَا بِالْبَيْتِ يُحَاصِرُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، وَتَنْطَلِقُ مَكْبَرَاتُ الصَّوْتِ أَنْ سَلِمُوا أَنْفُسَكُمْ أَنْتُمْ مُحَاصِرُونَ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، لَا مَفْرَّ، هِيََا اَخْرَجُوا.

وَلَمْ يَخْرُجِ الْإِخْوَةُ، وَبَعْدَ ثَوَانٍ مَعْدُودَةٍ أَمْطَرَ الْبَيْتُ بِوَابِلٍ مِنْ مِدْفَعِ (الْبَكْتَا) ثُمَّ قَذَافُ الدَّبَابَةِ حَتَّى لَمْ يَبْقَ عَلَى ظَنِّهِمْ ذُو نَفْسٍ إِلَّا وَقَضَى، وَاقْتَحَمَ عَبَّادُ الصَّلِيبِ الْبَيْتَ ثُمَّ دَخَلُوا إِلَى إِحْدَى الْغُرَفِ فَوَجَدُوا الْأَبْطَالَ بَانْتَظَارِهِمْ، حَيْثُ أَمْطَرُوهُمْ بِوَابِلٍ مِنْ رَشَاشَتِهِمْ، فَخَرَجَ عَبَّادُ الصَّلِيبِ يَهْرَعُونَ تَارِكِينَ وَرَاءَهُمْ ثَلَاثَةً مِنَ الْقَتْلَى عَدَا مَا سَحَبُوهُ مِنَ الْجَرْحَى، وَعِنْدَهَا بَدَأَتِ الْمَدْفَعَةُ تَدُكُ الْبَيْتَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَاسْتَمَرُّوا عَلَى ذَلِكَ فَتْرَةً يَرْمُونَ الْبَيْتَ بِكُلِّ مَا يَسْتَطِيعُونَ، وَلَمَّا اِطْمَأْأَنُّوا أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ يَقِينًا أَنْ يَبْقَى أَحَدٌ حَيًّا دَخَلُوا إِلَى الْبَيْتِ عَلَى وَجَلٍ، وَإِذَا بَلِيُوثُ الْجِهَادِ يَمْطَرُونَهُمْ بِوَابِلٍ مِنَ الرِّصَاصِ، لَكِنْ هَذِهِ الْمَرَّةُ مِنْ سَائِرِ الْغُرَفِ وَمِنْ الطَّابَقِ الْعُلُويِّ -عَفَّوْا بَقَايَا الطَّابَقِ الْعُلُويِّ- وَهَرُولَ عَبَّادِ الصَّلِيبِ تَارِكِينَ عَدَدًا مِنَ الْقَتْلَى مَعَ مَا يَحْمِلُهُمْ مِنَ الْجَرْحَى، ثُمَّ أَخَذُوا يَقْصِفُونَ الْبَيْتَ مَرَّةً أُخْرَى مِنْ كُلِّ حَدْبٍ وَصُوبٍ، وَلَمَّا اِطْمَأْأَنُّوا أَيْضًا إِلَى النَتِيجَةِ الْحَتْمِيَّةِ لِهَذَا الرِّكَامِ مِنَ التَّرَابِ وَإِنَّهُ حَتْمًا لَا أَحْيَاءَ احْتَاطُوا فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ فَجَآؤُوا مِنْ أَعْلَى -أَيَّ مِنَ السَّطْحِ- وَبَدَأُوا بِالْقَاءِ الْقَنَابِلِ بِكَثْرَةٍ دَاخِلَ سَطْحِ الْبَيْتِ وَفِي الْغُرْفِ، فَوَقَعَتْ إِحْدَى الْقَنَابِلِ بَيْنَ يَدَيِ مُحَمَّدَ جَاسِمٍ فَفَقَدَ بَصَرَهُ فِي الْحَالِ، وَوَقَعَتْ أُخْرَى بَيْنَ قَدَمِي الشَّهِيدِ الْأَسَدِ سَامِي

الشرجي فُقُطِعَتْ قدماهُ، ورأى أبو جعفر المنظرَ فخرجَ إلى عُبَادِ الصَّلَيبِ يصلِّيهم برشاشه، ولكنَّهُ ولمزيدِ البلاءِ توقفَ رشاشُهُ فجأةً وحُشِرَتْ فيه إطلاقُهُ، وكان أبو جعفر على خلافِ الإخوة يحملُ (إم ١٦) الأمريكي؛ بينما عامَّةُ المجاهدينَ سلاحُهم (الكلاشنكوف) الروسي، وسَمِعَ محمد جاسم أنَّ سلاحَ أبي جعفر قد توقفَ، فتحسَّسَ سلاحَهُ ونادى أبا جعفرٍ أنْ خُذَ سلاحي ولا تجعلهم يقتربونَ مِنَّا فأبني لا أرى شيئاً، فتناولَ الأسدُ سلاحَ أخيه وبدأ يُسَطِّرُ ملحمةَ البطولةِ، وما زالَ بهم حتى رَدَّهم عن البيتِ، ثم رفعَ أبو جعفر قَدَمَي سامي الشَّرْجي إلى بعضِ الزُّكَّامِ وبدأتِ الدماءُ تنهارُ غزيرةً من الأَخَوَيْنِ وبدأتِ الدُّمُوعُ معهم أغزُرُ وأشدُّ، فلم يطقَ الأسدُ المنظرَ فأخذَ رشاشَهُ واقتحمَ على العدوِّ خارجَ المنزلِ، وبينما هو ينقضُّ عليهم كالأسدِ إذا برصاصِ العدوِّ ينهالُ عليه، فألقى بنفسه بخفةٍ شديدةٍ وكأنَّ مَلَكًا رفعَهُ إلى الجانبِ الآخرِ من الطريقِ! ودخلَ أحدَ البيوتِ، إلا أنَّ أعداءَ الله تركوه ولم يدخلوا عليه واكتفوا بعدةِ قذائف أصابت البيتَ ودمرت واجهته وحطمت ما فيه؛ إلا أنها كانت بردًا وسلامًا على أبي جعفر.

استمرت معركة البيت المذكور آنفًا من التاسعة صباحًا إلى الرابعة عصرًا، وقد كنتُ على مقربةٍ من البيتِ على بعد نحو خمسين مترًا أسمعُ هذا الاشتباكَ ومعِي بعضُ الإخوة، إلا أنني لا أفهمُ ما يدورُ حتى عرفتُ ذلكَ بعدُ من أخي؛ وذلكَ لظروفِ القتالِ والاشتباكِ والذي كان يدورُ من بيتٍ لبيتٍ ومع كلِّ مجموعةٍ على حدة.

نامَ أبو جعفرُ في تلكَ الليلةِ مع أخٍ آخرَ كانَ معه؛ كلاهما أقعدتهما الجروحُ، فقد أُصيبَ أبو جعفرُ في أكثر من عشرة مواضع؛ بالقدمِ والكتفِ وبالقربِ من أماكن خطيرةٍ منها القلبُ، وقد عاجتهُ بنفسِي من هذه الجروحِ -عفوًا كنتُ أمسحُ ما يخرجُ منها من صديدٍ فحسب- وأضعُ عليها بعضَ الملابسِ النظيفةِ

يومياً، وهذا كان تضميده!

وفي تلك الأثناء كان أبو الربيع قد جمع ثلاثة من الشباب على رأسهم الشهيد أبو الزبير وقال: "هيا نبحث عن إخواننا، هيا نفتش المدينة بيتاً بيتاً، نجتمع الإخوة ونساعد الجرحى ولعل الله يجمعنا بأبي الغادية وأبي جعفر وفلان - يعني العبد الفقير -"، وبدأوا رحلة البحث ومضى اليوم الأول بتعبه وكثرة مخاطره ولم يعثروا على أحد، ثم استأنفوا البحث في صباح اليوم الثاني.

وفي نفس اليوم عثروا عليّ وعلى باقي الإخوة؛ إذ كنا قد اجتمعنا جميعاً في منطقة واحدة - أعني نحن أصحاب حي تّزال -، وبالفعل تمّ تقسيم الإخوة إلى مجموعات مرةً أخرى، وكان نصيب أبي جعفر معي وفي مكان ما - الله به عليم -، بدأ أبو جعفر رحلةً أخرى؛ بدأ يحفظ كتاب الله فتعجبت من سرعة حفظه؛ إذ كان يحفظ بسهولة نصف جزء في اليوم وفي وقت قصير! وكان يسمّني يومياً، وأحياناً يزيد رُبْعاً أو رُبْعَيْن.

فَصْلُ عَمَّارٍ وَأُمِّهِ

وقال أبو حمزة: مضت أحداث الفلوجة الثانية تقترب وبدأت العوائل تخرج من الفلوجة، الرجال والنساء على حد سواء، لكن عمّاراً وأمه رفضا ذلك بإصرار عجيب، وكانت أمّ عمار قد رأت رؤيا قبل مقتل زوجها؛ رأت أن زوجها يرزق الشهادة في الشهر التاسع وتلد ولداً، وبالفعل وفي منتصف الشهر التاسع بالضبط قُتل أبو عمار مع إخوانه شهيداً - نحسبه والله حسيبه - وحن وقت ولادة الصغير، وعلى الرغم من ضيق الوضع في الفلوجة وشدة القصف وعنف المواجهات والتي بلغت ذروتها قبل رمضان بأسبوعين إلا أن أمّ عمار رفضت الخروج وقالت: "أموت هنا في أرض الجهاد بين إخواني ولا أخرج"، ولما ذهبت إلى الطيبة تبين

أنها لا بد من فحوصات معينة وقد تضع بعملية قيصرية، ومع الإلحاح والضغط وافقت على الذهاب إلى بغداد، ولكن كانت المفاجأة أنها وبعدها وضعت بثلاثة أيام وفي أثناء نفاسها رجعت المرأة إلى الفلوجة لتُقْبَر كما قالت في الأرض التي عشقها زوجها ومات فيها مع إخوانه المجاهدين، وتطورت الأوضاع إلى حدٍّ كبير وصار القصفُ يطالُ الأسر الآمنة، وبدأت ملامحُ جريمة المحتل تظهر لكل أعمى، وبدأ منظر الأطفال تحت الجدران يصبح مألوفًا، ومع ذلك أصرت المرأة على البقاء، ومع شدة الأزمة خرج الإخوة إلى الجبهة، وكانت الأخت تعيش مع أسرة عراقية مجاهدة، لكن هذه الأسرة أيضًا قررت المغادرة، فقلنا لها: "يا أم عمار لم يبقَ أحد يقوم على شؤونك وأولادك هنا، ووجودك يشكل عبئًا علينا، والله يكتب لك الأجر ويهديك"، فقالت: "الأمرُ لله؛ أخرج، لكن يبقى عمار يقاتل معكم".

وبالفعل بقي عمار مع أعمامه يخدمهم ويحرس ويقا تل معهم، ثم دخلت أحداث الفلوجة الثانية، وحينما كنت في حي نَزَّال أمام جامع الفردوس حيث انتقل إلى الفردوس عدد كبير من الشهداء -نحسبهم كذلك- مرَّ عليَّ عمار يركب سيارة (بيك آب) فسَلَّم، فقلت: "عمار حبيبي أين أنت الآن؟"، قال: "أنا يا عمي مع الهاون عند عمي أبي عمر"، وانطلقت السيارة وهو يتسم ويلوح بيده إليَّ، وكانت آخر ابتسامة أراها من الفتى.

فبعد يومين توقفتُ بالقرب من سيارة (كيا بيك آب) ثم قال صاحبها: "عمار هنا في السيارة"، قلت: "أين؟" -وأُسْقِطَ فؤادي-، قال: "استشهد، ها هو في نهاية السيارة"، فقلت: "إنا لله وإنا إليه راجعون" وأصابني حزن وألم قطع كبدي، ثم ابتعدتُ عن السيارة فلم أستطع أن أنظر إليه، وعَلِمَ اللهُ أني حزنت عليه حزنًا لا يوصف، بل إني لا أبالغ إن قلت إني حزنت عليه أكثر من أبيه بكثير، ولا أدري ما السبب!، هل هي شفقتي على الصبي، أم على أم الصبي التي احتسبت ولدها

وزوجها في سبيل الله مع غربة شديدة، وزاد عليها أنها لا تستطيع أن ترجع إلى أهلها في سوريا لأن العلويين المجرمين وضعوا أمراً بالقبض عليها وسجنوا أخاها عامّاً لأنها خرجت مع زوجها في العراق بعد تعهداتها بعدم السفر، فجمعت من المآسي ما الله به عليم.

فصل أبي حمزة الشامي

قال أبو حمزة: اقتربت من أبي حمزة الشامي أكثر فإذا هو عسكري عبقرى مُحَنِّكٌ، فعجبت كيف أمثالي يكون لهم رأي في الحرب وهذا الكنز ليس فيها، فتم إلحاقه بـ(مجلس الشورى العسكري) وهو مجلس عسكري مُشَكَّلٌ لإعطاء النصائح والتوجيهات اللازمة لإدارة أزمة الفلوجة عسكرياً، وكان سمة شيخنا الصمت إلا إذا سُئِلَ، فإذا تكلم تقطرت خبرته من بين ثناياه، وعلمتُ حقاً أن الرجل يعشق البارود طيباً، ثم دارت رحى الحرب في الفلوجة الثانية، وكان نصيب شيخنا أبي حمزة الشامي إلى جوارى مع زُمرَةٍ مِنَ الْأَشَاوِسِ فِي حَيِّ نَزَالٍ، وَهُنَاكَ كَانَ عَاشِقُ الْقَنَاصَةِ لَا يُفَارِقُ مَحَبَّوْبَتَهُ، فَهِيَ (دراغانوف) روسية الصنع، مِنْظَارُهَا مُصَفَّرٌ جَيِّدًا، يَتَنَقَّلُ بِهَا مِنْ سَطْحٍ إِلَى آخَرَ لَعَلَّهُ يَصْطَادُ جُرْذُونًا مِنَ الْأَمْرِيكَانِ.

ثم اشتدَّت رَحَى الْحَرْبِ أَكْثَرَ وَأَكْثَرَ وَتَمَّ اقْتِحَامُ نَزَالٍ مِنَ قِبَلِ الْعَدُوِّ، فَانْحَزْتُ مَعَ أَبِي حَمْزَةٍ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ فِي الْخَامِسَةِ وَالْخَمْسِينَ مِنَ الْعُمَرِ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يَقْفِزُ مِنْ فَوْقِ الْجُدْرَانِ مِنْ سُورٍ إِلَى سُورٍ وَرَأَيْتُ رَشَاقَتَهُ وَخِفَّتَهُ، فَقُلْتُ: "صَدَقَ الْقَائِلُ: جَوَارِحُ حَفِظْنَاهَا فِي الصِّغَرِ فَحَفِظْتُنَا فِي الْكِبَرِ".

وَإِلَيْكَ يَا أَخِي لَقِطَةً مِنْ لَقَطَاتِ الْعِزِّ وَالْجِهَادِ مَعَ شَيْخِنَا؛ فَقَدْ انْحَازَ هُوَ وَمَجْمُوعَةٌ مِنَ الْإِخْوَةِ إِلَى أَحَدِ الْبُيُوتِ حَسَبِ الْخُطَّةِ الْمَرْسُومَةِ لَذَلِكَ، وَكَانُوا بِالطَّابِقِ الثَّانِي، وَاتَّفَقَ هُوَ وَأَبُو جَعْفَرٍ عَلَى أَمْرٍ؛ أَنَّهُ إِذَا دَخَلَ الْأَمْرِيكَانُ يُفْتِشُونَ

الْبَيْتَ لَا يَرْمِي كُلُّ الْإِخْوَةِ لَسَبِينَ؛ الْأَوَّلَ حَتَّى لَا تُسْتَهْلَكَ كَمِيَّةٌ كَبِيرَةٌ مِنْ الذَّخِيرَةِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا الْمُنَاسِبِ، وَالثَّانِي حَتَّى لَا يَرْمِيَ الْإِخْوَةُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا؛ وَخَاصَّةً إِذَا تَقَدَّمَ الْمُجَاهِدُونَ نَحْوَ الْعَدُوِّ.

وَلَمْ يَنْتَهَوْا بَعْدُ مِنْ كَلَامِهِمْ، حَتَّى جَاءَ الْأَمْرِيكَانُ إِلَى هَذَا الْبَيْتِ وَصَعَدَ جُنْدِيٌّ إِلَى الطَّابِقِ الْعُلَوِيِّ لِتَفْتِيْشِهِ يَتَّبِعُهُ قِطْعَانُ الْجُرْذَانِ، فَمَا إِنْ رَأَى أَبُو حَمْزَةَ عَدُوَّ اللَّهِ حَتَّى أَمَطَرَهُ بِوَابِلٍ سَقَطَ إِثْرُهَا أَمَامَهُ كَأَنَّهُ عُذْرَةٌ سَقَطَتْ فِي بَيْتٍ، ثُمَّ تَقَدَّمَ هُوَ وَأَبُو جَعْفَرٍ وَأَمَطَرُوا قِطْعَ الْجُرْذَانِ خَلْفَهُ بِوَابِلٍ مِنَ الرِّصَاصِ فَفَرُّوا بِجِرَاحِهِمْ، وَلَكِنَّ عَدُوَّ اللَّهِ الْمُقْتُولَ بَقِيَ عِنْدَ الْإِخْوَةِ.

غَنِمَ أَبُو حَمْزَةَ وَالْإِخْوَةُ سِلَاحَهُ وَجُعْبَتَهُ، لَكِنَّ الشَّيْخَ آثَرَ أَبَا جَعْفَرٍ بِالسِّلَاحِ، وَمَضَتْ الْمَعْرَكَةُ فِي هَذَا الْيَوْمِ حَامِيَةً مِنْ بَيْتٍ إِلَى بَيْتٍ، حَتَّى عَلَا شَيْخُنَا أَبُو حَمْزَةَ سَطَحَ أَحَدِ الْبُيُوتِ لِيَعْبُرَ مِنْهُ إِلَى بَيْتٍ آخَرَ، فَكَانَ لِقَاؤُهُ مَعَ قَدَرِ اللَّهِ، حَيْثُ التَّقَطُّهُ قَنَاصُ أَمْرِيكِيٍّ يَحْتَلُّ سَطْحَ بَيْتٍ مُجَاوِرٍ أَعْلَى مِنْهُ فَتَرَجَّلَ الشَّيْخُ فِي الْحَالِ، وَحَزِنَ الْجَمِيعُ لِفَقْدِهِ، فَقَدْ كَانَ أَبُو حَمْزَةَ وَكَانَ، لَكِنَّ الظَّرْفَ وَالْوَقْتَ لَا بِجَالٍ فِيهِ لِلْبُكَاءِ وَلَا الْأَحْزَانِ، فَالْحَرْبُ تَطْحَنُ الشَّبَابَ طَحْنًا، وَمَضَى الشَّبَابُ تَارِكِينَ خَلْفَهُمُ الشَّيْخَ وَالْعُصَّةَ فِي حُلُوقِهِمْ، لَكِنَّ هَذَا كَانَ هَيِّنًا إِذَا قُورِنَ بِمَا الَّذِي نَكْتُ فِي قَلْبِي حُرْقَةً وَحَسْرَةً وَإِلَى يَوْمِنَا هَذَا، وَأَكِيدُ سَتَمُوتَ مَعِي، وَحَتَّى أَحَاجَّ أُمَّتِي بِعُلَمَائِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

فَقَدْ اسْتَقَرَّ بِنَا الْحَالُ فِي بَيْتٍ آخَرَ مَعَ مَجْمُوعَةٍ مِنْ أَفَاضِلِ الْإِخْوَةِ، وَأَرْسَلْنَا الْمُجَاهِدَ أَبَا الزَّيْبِ اللَّيْبِيَّ إِلَى جَسَدِ الشَّيْخِ لِيُحَاوَلَ دَفْنَهَا، لَكِنَّ الرَّجُلَ وَبِشَقِّ الْأَنْفُسِ اسْتَطَاعَ فَقَطْ أَنْ يَتَأَكَّدَ مِنْ وَفَاةِ الشَّيْخِ وَيَأْتِينَا بِبَعْضِ أَغْرَاضِهِ الشَّخْصِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ فِي جَنْبِهِ، عَلَى أَمَلٍ أَنْ نَعُودَ إِلَيْهِ مَرَّةً أُخْرَى رِيثَمَا تَتَحَسَّنُ الْأَحْوَالُ، لَكِنَّهَا سَاءَتْ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، فَقَدْ جَاءَ الْقَنَاصَةُ إِلَى رَأْسِ الْفَرْعِ الَّذِي يَفْصِلُ

بَيْنَ يَتَيْنَا مَعَ دَبَّابَةٍ تَحَصَّنَتْ فِي نَفْسِ الْمِنْطَقَةِ أَيْضًا فَمَا اسْتَطَعْنَا إِلَيْهِ سَبِيلًا، وَمَضَتْ الْأَيَّامُ وَبَدَأَ الْيَهُودُ بِجَمْعِ الْجِثْثِ فَرَمُوا بِجِثَّةِ أَبِي حَمْزَةَ مِنْ أَعْلَى إِلَى أَسْفَلٍ ثُمَّ تَرَكَوهُ عِدَّةَ أَيَّامٍ فِي الشَّارِعِ وَنَحْنُ نَنْظُرُ إِلَيْهِ لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نُوَارِيَ أَخَانَا؛ تَأْكُلُنَا الْحَسْرَةُ وَيَقْطَعُ أَكْبَادُنَا الْأَلَمُ وَنَبْكِي عَلَى مَا آلَتْ إِلَيْهِ الْأَحْوَالُ بِخِذْلَانِ الْأُمَّةِ.

وَقَالَ أَبُو حَمْزَةَ: كُنْتُ أَجْلِسُ فِي أَثْنَاءِ حَرْبِنَا فِي الْفُلُوجَةِ الثَّانِيَةِ مَعَ الشَّيْخِ وَأَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يُحَدِّثَنِي عَنِ الْأَحْدَاثِ فِي حَلَبٍ وَحِمَاةٍ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ سَرَدَهَا لِي مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى مَا قَبْلَ نِهَايَتِهَا، ثُمَّ فِي الْآخِرِ قَالَ لِي: "قَرَأْتُ كِتَابَ التَّجَرِبَةِ السُّورِيَّةَ لِأَبِي مُصْعَبِ السُّورِيِّ؟"، قُلْتُ: "تَقْرِيئًا نَعَمْ، الطَّبْعَةُ الْقَدِيمَةُ الْمَخْتَصِرَةُ قَرَأْتُهَا، أَمَّا الْجَدِيدَةُ فَلَيْسَ كُلُّهَا"، قَالَ: "عُمُومًا، الرَّجُلُ أَنْصَفَ فِي هَذَا الْكِتَابِ، وَخَيْرٌ مَنْ كَتَبَ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ، وَهَذِهِ شَهَادَةٌ شَاهِدٍ عَلَى عَصْرِ الْكِتَابِ".

فَصْلُ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الشَّامِيِّ

قَالَ أَبُو حَمْزَةَ: جَاءَتِ الْفُلُوجَةُ الثَّانِيَةُ، وَأَدْرَكَ الْجَمِيعَ أَنَّ النِّهَايَةَ قَدْ اقْتَرَبَتْ، وَأَنْ رَحْلَةَ الْعَمْرِ أَوْشَكَتْ عَلَى التَّوَقُّفِ، وَأَنْ طَاحُونَةَ الْإِسْتِشْهَادِ لَا بَدَأَ أَنْ تَمُرَّ عَلَى مَا تَبَقَّى مِنَ الْأَسْوَدِ فِي الْفُلُوجَةِ، وَاشْتَعَلَتِ الْحَرْبُ، وَصَبَّ الْحَقْدُ الصَّليْبِي نِيرَانًا الْحَقْدِ وَالْحَسَدِ وَالْبَغْضَاءِ وَتَبَسَّمتِ السَّمَاءُ لِلشُّهَدَاءِ، وَبَدَأَ الْإِخْوَةُ يَرْحَلُونَ وَاحِدًا وَاحِدًا، كُلُّ يُوَدِّعُ رَغْمًا عَنِ الْجَمِيعِ، وَاسْتَمَرَّتْ مَوَاقِبُ الْإِسْتِشْهَادِ تَتَدَفَّقُ كَالسَّيْلِ الْجَارِفِ، وَبَيْنَمَا الْأُمُورُ كَذَلِكَ كَانَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ وَاقِفًا عَلَى حَاقَّةِ الطَّرِيقِ مِنْ جِهَةِ مَطْعَمِ الْحِجِّيِّ حُسَيْنٍ؛ وَزَوْجُ ابْنَتِهِ أَبُو نَاصِرٍ اللَّيْبِيُّ عَلَى الْجِهَةِ الْآخَرِ يَنَادِيهِ: "عَمِّي سَاعِبِر"، وَيَرُدُّ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: "لَا يَا أَبَا نَاصِرِ الدَّبَّابَةُ تَرَاكُمُ"، وَعَبَّرَ أَبُو نَاصِرٍ بِأَتَجَاهُ عَمِّهِ وَفَاضَتْ رَوْحُهُ أَمَامَ عَيْنِهِ وَهُوَ يَقُولُ: "اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ".

وَكُنْتُ عَلَى بَعْدِ مِئَةِ مِثْرٍ مِنَ الْمَوْقِعِ، وَمِنْ بَعِيدٍ رَأَيْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ قَادِمًا عَلَيَّ

يَحْمِلُ قَاذِفَتَهُ وَيَخْطُ بِرِجْلِهِ الْأَرْضَ.

وفي اليوم الثاني كَثَّفَ العدوُّ من رمايته وَرَكَّزَهَا فَأُصِيبَ غَالِبٌ - إن لم يكن كلُّ - مَنْ فِي الْخَطِّ الْأَوَّلِ، وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ طَبِيبٌ أَوْ مُمَرِّضٌ، وَبَيْنَ يَدَيَّ تَرْفَ أَخٍ حَتَّى الْمَوْتِ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

وَعَلَى عَجَلٍ وَقِلَّةِ عِلْمٍ وَحِيلَةٍ تَمَّ تَجْهِيزُ مَكَانٍ خَلْفِيٍّ لِلجُرْحَى، وَطَلَبَ الْإِخْوَةَ مَنْ يَقُومُ عَلَى رِعَايَتِهِمْ، فَطَلَبَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ أَنْ يَذْهَبَ إِلَيْهِمْ، فَقُلْتُ لَهُ: "ابْقَ مَعِيَ لِكِي تَسَاعِدَنِي فَلَيْسَ مَعِيَ أَحَدٌ يَفْهَمُ فِي التَّشْرِيكِ"، قَالَ: "دَعْنِي أَذْهَبُ"، قُلْتُ لَهُ: "تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ، وَلَكِنْ تَأْتِي عِنْدَ الصَّبَاحِ"، قَالَ: "إِنْ شَاءَ اللَّهُ".

وَذَهَبَ أَمَامَ عَيْنِي وَأَنَا أَرْمُقُهُ عِنْدَ مَغِيبِ الشَّمْسِ، وَغَابَتِ الشَّمْسُ وَلَمْ تُعَدِّ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا يَا عَزِيزِي، رَحَلَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مَعَ أَبِي طَارِقِ اللَّيْثِيِّ تَحْتَ جِدَارٍ بَعْدَ قَصْفٍ مَدْفَعِي عَنِيفٍ، كَمَا أَوَدُّ أَنْ أَسْكَبَ أَيْضًا دَمْعَةً عَلَى أَبِي رَيْعِ اللَّيْثِيِّ حَيْثُ ذَهَبَ مَعَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مَعَ الشَّمْسِ، وَعِنْدَمَا ذَهَبَ أَبُو رَيْعٍ وَكَانَ جَرِيحًا فِي ظَهْرِهِ جَاءَ يُقْبِلُنِي بِحَرَارَةٍ وَيَحْضُنُنِي وَيُقْبِلُ رَأْسِي فَقُلْتُ: "عَزِيزِي هِيَ مِئَةُ مِثْرٍ بَعْدَ بَيْتِكَ عَنْ بَيْتِنَا"، قَالَ: "اللَّهُ أَعْلَمُ أُنَلْتَقِي أَمْ لَا"، وَلَمْ نَلْتَقِ، وَلَعَلَّنَا نَلْتَقِي فِي مَكَانٍ آخَرَ فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ.

فِي يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الْفُلُوجَةِ الطَّاحِنَةِ قَصَفَ الْأَمْرِيكَانُ بِعُنفٍ حَيَّ الصَّنَاعَةَ، فَأُصِيبَ عَلَى إِثْرِ ذَلِكَ الْقَصْفِ أَحَدُ الْإِخْوَةِ الْعَرَبِ فِي رَأْسِهِ وَتَمَّ نَقْلُهُ إِلَى مَسْتَشْفَى الْفُلُوجَةِ، لَكِنِ الْمَسْتَشْفَى قَالَتْ إِنَّهَا لَا حِيلَةَ لَهَا بِهِ، وَيَجِبُ نَقْلُهُ إِلَى مَسْتَشْفَى الْحَمَلَةِ الْعَصَبِيَّةِ بِبَغْدَادٍ - وَهُوَ مَسْتَشْفَى يَسِيرُ عَلَيْهِ الرَّافِضَةُ وَيَقَعُ بِالْقُرْبِ مِنْ وَزَارَةِ الدَّخِيلَةِ -، فَتَمَّ نَقْلُ الْأَخِ وَتَبَرَّعَ بِالذَّهَابِ مَعَهُ أَحَدُ أَفْضَلِ الْإِخْوَةِ الْأَنْصَارِ وَأَكْثَرِهِمْ حُبًّا وَخِدْمَةً لِلْمُجَاهِدِينَ وَهُوَ الْأَخُ إِبْرَاهِيمُ الْعِيسَاوِيُّ - وَكَانَ ضَابِطَ شُرْطَةِ تَابِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَبَقِيَ مَعَ الْإِخْوَةِ - وَفِي الْمَسْتَشْفَى وَتَحْتَ تَأْثِيرِ الْبَنْجِ تَكَلَّمَ

الأخُ فبانَ من لهجته أنه من الجزيرة، وعلى الفور طار الخبر في المستشفى، وفي تلك الأثناء قال لي الأخُ الشهيدُ أنه يريد أن يذهب ليطمئنَّ عليه، فقلتُ له: "يا أخي المستشفى خطر، وبغدادُ وَضْعُهَا خطر"، قال: "لا بدَّ من الاطمئنان على الأخ وإذا ما كانَ يحتاجُ لشيءٍ"، المهمُّ أنه أصرَّ على الذهاب، وذهب إلى المستشفى حاملاً معه أكياس الطعام والشراب يُعْذُّ الخُطى لرؤية أخيه، لكنه وجدَ الرّوافض في انتظاره، وعلى وجه السُّرعة جاءت السُّرطة المنتشرة أصلاً في جوانب المستشفى كامنة لمن يأتي من الإخوة.

فَصْلُ أَبِي نَاصِرِ اللَّيْبِيِّ

قال أبو حمزة: وَمَضَتِ المعاركُ ضاريةً وخاصَّةً قبل موعد الفلُّوجة الثانية بشهرٍ أو شهرين، فتم تنظيم الحماية للمدينة وتوزيع الكتائب لحماية مداخلها، فأُسِنِدَتِ الصناعة للقائد عبد العزيز، وجبيل للقائد أبي ياسر، والعسكريُّ للقائد أبي عُبيدة رحمه الله، والشُّهداء للقائد أبي عبد الله التونسي، وأخيراً وأهم النِّقاط "الجولان" للقائد الشَّهيد أبي ناصر، وحتى لا أُطِيل؛ قام الشَّهيد بترتيب مجموعته على قدر المستطاع إلا أنَّ هذه الكتيبة كانت أحدث الكتائب تشكيلاً والتحق بها معظم الإخوة الجُدد من قليلي الخبرة، وفجأة دَقَّ ناقوسُ الخطر واشتعلت نيرانُ الحرب وبدأت الفلوجة الثانية، وَحَدَثَ الاختراق المعروف للجبهة من جهة "الجغيفي" النقطة الوحيدة من الجبهة التي تركناها لغيرنا، والحقُّ يُقَال؛ إِنَّهُمْ أَيْضًا مَا قَصَّروا ولكن هذا جُهدهم والله يعفو عَنَّا وعنهم.

دَخَلَ العدوُّ وحاصرَ الجولان وانتشر القناصة فجأةً خلف ظهور الإخوة وسيطروا على كافة الطرق والتقاطعات حتى مآذن المساجد، وتقدموا من جهة الشَّط، وقاتل أبو ناصر قتال الأبطال وبدأت اللُّيُوث تتساقط، فهذا أبو العيناء أمير نقطة الشَّاطي شهيداً، يتبعُه جاسم ابن عم عمر حديد، ثم عبد الستار أخوه

وغيرهم وغيرهم، وازدادت الجراحُ في الإخوة وبدأت الدماءُ تنزف، ولم يبقَ مكانٌ آمنٌ في ذلك الوقت إلا القسم الجنوبي من المدينة، فقام أبو ناصر وأبو همام الليثي - رحمة الله عليهما - بعملية بطوليّة أدهشت الجميع.

وضع أبو ناصر الجرحى في سيّارته (بيك آب) وقال لأبي همام: "تَوَلَّ أنت أمرَ القيادة وسنحاول تجاوز الشوارع والتقاطعات"؛ والتي ملأها الدبابات والقناصة، وكانت الخطة أن يتقدم أبو ناصر ويفتح خطًّا كثيفًا من النار باتجاه الدبابة من خلال ال(بي كي سي) وفي تلك اللحظة يعبر أبو همام بالسيارة، وبالفعل تمّ تنفيذ الخطة وتجاوز الإخوان أكثر من عشرة شوارع وتقاطعات.

ووصلَ إليّ أبو ناصر في حي نَزَال ففرحتُ بنجاته ومن معه، وفي تلك الليلة بُتُ وإيَّاه وأبو همام في بيتٍ واحدٍ مُظلم لا ماء فيه، فأشعلتُ ضوء كشافي لأرى أبا ناصر وأبا همام كأنهما قمرين طلعا وسط هذا الظلام وتعجبتُ لسرّ هذا الجمال المفاجئ، وقد تعلمتُ وخبرتُ أن الأخ إذا حانَ وقت استشهاده جَمَلَ خُلُقُهُ ونَصَرَ وجهُهُ وصار في النَّاس شامة، فبدا لي الأَخوان في تلك الليلة كذلك فاقشعرَّ جسدي وقلت في نفسي: "اللهُ غالبٌ".

ورمى حبيبي جسده على الفراش واستلقيتُ حذاءه وكان متعبًا جدًّا، وهنا قال لي: "أمي قالت لي مثلاً؛ قالت أمُّ لابنها الفقير: يا بني لا تأكل إلا العَسَل ولا تنم إلا على الحرير. فقال لها: يا أمي كيف ذلك وأنا فقير؟! قالت له: لا تأكل إلا وأنت جائعٌ، ولا تنم إلا وأنت متعبٌ".

وأصبح الصباح وتم تشكيل سرية اقتحام من النصف الجنوبي للنصف الشمالي وعيَّنتُ عليها أبا ناصر أميرًا، وقال له أبو عزام -تقبله الله-: "أرجو من الله أن تصلي الظُّهرَ في جامع أبي عبيدة، والعصرَ في الفاروق" -يعني تفتح الجزء الشمالي حتى تلك النقاط- وكان ذلك ضربًا من الخيال، وسُبْحان الله صَلَّى أبو ناصر

الظهر في أبي عبيدة والعصر في الفاروق، إلا أَنَّ جَرِيحًا جُرِحَ عنده فوضَعَهُ في سيارته وعاد لكي يضعه عندنا في مأمن، وكان الحاجز بيننا شارع الحاج حسين أو الشَّارِع الذي يربطُ بين الجسر الجديد والجسر السَّريع.

فوقف على الحاجز الآخر وقال: "أريدُ أن أعبرَ إليكم"، فقال له الأخ عبد الهادي: "لقد عبرتَ عدَّةَ مرات هذا اليوم والدَّبَابَات انتبَهِت إليك، وأخاف عليك فلا تعبر"، فقال: "عندي جريح سيموت، والله الموفق"، فتقدَّم أبو هَمَّام يقودُ السيارة وفتح أبو ناصر نارَ الـ(بي كي سي) على الدبابة كالعادة، وقبل أن يصل إلى الجهة الأخرى بمترين استقرت قذيفة دبابة في السيارة فاستشهد أبو هَمَّام في الحال وقُطِعَت قدم أبو ناصر فأخذ يكبِّرُ ثم تَشَهَّدَ وانتقل إلى رحمة الله أمام عين عمِّه أبي عبد الله الشَّامي، ومن العجائب التي تُحكى -وليُعلم النَّاس أن الله هو الحافظ- نجا الجريح وقُتِلَ حاملوه، حيث نزلَ من السَّيارة بسرعة وزحفَ إلينا، ونجا من الموت بأعجوبة، والله قَادِرٌ غَالِبٌ حَكِيمٌ، فأصاب الجميع همٌّ وغمٌّ لا يعلمُ به إلا الله، حيث فقدت المدينة في أحلك المواقف أهمَّ وأجراً قادتها.

ولا أظنك يا أخي الكريم نسيتَ أختيك؛ أهل أبي عبد الله، وابنته زوجة أبي ناصر، وكيف كان وقع الحال على المرأة وابنتها، فالأم فَقَدَت زوجها في بلاد لا عمَّ ولا خال ولا أخ ولا حتى مأوى يأمنون فيه، فَقَدَ تَفَضَّلَ عليهم وعلى زوجتي أختُ كريم وأجلسهم في بيته إلا أنه لفرط خوفه عليهم دهنَ الرُّجَاج باللَّون الأسود وأغلق عليهم جميع المنافذ حتى لا يخرج أي صوت إلى الخارج، وكان الخبر قد خرج مع مَنْ خرج من الفلوجة أن أبا عبد الله حيٌّ يُرزق وأنه خرج جريحًا إلى منطقة الصقلاوية، وأن العبد لله قُتِلَ شهيدًا أو أُنِّي ما زلت مفقودًا، وجلست أمُّ عبد الله وابنتها يُصَبِّرَان أهلي.

وفجأة خرجتُ من الفلوجة بعد حرب السَّبعين يومًا، وفوجئ الجميع

بوجودي حيًّا وباستشهاد أبي عبد الله وزوج ابنته، بقي عليّ وأنا مجروح في صاحبي أن أخبر زوجته الغريبة المختبئة وابنتها بنأ الشَّهيدَيْنِ، وفعلتُ وما أردتُ، وَحَدَّثَ مَا تَوَقَّعْتُ، فَقَدْ بَكَتِ الْبِنْتُ عَلَى حَدَاثَةِ سِنِّهَا عَلَى زَوْجِهَا حَتَّى قَطَّعَتْ أَكْبَادِي؛ فَهِيَ ابْنَتِي وَأَعْرَفَهَا جَيِّدًا قَبْلَ الْحِجَابِ، وَلَمْ أُسْتَطِعْ مَعَهَا حَلًّا إِلَّا أَنْ أَدْعُو اللَّهَ لَهَا وَلِأُمَّهَا وَكَافَةِ أَخَوَاتِهَا أَنْ يَحْفَظَهُمْ مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ وَسُوءٍ، وَأَنْ يُعِيدَ عَنْهُمْ مَكْرَ الْأَعْدَاءِ وَمَكْرَ الْجَوَاسِيسِ، وَلِلْعَلَمِ فَهَمَّا الْآنَ فِي مَأْمِنٍ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ قَدْ ذَهَبَ عَنْهُمْ بَعْضَ مَا وَجَدُوا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى النَّسِيَانِ وَلُطْفِ اللَّهِ بَعْبَادِهِ.

فصل حَوَادِثَ مُتَفَرِّقَةٍ

حِرْصُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ

قال الزرقاوي: أثناء أحداث المعركة الثانية التي جرت في الفلوجة، قام الإخوة بختف ابن عم العميل إياد علاوي مع زوجته وابنه، في محاولة لردع الخائن علاوي من خلال الضغط عليه بهؤلاء الرهائن، وإن أَصَرَّتْ قوات الاحتلال الصليبي وأعوانهم على الاستمرار في قتل الأطفال والنساء في الفلوجة عاملناهم بالمثل وقتلنا أقاربه، ولكن عندما تبين أنه ليس هناك أدنى علاقة بين الخائن علاوي وابن عمه؛ ولم يكن له أي مشاركة فعلية مع قوات الاحتلال الصليبي، ما كان من الإخوة إلا أن بالغوا في الإحسان إليهم، ثم قاموا بالإفراج عنهم.

شِدَّةُ الْبَلَاءِ

قال الزرقاوي: حدثني الشيخ أبو عزام -رحمه الله تعالى وتقبله في الشهداء- في معركة الفلوجة الثانية أنه من شدة الخوف والبلاء الذي نزل على المجاهدين كان نبض أبي عزام -وأشار بيده إلى عنقه- وقال: "والله إني كنت أشعر بأن قلبي ارتفع إلى حنجرتي"، وهذا مصداق قوله عز وجل: (وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ)، لقد رأينا الآية على حقيقتها.

قال أبو حمزة: إننا في الفلوجة أكلنا أوراق الشجر، وبُلْنَا الدَّمَّ من شدة العطش، كما مات كثير من إخواننا من شدة العطش.

وقال أبو حمزة: وعلى العكس؛ بدا الصديق لنا مخذلاً والمحِبُّ مبغضاً^{٦٨} إلى حد كبير جداً، حتى قال أحد أمراء هذه الجيوش الإسلامية للشيخ أبي الليث عندما سمعوا خبر بدء معركة الفلوجة الثانية حيث رآه الشيخ أبو الليث غير آبه ولا مهتم

^{٦٨} في الأصل مبسطا.

يضحك وينشد، قال: "كأن الفلوجة لم تبدأ بها الإبادة! أو ما تسمع؟"، فكان الردُّ كالصاعقة والحقْدُ كالسم، قال: "اسمع يا أخي، الفلوجة انتصرت مشكلة، وانهزمت مشكلة"، فقال له أبو الليث: "انتصرت مشكلة؟! والله لا أجلس معك في بيت ولا يظلنا سقف واحد، ووجهي من وجهك حرام يا أيها الشيخ السلفي"، وخرج من بيته الساعة الحادية عشرة ليلاً.

وقال أبو حمزة: تم تأمير الشيخ أبي عزام أميراً عامّاً على الفلوجة وقائداً للمهاجرين والأنصار، وبدأت الحرب، ونزل معها البلاء كالسيل الجارف ولاحت فتناً كقطع الليل المظلم، وبدأ الحصار يشتد على فرسان الجهاد فْقُطِعَت المياه ونَفِدَ الطعام وقُصِفَت المستشفيات، وبدأت الدماء تسير أنهاراً ودموعنا تسيل معها دماءً، وبدأ الفرسان يرحلون عنا واحداً تلو الآخر، وبدأ منظر الجرحى يقطع الأكباد، فلا دواء ولا ماء ولا أطباء ولا شيء على الإطلاق.

أذكر أنّ أحد الأحاب أقدم شاكي السلاح على عدوّه فرجع بطلقة في رأسه واحتضنته وبدأ ينزف بين يديّ ساعتين يشتكي إلى الله ظلم الأمة وخذلان الصديق، ودموعه تختلط بدمائه وآهاته تُبكي الكفور، ولا يجدي بكائي له شيئاً حتى مات بين يديّ شاهداً على ظلم الأمة وخذلان بني الجلدة، وإلى الله المشتكى.

وقال أبو حمزة: بقي الشهيد عقيل المصري في الفلوجة إلى أن جاءت معارك الفلوجة الثانية، حيث حطّ معها البلاء حطّاً على عقيل ومن معه، حتى أنهم أووا إلى بيت فإذا بالقناصة تصعد على سطح المنزل، وإذا بأعداء الله يتخذونه مقرّاً لهم، وقد علموا هذا من خلال أخٍ معهم كان يجيد الإنجليزية ويترجم لهم كلّ ما يقولون، فأصابهم ضيق شديد، واستمرّ الحال إلى أن بلغ بهم العطش كلّ مبلغ واجتهدوا في الدعاء، فصرف الله عنهم أعداء الله وتحولوا من هذا البيت إلى آخر، وخرجوا يبحثون عن الماء من منزل إلى آخر حتى رزقهم الله به بعد شدّة شديدة

وَقَحِطُ، أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَكْتُبَهُ لَهُمْ فِي مِيزَانِ حَسَنَاتِهِمْ.

قال أبو عبد الملك: أنور بن نجيب الشعري (أبو حسن الصنعاني) وصل العراق بين الفلوجتين، ولما انتظم في مفارز القتال دهمته ملحمة الفلوجة الثانية، فكان من أهلها الثابتين الذين قَدَّرَ الله لهم الحياة، حيثُ وقع أسيرًا لدى الصليبيين، وقضى في مُعتقلاتهم ما يزيدُ على العامين حتى استقرَّ في سجن (بادوش) في الموصل.

خَبَايَا الْمَعْرَكَةِ

قال الزرقاوي: انكشفت الخطوط الخلفية لأعداء الجهاد في هذه المعركة، فقد برزت فيها مشاركات عسكرية عدة لصفوف خلفية معادية؛ فقد اتضح مشاركة ثمانئة جندي إسرائيلي في المعركة، وقد رافقهم ثمانية عشر حاخامًا قضى الكثير منهم كما تناقلت ذلك صحفهم ووسائل إعلامهم، كما ظهرت مشاركة أردنية عسكرية من قِبَل ضباط أردنيين شاركوا في التخطيط والاقتحام العسكري للمدينة، وذلك يدل على تحقق الجميع من أنَّ الفلوجة هي قاعدة جهادية تؤرق ليل أعداء الدين من الكفار والمرتدين.

ثَبَاتُ الْأُمَرَاءِ فِي الْمَعْرَكَةِ

قال الزرقاوي: ويجدر بنا في هذا المقام أن نشيد بثبات مجاهديننا الأبطال، وأن نذكر طرفًا بسيطًا من نعم الله عز وجل عليهم من الكرامات واللطائف الربانية التي حقَّتهم في معركتهم مع الأمريكان وأعوانهم في الفلوجة، فكانت تثبيتًا لهم وجبرًا لحالهم، ومنها؛ أنه في اليوم الثالث من المعركة وبعد قصف شديد وعنيف لأحياء الفلوجة استيقظ المجاهدون من ليلهم فرأوا الآليات والدبابات الأمريكية في الشوارع والطرق والأفرع، فبرز لهم سادات أهل الإسلام في المعمة بقيادة الأخ

أبي عزام وعمر حديد وأبي ناصر الليبي وأبي الحارث (محمد جاسم العيساوي) وغيرهم وغيرهم من الأبطال، فطردوا الغزاة إلى أطراف الفلوجة، وكان سلاحهم في المعركة (البيكا والكلاشنكوف).

وقد حصل للأمريكان مقتلة عظيمة كبيرة، حتى أن كثيرًا منهم كانوا قد فروا من المعركة واختبأوا في بعض بيوتات المسلمين، وكان المجاهدون يتحرّجون بدايةً من اقتحام تلك البيوت خوفًا على المسلمين، ولمّا تأكدوا من وجود الجنود الأمريكيين دخلوها فوجدوهم خائسين مختبئين، فجعلوا يقتلونهم قتل الخنافس والذباب، والله الفضل والمنة.

وبعد أيام من المعركة؛ عرض أحد القادة على الأخ عمر حديد والأخ أبي الحارث (محمد جاسم العيساوي) أن يخلقوا لحاهم ويخرجوا من الفلوجة -بعد أن يسّر لهم طريقًا آمنًا للنجاة- ويبدأوا بالعمل من الخارج، فرفض البطلان وقالوا: "والله لا نخرج ما دام في المدينة مهاجرٌ واحدٌ ثابت"، فقاتلا حتى استشهدا رحمهما الله تعالى وتقبلهما في عباده الشهداء.

خَارِجُ الْمَعْرَكَةِ

قال أبو عبد الأعلى: لمّا اشتعلت معارك الفلوجة الثانية، كان عبد الله الصالح (أبو حسين اليوسفية) خارجها يشتعل معها حماسةً ويتحرّق شوقًا، لا ينام الليل ولا يهدأ بالنهار، وهمّه أن ينصّر إخوته ويحيل الأرض تحت أقدام العدو جحيماً، فكانت له في هذا القصصُ الكثيرة يتربص للعدوّ ليلاً على الخطّ السريع، وينصب العبوات ويجهز المفخخات، ويرسل قنابر الهاون، ويبحث على إطلاق الصواريخ.

سمع يوماً أن أحد المجاهدين من مجموعة أخرى عنده صواريخ مخبّأة كثيرة، فأسرع إليه يذكّره بالله وأنّ الزمان زمانٌ تضحية ونُصرة وعملٌ دؤوب، فالإخوة

في الفلوجة بأمرٍ الحاجة إلى عمل يخفف عنهم الحصار، وما زال به حتى ردَّ عليه الآخرُ بأنه لا يستطيع أن يعطيه شيئاً حتى يستأذن، فردَّ عليه أبو حسين -والهمُّ والحزنُ يملآن قلبه-: "إن كنتَ كاذباً فليُعَامَلْكَ اللهُ بما تستحقُّ".

وما هي إلا أيامٌ حتى جاء الأمريكيان وفجَّروا لهذا الشخص مئتي صاروخ كان يحتفظ بها، فعلم الرجلُ أن ذلك ما كان إلا بجريرة ذنبه فاستغفر الله وتاب إليه، ونحسبُ أنه قد حَسُنَتْ توبتهُ وندم على فعله.

فَصْلٌ فِي كَرَامَاتِ الْمُجَاهِدِينَ فِي الْمَعْرَكَةِ

قال الزرقاوي: بعض الإخوة قد قاسوا الجوع أيامًا عديدة، وبعد رجاءٍ وحسن يقين بالله عز وجل عثروا على بطيخة كبيرة، فلمَّا فتحوها إذا بها حمراء كأحسن ما تكون، فأكلوا منها أيامًا يشبعون ويحمدون ويتعجبون، حتى جزموا أنهم لم يتذوقوا طيب مأكلاها في الدنيا، ومعلوم أن البطيخ ليس هذا أوانه ومكانه الذي يعرف به.

ومنها أيضًا: أن الإخوة قد عانوا الكثير من مأكلاهم ومشربهم، حتى أنهم فقدوا مياه الشرب وشحَّت لديهم شحًّا عظيمًا، فأخذتِ الفطورُ تنبت على أفواههم وشفاههم، ولما همُّوا بالبحث عن بضع قطرات من الماء تروي شيئًا من أجوافهم العطشى دخلوا بيتًا فوجدوا فيه ثلاث قِرب من الماء قد اصطفت بجانب بعضها على نمط غريب، فلما رأوها تعجبوا! إذ لم يُعهد في الفلوجة ولا في العراق أن يُرى الماء موضوعًا في مثل هذه القِرب الجميلة الغريبة، فلمَّا تذوقوا الماء علموا أنه ليس من ماء الدنيا، فشربوا حتى ارتووا، ويقسمون بعدها أنهم لم يشربوا مثله في هذه الحياة الدنيا.

ومنها أيضًا: أن أحًا من جزيرة محمد ﷺ قد أصيب في دماغه بطلقة قناص فدخلت من جبهته وخرجت من قفاه، فتناثرت أشلاء دماغه على كتفه الأيمن، فهرع إخوانه إليه وأخذوا ما تناثر من الأشلاء وضموها إلى مكانها ثم ربطوا مكان إصابته وتركوه، وقد تعافى بعدها بأيام، وهو حيُّ الآن ما به من بأس إلا أن لسانه صار به بعض الثقل، نسأل الله أن يتقبل منه ومن إخوانه.

وأما عن روائح المسك فقد أصبحت من قبيل النقل المتواتر عند جمهور المجاهدين، فقد حدَّث الكثير من إخواننا عن الروائح الطيبة التي تنبعث من

الشهداء والجرحى تقبلهم الله جميعاً، ومن ذلك ما جرى للأخ البطل أبي طلحة البيحاني؛ فقد أصيب رحمه الله إصابةً بليغةً وجعلت رائحته الطيبة تفوح في كل مكان، حتى انتشرت ببعض الطرقات واشتمَّها كثير من الإخوة ثم قضى شهيداً نحسبه والله حسيبه ولا نركيه على الله، ومما يبعث على الثبات والطمأنينة؛ ما رواه كثير ممن حضر تلك الملاحمة من أنهم سمعوا صهيل الخيول وصليل السيوف تشتبك عند احتدام المعارك واشتدادها، فتعجَّب الإخوة من ذلك مراراً، وراحوا يسألون إخوانهم الأنصار إن كان هناك خيولٌ قريبة من الفلوجة، فجزم الأنصارُ بالنفي وأكدوا أن المنطقة لا يوجد فيها مثل هذه الخيول، فله الحمد أولاً وآخرًا.

قال أبو جعفر المقدسي: أردتُ في منتصفِ الليل أن أذهبَ إلى الخلاء، وبينما أنا أهُمُّ بالجلوسِ لحاجتي سقطتُ وقد أُغميَ عليّ، وما يشعرُ بي صاحبي لشدةِ آلامه أيضاً، ثم فُقتُ بعدَ نحو ساعتين، وما هو إلا قليلٌ حتى أُغميَ عليّ أيضاً، ثم فُقتُ وزحفتُ إلى صاحبي، وبينما نحنُ في شدةِ الآلامِ وضراوةِ الجروحِ قلتُ له: "لا بُدَّ أن نغادرَ هذا البيتَ وهذا الفرعَ إلى الفرعِ المقابل"، فتحاملنا حتى دخلنا إلى بيتٍ آخر، وبدأنا نشعرُ بعطشٍ شديدٍ أنا وصاحبي، وعبثاً فتَّشنا عن ماءٍ لنشربه فلم نجد، فتمتُّ وصاحبي ننتظرُ الموتَ وما شككنا في رحمةِ ربِّ العالمين، وفجأةً استيقظنا من النومِ فإذا بقربةِ ماءٍ ليست معلومةً لنا! كما أنَّها لا تستخدمُ للشربِ في هذه المنطقة، فأسرعنا إليها وشربنا منها، فما شككنا أنَّها من الله وأَنَّها من السماء.

وقال أبو جعفر: نظرنا غيرَ بعيدٍ فإذا ببطيخةٍ طازجةٍ كأنَّها لتوها قد جيءَ بها من الزَّرْعِ تلمعُ بخضارها ونضارتها! فأسرعنا إليها حبواً وفتحناها، يقول أبو جعفر: "فوالله ما ذقتُ قطُّاً أطيبَ ولا أجملَ، ولا يمكنُ أن أصفَ حلاوتها وطيبَ مذاقها"، وكذلك ما شككنا أنَّها من الله، إذ إنَّ الوقتَ ليس وقتُ حصادِ البطيخِ

وَأُنِّي لِلْبَطِيخِ الْآنَ؟ وَحَتَّى لَوْ كَانَ ذَلِكَ مَتَى جَاءَتْ إِلَى هُنَا وَقَدْ مَضَى شَهْرٌ وَنِصْفُ الشَّهْرِ عَلَى خُرُوجِ كُلِّ الْعَوَائِلِ وَهَذِهِ خُضْرَاءُ يَانَعَةٌ؟، فَحَمَدُوا اللَّهَ وَسَجَدُوا لَهُ شُكْرًا وَبَقُوا عَلَى رِعَايَةِ اللَّهِ الْمَتَّانِ.

قال أبو حمزة: دَلَفَ الْإِخْوَةُ إِلَى سَاحَةِ أَحَدِ الْمَنَازِلِ، وَكَعَادَتِهِمْ إِذَا دَخَلُوا أَيَّ مَنْزِلٍ سَلَّمُوا عَلَى مَنْ فِيهِ بِسُرْعَةٍ ثُمَّ صَاحُوا بِأَسْمَاءِ الثَّلَاثَةِ الْمَعْنِيِّينَ؛ وَلَأَنَّ الْجَمِيعَ يَعْرِفُهُمْ فَهُوَ أَجْدَى لَخُرُوجِ الْإِخْوَةِ إِذَا سَمِعُوا مَنْ يَذْكُرُ أَسْمَاءَهُمْ، وَبِالْفَعْلِ عَثَرُوا عَلَى أَبِي جَعْفَرٍ فِي كَنْفِ اللَّهِ يَأْكُلُ الْبَطِيخَ وَيَشْرَبُ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ.

قال أبو جعفر الأنصاري: مَرَّةً كُنَّا جَالِسِينَ فِي إِحْدَى الْمُضَافَاتِ، فَتَكَلَّمَ الْأَخُ أَبُو الْغَادِيَةِ -تَقْبَلَهُ اللَّهُ- وَقَالَ: "كُنَّا نَرَابِطُ فِي أَحَدِ الْبُيُوتِ لَيْلًا فِي مَعْرَكَةِ الْفُلُوجَةِ الثَّانِيَةِ، وَسَمِعْنَا صَوْتًا فَقُلْنَا: يَبْدُو أَنَّهُ إِنْزَالٌ لِلْأَمْرِيكَانِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَبَعْدَهَا سَمِعْنَا صَوْتًا فِي الشَّارِعِ، فَنَظَرْنَا فَلَمْ نَسْمَعْ إِلَّا صَوْتَ خَيُْولٍ تَرَكُضُ بِاتِّجَاهِ الْأَمْرِيكَانِ، وَنَشَبَتْ بَعْدَهَا مَعْرَكَةٌ قَوِيَّةٌ!".

وقال أبو جعفر: وَأَخْبَرَنِي الْأَخُ أَبُو صَفَا الْعِيسَاوِيِّ -تَقْبَلَهُ اللَّهُ- بِهَذِهِ الْقِصَّةِ، فَقَالَ: "كُنَّا فِي أَحَدِ أَحْيَاءِ الْفُلُوجَةِ، وَالْحَيُّ الْمُقَابِلُ لَنَا سَاقِطٌ عَسْكَرِيًّا لَا نَدْخُلُهُ لَا نَحْنُ وَلَا الْأَمْرِيكَانِ، وَفِي اللَّيْلِ بَدَأَتْ الْمَعَارِكُ الْعَنِيفَةُ بَيْنَنَا غَيْرَ أَنَّنَا فِي الصَّبَاحِ وَجَدْنَا أَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ آلِيَةً لِلْأَمْرِيكَانِ مُحْتَرَقَةً!", فَسَبَّحَانَ اللَّهَ.

وقال: وَذَكَرَ لِي أَيْضًا الْأَخُ أَبُو الْغَادِيَةِ أَنَّهُمْ دَخَلُوا بَيْتًا فِي أَحَدِ أَحْيَاءِ الْفُلُوجَةِ وَإِذَا بِالْأَمْرِيكَانِ يَدْخُلُونَ ذَاتَ الْبَيْتِ بَعْدَهُمْ! وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا بِوُجُودِ الْإِخْوَةِ، يَقُولُ الْأَخُ: "فَجَلَسْنَا تَحْتَ الدَّرَجِ -وَكَانَ عَلَيْهِ سِتَارٌ خَفِيفٌ جَدًّا- وَلَمْ نَتِمَكَّنْ مِنَ الْخُرُوجِ، وَالْأَمْرِيكَانِ يَدْخُلُونَ وَيُخْرِجُونَ أَمَامَنَا وَلَا يَرُونَنَا! وَالْعَجِيبُ أَنَّنَا رَحْنَا نَضْحَكَ ضَحْكَاتٍ مَكْتُومَةً جَمِيعًا، وَلَا نَدْرِي سَبَبَ هَجُومِ الضَّحْكِ عَلَيْنَا هَكَذَا

مع أن الموقف غير مناسب! لقد كنا مطمئنين جداً بفضل الله، وإن كان العطش قد آذانا كون الأمريكان -قاتلهم الله- ضربوا كل خزانات الماء في البيوت، فقلت للإخوة: هيا لنصلي صلاة الاستسقاء. وفعلاً شرعنا في الصلاة، وإذا بالمطر ينهمر أثناءها! وتمكّن أخ من الخروج بفضل الله ووجد خزاناً صغيراً بجوار البيت فوضعه أسفل ميزاب الماء، والحمد لله امتلأ وبدأنا نشرب منه، ثم خرج الأمريكان من البيت دون أن يؤذونا، بل دون حتى أن يرونا!".

فَصْلٌ فِي نِهَايَةِ الْفُلُوجَةِ الثَّانِيَةِ

قال أبو حمزة: استقرَّ المقامُ بأبي جعفرٍ في المنطقةِ الغربيةِ التي يسيطرُ عليها مجاهدو القاعدة حيثُ حرَّروها مدينةً مدينةً، وكانت منها القائمُ (محطةُ العبورِ) كما كان يُسمِّيها الأمريكان، فشنَّ العدوُّ هُجُومًا عليها أسماه عمليةً (قرنِ الثورِ) وأراد أن يخرقَ بالقرنِ سياجًا من صلابةِ الإيمانِ بمكان، فردَّ اللهُ كيدهُ في نحره، وكان أبو جعفر آنذاك مَسْئُولَ الإخوةِ العسكريِّ، فأمرَ بإخراجِ الإخوةِ من منافذِ أُعدت سلفًا لذلك، وبقي هو في قلَّةٍ قليلةٍ يقاتلُ حتى الموت؛ حتى لا يأخذَ أعداءُ اللهِ المدينةَ لقمةً سائغةً، ومرت أيامُ الحربِ وفي كلِّ يومٍ يزدادُ العدوُّ خسارةً وانكسارًا، ويزدادُ الإخوةُ في أسبابِ السَّماءِ، وفي لحظةٍ من لحظاتِ الضَّيقِ وقسوتهِ اجتمعَ جندُ الإيمانِ واستشاروا أبا جعفرٍ في تركِ المدينة، فكان قوله: "واللهُ ثُمَّ واللهِ ساعاتٌ ويوليُّ العدوُّ الدُّبْرَ"، وكان ذلك يومَ الجمعة، وبالفعلِ أرادَ العدوُّ أن يقتحمَ نقطةَ مهمةً فانفجرت دَبَابَةٌ لَهُ بفعلِ لغمينِ وُضعا على نعمةٍ واحدةٍ في نفسِ المكانِ، إلا أنَّ عبوةً واحدةً فقط انفجرت وأصابت هدفها وظنَّ الإخوةُ أنَّ العبوتين انفجرتا، ولما جاءت الدَبَابَةُ الثانيةُ لحملِ جثثٍ وأشلَاءٍ أُخِثَتْها المتناثرةُ الخائبةُ الخاسرةُ عبثَ أحدِ الإخوةِ بجهازِ التفجيرِ مازحًا مع مَنْ بجواره فقال: "أضغط؟ يمكن يا ولد عندي كرامة"، فضَحِكَ الجميعُ، وضغطَ فإذا بالكرامةِ تنطلقُ لتفجيرِ العبوةِ الثانيةِ بدقَّةٍ في قلبِ الدَبَابَةِ!، فهلَّلَ الإخوةُ وكَبَّرُوا، وتركَ العدوُّ أشلاءهُ وانصرفَ، وظنَّ الإخوةُ أنَّه سيعاودُ الدخولَ مِنْ مكانٍ آخرَ، وابتوا ليلتهم راغبينَ إلى اللهِ طامعينَ في فضلهِ، وفي الصَّبَاحِ نَظَرَ الإخوةُ فإذا بالعدوِّ ينسحبُ تاركًا بعضَ أغراضِهِ وأشلائه معلنًا للعالمِ أنَّ عمليةَ رأسِ الثَّورِ -أو قرنِ الثَّورِ- نجحت وحقَّقت أهدافها!.

روى تركي البنعلي عن العدناني: أبو محمد العدناني آخرُ مَنْ انسحب من



مدينة الفلوجة في معركة الفلوجة الثانية مع الشيخ أبي حمزة المهاجر وأبي الغادية
وأبي الربيع وأبي جعفر المقدسي وأبي عاصم الأردني.

فَصْلٌ فِي بَعْضِ الْحَوَادِثِ بَعْدَ الْمَعْرَكَةِ الثَّانِيَةِ

أبو عمر البغدادي: إِنَّ أَهْلَ الْفُلُوجَةِ تَعَرَّضُوا لِحَالَةٍ قَمِعَ مِنْعَتُهُمْ حَتَّى مِنْ تَسْيِيرِ مَظَاهِرَةٍ تَنْدِيدٍ بِمَنْ اغْتَصَبَ عَرَضَهُمْ وَهَتَكَ كِرَامَتَهُمْ وَنَشَرَ ذَلِكَ عَلَى الْمَلَأِ، فَعَقِبَ مَعَارِكُ الْفُلُوجَةِ الثَّانِيَةِ كَتَبَ الْجُنُودُ الرَّاغِبَةُ عَلَى جُدْرَانِ الْمَدِينَةِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ: "اليوم دياركم وغداً أعراضكم"، وبالفعل نَقَذَ الْمُجُوسُ وَعَدَّهُمْ، وَلَكِنْ بِيَدِ عَمَلَائِهِمْ مِنْ شُرَطَةِ الْحَزْبِ الْإِسْلَامِيِّ وَجِبْهَةِ التَّوَافُقِ.

هل هذه بِحَقِّ هِيَ الْمَدِينَةُ الَّتِي رَفَعَتْ رَايَةَ الْجِهَادِ وَسَطَّرَتْ أَرْوَغَ أَمْثَلَةِ الْفِدَاءِ وَالْبَطُولَةِ وَلَمْ تَرْضَخْ لِجَبْرُوتِ الْمُحْتَلِّ الصَّلِيبِيِّ وَعَمَلَائِهِ؟! هل هذه الْمَدِينَةُ الَّتِي امْتَزَجَتْ فِيهَا دِمَاءُ الشَّهَدَاءِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ؟!

تَدْوِينُ الْمَعْرَكَةِ

قال أبو حمزة: فِي أَحْدَاثِ الْفُلُوجَةِ الثَّانِيَةِ طَلَبَ مِنِّي أَخِي وَشَيْخِي الْحَبِيبُ أَبُو مَصْعَبٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- أَنْ لَا أَدْعَ الْوَرَقَةَ وَالْقَلَمَ، فَكُنْتُ أَسْجِلُ شِعْرِي وَمِشَاعِرِي، حَتَّى اشْتَدَّ الْخُطْبُ، وَكُنْتُ أَقْفُزُ مِنْ بَيْتٍ لِبَيْتٍ وَأَضْعُ دَفْطَرِي إِلَى جَانِبِ مَخْزَنِ، حَتَّى حَوَصِرْتُ فِي أَحَدِ الْبُيُوتِ وَأَيَقَنْتُ بِالْهَلَاكِ وَلَمْ أَشْكُ فِي ذَلِكَ، فَأَبْصَرْتُ عَجُوزًا -كَانَ لَهَا فَضْلٌ كَبِيرٌ عَلَيَّ- فَقُلْتُ لَهَا: "يَا أُمِّي هَذَا مَالِي هُوَ لَكَ، وَهَذَا الدَّفْطَرُ حَافِلِي إِيصَالَهُ إِلَى إِخْوَانِي فَإِنَّهُ عِنْدِي لَا يَقْدَرُ بِمَالٍ"، وَكُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَصَلَ إِلَى ابْنِي وَلَعَلَّهُ يَقْرَأَهُ بَعْدَمَا يَكْبُرُ فَيَعْرِفُ مَا كَانَ عَلَيْهِ أَبُوهُ فَلَا يَحِيدُ، وَلَعَلَّهُ يَتَّعِظُ، لَكِنْ ضَاعَ الدَّفْطَرُ.

قال العدناني: طَلَبَ مِنَّا الشَّيْخُ أَبُو مَصْعَبٍ الزَّرْقَاوِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ- تَدْوِينَ أَحْدَاثِهَا لِلتَّارِيخِ وَشَهَادَاتِنَا عَلَيْهَا، وَقَدْ يَسَّرَ اللَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- لِي نَظْمَ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ فِي سَجْنِ (كُرُوبَر)، أَذْكَرُ فِيهَا بَعْضَ الْأَحْدَاثِ وَمَا رَأَيْتُهُ وَعَشْتُهُ فِيهَا،



وَقَدْ قُتِلَ جَمِيعُ الْقَادَةِ الَّذِينَ شَهِدُوهَا وَعَايَنُوا أَحْدَاثَهَا، وَلَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنْهُمْ كَتَبَ شَيْئًا عَنْهَا، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

فَصْلٌ فِي أَقْوَالِ الْأَمْرَاءِ فِي مَعْرَكَةِ الْفُلُوجَةِ الثَّانِيَةِ

قال الزرقاوي: أحييت المعركة من جديد معاني العزة والكرامة والإباء، وأيقنت الأمة أن هناك ثلة من أبنائها قادرون على مواجهة الأخطار الكالحة بكلِّ جرأة وثبات وعزيمة، وأنَّ هذه الثلة صدقت مع أمتها في خططها ومشاريعها التي أعدتها لانبعاث الأمة من جديد، وبذلت من أجل ذلك كثيراً من دمائها أبنائها وقادتها، تعلمت الأمة -وهي في ذلتها وانكسارها- أنها تستطيع أن تواجه وترابط وتعارك أسياذ الأرض وطغاتها بعصاة قليلة من أبنائها، وبعناد خفيف من السلاح. تستطيع أن تلحق بالعدو خسائر جسيمة أليمة وتجبره على تجرُّع كأس الهزيمة المرِّ.

فتحت الفلوجة أرض المعركة على مصراعيها، فألهمت هم أبناء الإسلام داخل العراق وخارجه، ودفعت بدمائها الطاهرة التي أريقَت على أرضها بالكثير من أبناء الإسلام لينهضوا بتكاليف الجهاد وينفروا للتصدي للحملة الصليبية العالمية، فاشتعلت المعارك والملاحم في أنحاء متفرقة من أرض العراق، وتشكلت الكتائب والمجاميع، وانبرى المجاهدون يتلقَّفون أرتال العدو ويصطادون دورياته ويغيرون على مواقعه، وقد شهدنا بفضل الله خسائره الكثيرة التي تكبدها على أرض العراق كلها، فكان من مفاخر هذا الفتح أنْ تَعُظَّمَ نفوسُ أبناء الجهاد وتنهارَ أمامها أساطير الآلات الحربية الحديثة، فهَمَّهم الآن قد تحررت من أوهام العجز والخوف وانطلقت إلى ميادين الجِدِّ والعمل.

أحرزت معركة الفلوجة نصراً عسكرياً استراتيجياً مهماً، فالجميع على دراية بتفوق الآلة العسكرية الأمريكية وتطور جيوشها ونظامها الحربي الذي يعتمد على ضرب الأهداف عن بُعد دون التحام واشتباك، والذي يفترض أن يؤمِّن سلامة الجندي الأمريكي دون أن يُستهلك في معارك خطيرة تكلفه روحه، ولكن الفلوجة استدرجت هذه الآلة الضخمة -وفق خطة مدبرة- إلى حرب شوارع قاسية غير

منتظمة تستنزف جهدها وطاقتها وعتادها، وأصبح الجندي الأمريكي يواجه الموت والهلاك من حيث لا يحتسب، وأرغم الأمريكيان على النزول إلى الأزقة والشوارع والدخول إلى البيوت والأبنية، فانكشف العدو لنيران المجاهدين وكمائنهم وفجأته قدرتهم على المناورة والكرّ والفرّ، واضطر لخوض معارك قريبة لم يعهدها تكبّد فيها خسائر عظيمة في الأرواح والآليات تزيد على المئات والعشرات، تجرعت الإدارة العسكرية الأمريكية الهزيمة النفسية الكبرى؛ فقد بدا واضحاً لعراقي هذه الحرب ومخططيها أن المجاهدين لا يوقفهم أي نوع من أنواع الردع، ولو كلف ذلك خوض حرب إبادة شاملة يُستأصلون فيها جميعاً، فالعقلية الجهادية أصبحت المعضلة الكبرى أمام خطط الحرب الأمريكية والعالمية، وما حدث في الفلوجة من مفاخر وثباتٍ أوهن نفوس قادة العدو وجلب لهم الكآبة والضجر النفسي والإرباك المعنوي، وما ينتظرهم أدهى وأمر بعون الله تعالى.

أسهمت الفلوجة بثباتها ورباطة جأشها بكشف اللثام عن وجوه الردّة والتّفاف والعمالة، وخلعت ثوب الدّجل الذي تسرّبلت به حكومة (علاوي) المرتدة، وكشفت الزيف الذي تردده من أنها تريد مصلحة العراقيين وتقوم على حقن دمائهم وتجنّيبهم الحروب والويلات وتشقى في كسب رضاهم، ثم يراها الناس كلهم وهي تسارع في إنفاذ قرار الحرب على الفلوجة، وتغمس يديها في دماء أبناء المدينة الطاهرة، وتقتل الآلاف منهم وتشرد عشرات الألوف، وتشرف على عمليات التدمير والتخريب وهدك الأعراض وسلب الأموال تحت اسم محاربة الإرهاب والمصلحة الوطنية.

أسقطت المعركة القناع الزائف عن قبائح السحنة الرافضية الهالكة، فقد أوغلوا بحقدهم في هذه المعركة، وبلّوهم ظاهر شاركوها في الحملة العسكرية على الفلوجة بمباركة من إمام الكفر والزندقة (السيستاني)، وكان لهم طول كبير في

عمليات القتل والنهب والتخريب واستباحة أرواح العُزَّل من الأطفال والنساء والشيوخ، بل استزلتهم نفوسهم الكريهة إلى جرائم عظام، فجعلوا يقتحمون بيوت الله الآمنة ويدنسونها، ويعمدون إلى تعليق صور شيطانهم (السيستاني) على الجدران وَيَخْطُون عليها بحقد: "اليوم أرضكم وغداً عرضكم"، وللعلم فإن (٩٠%) من الحرس الوثني هم من الروافض الحاقدين و(١٠%) هم من قوات (البيشمركة) الكردية.

قال أبو محمد العدناني: لقد انتصر المجاهدون على أمريكا في الفلوجة الثانية؛ وكَبَدُوا خسائرَ فادحة، فَقَتَلُوا رجالها، واستنزفوا أموالها حين استطاعوا أن يجاروها فيها ويقارعوها لأكثر من شهرين، فكانت سبباً مُهِمًّا في إضعاف جيشها وتدمير اقتصادها، وكادت بعد أقل من سنة أن تعلن هزيمتها، ولقد كَتَمُوا وتكَتَّمُوا وعَتَمُوا، ولسوف يَكْشِفُ التاريخُ يوماً حقيقتها، فسلوا أمريكا عن حقيقة الفلوجة الثانية!

قال أسامة بن لادن: أَحْيِيْ أهلك الصابرين في بغداد دار الخلافة وما حولها، وأَحْيِيْ إخواننا المجاهدين المرابطين هناك في بعقوبة وسامراء والموصل وكركوك وتكريت واللطيفية وأخواتها، وبيجي وبلد وباقي المدن والقرى المجاهدة، وأخصُ بالتحية الحارة الأحرار في أرض الأنبار ولا سيما أهل الفلوجة؛ تلك المدينة البطلة الصامدة في وجه الباطل، والتي أبت أن تذلل أو تخضع لزعماء الكفر أجمع، وقد أعطته دروساً في الثبات على المبدأ، وأثبتت له أنَّ قوة الإيمان أعظم من قذائف المدافع والطيران، كما فضحت خداعه وديمقراطيته وأظهرت أنَّه كذاب سَفَّاح، وإلا فما الفرق بين مجزرة الطاغية (صدام) في حلبجة، وبين مجزرة (بوش) في الفلوجة؟

فإن يكن (صدام) قد قتل بضعة آلاف -باسم القومية النتنة- من إخواننا

الأكراد هناك عليهم رحمة الله؛ فإنَّ فرعون العصر قد قُتِلَ في الفلوجة وحدها بضعة آلاف كذلك، وجرح وأعاق أضعاف ذلك، فضلاً عن تهجير وترويع مئات الألوف، وكلُّ ذلك باسم الصليبية المتصهينة المتعطّشة للدماء.

فينبغي على المسلمين أن يعوا حقيقة هذه الحرب جيّداً، فلا يمكن تفسير حصار ودكٍ مدينةٍ بكاملها -سكانها بمئات الألوف- بحجة أنَّ فيها مئات المقاومين إلا أنَّها حرب شاملة على الإسلام وأهله، أرجو الله أن يتقبَّلَ مَنْ قُتِلَ من إخواننا في الشهداء، وأن يَمُنَّ على الجرحى بالشفاء.

ولئن ساءنا ما أصاب أهلنا هناك؛ فقد سرَّنا ذلك الثبات العظيم والآثار الكبيرة التي ترَّتبت عليه، حيث انتشرت روح الجهاد والفداء والعزَّة والإباء في أرجاء العراق كانتشار النار في الهشيم، بل وسرَّت تلك الروح الجهادية الأبية إلى البقية من بلاد المسلمين، وقد خسرت ظنون (بوش) حين أراد أن يقهر ويُذلَّ هذه المدينة المؤمنة، وأن يطمسها من الوجود ويجعلها عبرةً لكل أهل الأرض ممن يرفضون العبودية لأمريكا، ولكن أبى الله لها إلا العزَّة والسؤدد، فصمدت رافعة رأسها رغم أنفه وأهانتها، ودخلت التاريخ من أوسع أبوابه فشرفته، وأصبحت مثلاً للصمود والتصدي في وجه الهمجية الأمريكية، وسارت بذلك الركبان.

وإني عاجزٌ عن وصف أولئك الرجال بما هم أهلٌ له، ولكن أحاول، فالقليل خير من العدم، فله دُرُّ أولئك الأبطال الغرِّ الميامين الذين نُسجوا على منوال النجوم الزاهرة -إخوانهم التسعة عشر- في مقارعة فرعون العصر، ولا أقول إنَّهم رفعوا رأس الأمة الإسلامية فحسب، بل رفعوا رأس البشرية أجمع في زمنٍ سادت العالم ثقافةُ العبيد؛ ثقافةُ الرضا بالذلِّ والخضوع والهوان والخنوع تحت شعار الحكمة والمصلحة والواقعية، رفعوا رأس البشرية في زمنٍ يطأطئ فيه رؤساء العالم رؤوسهم أمام الطاغية عند عتبات البيت الأبيض.

جاء هؤلاء العمالقةُ الأباةُ الشُّعْتُ الغيْرُ الأتقياءُ الأخفياءُ - أحسبهم واللهِ حسيبهم - مرتفعين عن بهارج الدنيا وزخارفها، متعلِّقين بموعود الله، كافرين بعبادة البشر للبشر واتخاذ بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله عبْرَ ما يُسمَّى بالشرعية الدولية أو النظام العالمي الجديد والأنظمة التي تدور في فلكه.

جاؤوا لينقضوا حجرَ الزاوية في ذلك النظام الظالم القائم على تطبيق القرارات الظالمة لمجلس الأمن وقوانين هيئة الأمم على الشعوب المستضعفة، تلك الهيئة الملحدة التي تقنن العلاقة بين سادة (الفتوة) وعلى رأسهم أمريكا وبين عبيد الجمعية العمومية، ثمَّ تتحدَّث كذبًا وزورًا عن العدل والمساواة والحرية.

لقد ثبت هؤلاء الرجال العظام في الفلوجة في وجه الطاغية الذي جاء أشْرًا وبطْرًا يستعرض فتكَ قذائف المدافع وتدميرَ قنابل الطيران على المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، ثم يدَّعي حمل راية الحرية والإنسانية.

ثبتوا في وجهه رغم قلَّة العدد وضعف العدد، حاسري الرؤوس عاريي الصدور، ولكن في قلوبهم يقين تزول الجبال الرواسي ولا يزول - أحسبهم والله حسيبهم -، هذا اليقين هو الذي تجذَّر في قلوب أجدادنا رضي الله عنهم؛ فأزالوا به حضارة الصليبيين الفاسدة من بلادنا من قبل وهزموهم بفضل الله، ونحن اليوم متمسِّكون به وسنهمهم بإيماننا بإذن الله.

ثَبَّتُوا لِيُثَبَّتُوا للعالم أجمع معنى الإيمان الحق، ومعنى عزَّة وقوَّة المؤمن المتمسِّك بحبل الله المتين، فسَطَّروا صفحة عزِّ جديدة في تاريخ أُمَّتِنا بدمائهم وأشلائهم.

فَصْلٌ فِي مَا قِيلَ فِي مَعْرَكَةِ الْفُلُوجَةِ الثَّانِيَةِ مِنْ شَعَرٍ

وَقَعَةُ الْفُلُوجَةِ الثَّانِيَةِ

قال أبو محمد العدناني: لقد قرأتُ معاركَ البشرِ على مَرِّ العُصورِ إلَّا ما شاءَ الله، ولم أجد معركةً تشبه معركةَ الفلوجة الثانية؛ من حيث ضراوتها وشِدَّتْها وأهوالها التي دامت سبعين يومًا، رغم التَّفَاوَتِ الشَّاسِعِ فِي الْقُوَى وَالْمَوَازِينِ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ، وقد كانت من المعارك الفاصلة في تاريخ الدولة الإسلامية إن لم يكن في تاريخ الأمة؛ فقد انتقل الجهاد في العراق بعدها نقلةً نوعيةً كبيرةً، أدَّتْ إلى مسكِّ الأرضِ، ومن ثَمَّ إعلان قيام الدولة الإسلامية.

وَمَثَلُ الْفُلُوجَةِ الثَّانِيَةِ فِي تَارِيخِنَا كَمَثَلِ أَحَدٍ فِي فَجْرِ الْإِسْلَامِ، وَإِنِّي لِأَعُدُّهَا مِنْ الْمَعَارِكِ الَّتِي انْتَصَرَ فِيهَا الْمُسْلِمُونَ، وَلَوْ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ وَكَانَ الْأَمْرُ لِي لَخَضْتُهَا مَرَّةً ثَانِيَةً وَبِنَفْسِ التَّكْتِيكِ.

وقد طلب مِنَّا الشَّيْخُ أَبُو مَصْعَبٍ الزَّرْقَاوِيُّ -رحمه الله- تدوينَ أحداثها للتَّاريخِ وشهادتنا عليها، وقد يسَّرَ اللهُ -تبارك وتعالى- لي نظم هذه القصيدة في سجن "كروبر"، أذكر فيها بعض الأحداث وما رأيته وعشسته فيها، وقد قُتِلَ جَمِيعُ الْقَادَةِ الَّذِينَ شَهِدُوا وَعَايَنُوا أَحْدَاثَهَا، وَلَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنْهُمْ كَتَبَ شَيْئًا عَنْهَا، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.



دَهْرًا خَلَا بِرُبُوعِهِ قَلْبِي مَضَى
 طُفْتُ الْقُرَى عِشْتُ الْهَوَى مُتَصِيدًا
 فَلَهَوْتُ يَوْمًا مَعَ لُغُوبٍ^{٦٩} طِفْلَةٍ^{٧٠}
 خَوَانَةٍ يَدٌ لَا مِسٍ لَمْ تُرْجِعْ
 وَيَزِيدُ مِنْ وَلَعِي بِهَا بُغْضِي لَهُمْ
 حَسَاسَةً، مَمْرَاضَةً مِنْ غَبْرَةٍ
 وَبِلَهْفَةٍ عَانَقْتُهَا لَا أَسْتَحِي
 وَحَبَسْتُ أَنْفَاسِي وَقَدْ دَغْدَغْتُهَا
 وَبِرْعَشَةٍ تَهْتَرُ بَيْنَ يَدَيَّ لَا
 وَخَفِيفَةٍ فِي حَمَلِهَا لَمْ تُتْعَبْ
 فَارَقْتُهَا قَسْرًا^{٧١} فَمَا ذُقْتُ السَّعَا...
 زَعُمُوا الْمَحَبَّةَ لِلْحَبِيبِ الْأُولَى
 لَا تَعْجَبَنَّ إِذَا رَأَيْتَ مُتَيِّمًا
 سُبْحَانَ مَنْ جَبَلَ النُّفُوسَ عَلَى الْهَوَى
 فَلَكُمْ تَرَى أَعْمَى هَوَى قِرْدًا^{٧٢} عَوَى
 لَنْ أَعْشَقَنَّ سِوَى الْبَنَادِقِ؛ إِنَّهَا
 بِزَمَانِنَا عَرَبُ الْمَكَارِمِ أَشْرَبُوا

مُتَنَقِّلًا مِنْ زَهْرٍ يَتَخَيَّرُ
 مَعَ كُلِّ دَاهِيَةٍ مَضَيْتُ أَسَافِرُ
 سَوْدَاءَ أَمْرِيكِيَّةٍ كَمْ تَسْجُرُ!
 وَلَقَوْمُهَا كَمْ مِنْ لَظَاهَا فَهَقَرُوا
 مَرْغُوبَةً فَلَكُمْ بِهَا أَتَبَخَّرُ
 عَوْرَاءَ^{٧١} لَكِنْ مِنْ حَذَامِي^{٧٢} أَبْصَرُ
 مِمَّنْ يَرَى وَمُسَمِّيًا وَأَكْبَرُ
 مَعَ غَمَزَةٍ فَشَدْتُ فَرَحْتُ أَكْرَرُ
 وَطَرِي قَضَيْتُ وَلَا انْتَنَتْ، كَمْ تُسَرِّرُ!
 يَقَعُ الْجَبَّانَ لِهَوْلِهَا لَوْ تُشْهَرُ
 ...دَةَ بَعْدَهَا، فَبَكَيْتُهَا أَتَحَسَّرُ
 كَلَّا فَهِيَ أَنَا مِنْ سِوَاهَا مُقْفِرُ
 يَهْوَى لِمَا مِنْهُ النُّفُوسُ تَقْدَرُ
 فَاتَى الْهَوَى يُعْمِي الْقُلُوبَ وَيُسْكَرُ!
 حَتَّى غَدَاً إِنْ بَانَ لَا يَتَصَبَّرُ!
 نِعَمَ الْخَلِيلُ بِغَيْرِهَا لَا مَفْخَرُ
 حُبُّ الْهَوَانِ وَفِي الْمَذَلَّةِ أَبْجُرُوا

^{٦٩} لغوب: لذيدة في العناق.^{٧٠} طفلة: ناعمة.^{٧١} عوراء: لها منظار بعين واحدة.^{٧٢} حذامي: زرقاء اليمامة.^{٧٣} فارقتها قسرًا: في الأسر.^{٧٤} قردًا عوى: مُعْنِيًا مَاجَنًا.



بَاعُوا الْمُرُوءَةَ بِالْإِثْمِ وَارْتَضَوْا
تَرَكَوا الْكِتَابَ وَخَيْرَ هَدْيٍ وَاقْتَفَوْا
خَذَلُوا الْجِهَادَ وَعَنْ يَهُودٍ دَافَعُوا
فِي حِزْبٍ^{٧٥} إِجْرَامٍ وَجَيْشٍ^{٧٦} جُنْدُوا
غَيْرَ الْمَطَايَا لَا أَسْمِيَهُمْ فَهُمْ
فِي أُمِّي أَسَدٌ كَمَا أَصْبَحُوا
لَمْ يَرَكُنُوا لِمَفَاخِرِ الْأَجْدَادِ بَلْ
بِدِمَائِهِمْ يَحْيَا الْجِهَادُ كَأَنَّهُمْ
بِكِتَابِهِمْ ظُلُمَاتٍ عَصْرِي بَدَدُوا
ذِكْرِي لِبَعْضِ رُمُوزِهِمْ مَا ضَرَّهُمْ؛
شَيْخَ الْجِهَادِ أَبَا الشَّهِيدَيْنِ الْأَغْرَ
يَا مَنْ ظَلِمْتَ ارْحَلْ إِلَى الْمَلَأِ عَمَرُ
بَشْتُونُهُ وَالطَّالِبَانِ كَمَا تَنَّا
لَنْ يُخْذَلَ الْإِسْلَامُ لَا مَا دَامَتِ الْ...
أَمَّا أَسَامَةُ وَصَفُهُ أَعْيَى الْقَوَا...
سُرَّ الَّذِي يَوْمًا رَأَى بِسَمَاتِهِ
مَأْوَاهُ كَهَفٌ قُوَّتُهُ تَمُرُّ وَيَجْ...
تَهْتَرُ أَمْرِيكَ وَأُورُبَّا مَتَى

عَيْشَ الْخُنُوعِ وَثَوْبَ عَارٍ جَرَجَرُوا
فَتَوَى بِهَا عَلَمَاءُ سُوءٍ تَاجَرُوا
خَانُوا الْحِمَى وَصَلِبَ غَدْرِ نَاصَرُوا
وَكِتَابٍ^{٧٧} تَحْتَ الصَّلِيبِ تُعْسَكِرُ
ظَهَرَ حِمْلٍ طَغَاهِمَ قَدْ سُخِّرُوا
أَمَلًا لَنَا أَضْوَاءَ عِزٍّ تَظْهَرُ
بِدِمَائِهِمْ صَفَحَاتٍ مَجْدٍ سَطَرُوا
سُحْبٌ أَظَلَّتْ بَعْدَ قَحْطٍ تُمَطِّرُ
بِسُيُوفِهِمْ سِيرَ الصَّحَابَةِ كَرَّرُوا
إِنَّ الْإِلَهَ بِهِمْ عَلِيمٌ يَبْصُرُ
عِزَّ أَمَانَا الدُّنْيَا بِهِ تَتَأَثَّرُ
وَقَفَاتُهُ عَذْلٌ وَرُشْدٌ يَنْدُرُ
قَدْ عَاهَدُوا الرَّحْمَنَ أَنْ لَنْ يَغْدُرُوا
...أَنْفَاسُ فِيهِمْ أَوْ دِمَاءٌ تَقْطُرُ
...فِي حَصْرِهِ فِيهِ الْمَكَارِمُ تُحْصَرُ
فِي وَجْهِ نُورٍ مَعَ حَيَاءٍ يَقْطُرُ
...مِلُّ مَنْ أَتَى وَجْهَهُ زَا مَنْ يَنْصُرُ
يَظْهَرُ مَعَا ضَوْءُ الْخُطُورَةِ أَحْمَرُ

٧٥ حزب الإخوان.

٧٦ الجيش الإسلامي وجيش المجاهدين.

٧٧ كتاب ثورة العشرين.



فَرَقَا مَعًا كِسْرَى وَقِيَصَرُ إِذْ عَمَرُ
عَجَبًا! وَلَكِنْ مِنْ طَوَاغِيَتِ الشَّرَرِ
أَضْحَى ابْنُ لَادِنٍ فَخَرُ أُمْتِنَا أَلَا
أَفْعَانَنَا فِيهِ الْوَقَائِعُ تُذَكِّرُ
لَمْ يَخْلَعُوا لِأَمَانَتِهِمْ^{٧٨} بَعْدَ انْهَرَا...
أَبْرَاجَ كِبَرٍ هَدَّمُوا دَاسُوا الصَّلِي...
فَتَسَارَعَتْ أُمُّ الصَّالِبِ بِحَمَلَةٍ
وَتَقَاسَمُوا^{٧٩}: فَلَنُخِمِدَنَّ جَهَنَّمَ
بِاسْمِ التَّحَرُّرِ قَتَلُوا بِاسْمِ الْحُضَا...
لَا تَرْجِعُوا حَتَّى تَرَوْا رُهْبَانَكُمْ
فَأَتَوْا إِلَى أَفْغَانِنَا بِغُرُورِهِمْ
دَخَلُوا الْعِرَاقَ بِعُنْجُهِتِهِمْ أَتَوْا
عَزَلُوا رَبِيبًا مُخْلِصًا وَتَخَايَلُوا
لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الْكُمَاةَ لِحَرْبِهِمْ
فَتَفَاجَّؤُوا بِبُنَاةٍ مَجْدٍ قَدْ أَتَوْا
ذِكْرِي لِمَنْ عَاشَرْتُ مِنْ أُمَرَائِهِمْ
مَنْ شَامِنَا هَذَا أَبُو أَنَسِ الْأَبِي
فِي الْعِلْمِ بَحْرٌ فِي الْخُرُوبِ مُهَنْدِسٌ
لُبَّانٌ مِنْهُ أَبُو مُحَمَّدٍ الَّذِي

فِي دَوْلَةٍ وَجُيُوشُهُ لَا تَقْهَرُ
فَعَلَامَ إِنْ يُذَكَّرُ أَسَامَةٌ يُذَعَّرُوا؟!
مَنْ كَانَ مِنْهُمْ حَقُّهُمْ أَنْ يَفْخَرُوا
أَقْوَى اتِّحَادٍ مُلْحِدٍ قَدْ بَعَثُوا
... مِ الرُّوسِ أَمْرِيكََا غَزَوْا كَيْ يَدْحَرُوا
... سَبَ فَأَوْجَعُوا فِي عُنُقِهِ كَمْ فَجَّرُوا!
مَسْعُورَةٌ عَنْ وَجْهِهِ حَقْدٌ تُسْفِرُ
فَإَمْضُوا وَعَنْ أَنْيَابٍ غِيْظٍ كَشِّرُوا
... رة هَدَّمُوا بِاسْمِ الصَّدَاقَةِ نَصَرُوا
تُفِي بِمَكَّةَ لِلْحَجِيجِ فَيَسْكُرُوا!
لِقُبُورِهِمْ لِحُتُوفِهِمْ قَدْ جُرْجَرُوا
مِنْ كِبَرِهِمْ بِهَزِيمَةٍ مَا فَكَّرُوا
مُتَبَجِّحِينَ بَأَنَّهُمْ قَدْ سَـيْطَرُوا
مُتَشَوِّقُونَ مُحْتَطُونَ تَحْضَرُوا
بِوَأَسَلٍ عَنْ سَاعِدٍ قَدْ شَمَرُوا
قَدْ مَائِهِمْ مَا ضَرَّ مَنْ لَا يُذَكَّرُ
بِفُكَاةٍ يُنْسِي الْمُصَابَ وَيُسْرِرُ
حَبْرُ الْحَدِيثِ وَفِي السِّيَاسَةِ عَبَقَرُ
فِي صَمْتِهِ رُغْبٌ وَقَارٌ يَظْهَرُ

^{٧٨} اللَّامَةُ: الدَّرْعُ، أَوْ مَطْلَقُ السِّلَاحِ.
^{٧٩} أَي: الْقِسْمُ.



وَمُجَرَّبٌ فِيهِ اللَّيْثُ وَثُتْ تَشَبَّهَتْ
وَأَتَى مِنَ الزَّرْقَاءِ لَيْثٌ غَاضِبٌ
سَيْلٌ تَحْدَرُ مِنْ جَبَالٍ عَقِيدَةٍ
حَارَتْ طُغَاةُ الْعَصْرِ مِنْ ضَرَبَاتِهِ
هُوَ رَايَةٌ جَمَعَتْ كُفَاةَ الدِّينِ بَلْ
مُتَوَاضِعٌ سَكَنَ الْقُلُوبَ بِصِدْقِهِ
وَلَمَنْ رَأَاهُ غَدَا أَسِيرَ وَقَارِهِ
مُتَحَدِّيًا جَاذَ الصَّعَابِ مُذِلَّلًا
خَلَطَ الْمُرُوءَةَ بِالشَّهَامَةِ صَاعِقًا
فِي جَاهِلِيَّةٍ بَعْثَهُمْ مَرَدُّوا عَلَى
بِوَلَائِهِمْ ضَرَبُوا الدُّفُوفَ وَأَتَخَنُوا
فَتَنَّبَهُمْ مِنْ سُكْرِهِمْ فَتَنَّدَمُوا
عُلَمَاءُ إِرْجَاءٍ قَضَوْا فِي نُصْحِهِمْ
مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا فَاعْتَبِرْ
إِنَّ الْمَمْدَفَعَ إِنْ تُخَاطَبَ تَفْحِمَ
وَمَتَى الرَّصَاصُ يُقْعَقِعُ الْأَذَانَ تُصَدِّ...
سَكَبُ الدِّمَاءِ يُزِيلُ أَدْرَانَ الْوَرَى
اللَّهُ أَكْبَرُ! يَا لَبَّاسِ التَّائِبِ...

نَارٌ لَطَى حَتَّى يُزَالَ الْمُنْكَرُ
خَلَعَ الْقُلُوبَ عَدَا يَصُولُ وَيَزَارُ
إِعْصَارُ إِيْمَانٍ وَرِيحُ صَرْصَرُ
أَصْنَانُهَا مِنْ هَوَاهَا تَتَكَسَّرُ
مِرَاةٌ كُلِّ مُجَاهِدٍ لَا أَكْثَرُ
أُمٌّ بِرَأْفَتِهِ وَرَاعٍ يَسْهَرُ
مُتَعَلِّقًا وَيَهَابُهُ مَنْ يَحْضُرُ
فَعْظَائِمُ أَبِي الْمَصَاعِبِ^{٨٠} تَصْغُرُ
بِفَيْلٍ تَوْحِيدٍ رَجَالًا تَنْصُرُ
كُفْرَ الرِّفَاقِ^{٨١} وَكَأْسَ خِزْيٍ عَاقَرُوا
بِمَقَابِرِ طَافُوا الْقُبُورَ وَعَقَّرُوا
وَبَصَفَ تَوْحِيدٍ بَكُوا وَاسْتَغْفَرُوا
دَهْرًا طَوِيلًا وَالْمَعَانِي فَسَّرُوا
إِنَّ الرَّشَادَ بَغِيرِ بَأْسٍ أَبْتَرُ
وَدَوِيَّهَا يُصْحِي النَّيَامَ وَيُسْهَرُ
غِ كَذَا الْعُقُولُ بِزَخِّهِ تَتَنَوَّرُ
وَبِنُضْحِهِ تَرْكُو الْقُلُوبُ وَتَطْهَرُ
... ن! فَأَمَّتِي مِنْ عَزْمِهِمْ تَسْتَبْشِرُ

^{٨٠} أبي المصاعب: هو أبو مصعب الزرقاوي.^{٨١} كُفْرَ الرِّفَاقِ: أي حزب البعث، والمقصود بهذا البيت والأبيات التي تليه هم الضُّبَّاط الذين تابوا والتحقوا بصُفوفِ المجاهدين.



أَبْطَلُنَا فِي أَرْضِ بَابِلَ أَرْغَمُوا
فَجَهَادُنَا فِي أَرْضِهِمْ بَاتَتْ لَهُ
فُلُوجَةُ الْأُولَى أَتَتْ بَذَرَ الْعِرَاقِ...
وَأَقْلُ مِنْ أَلْفٍ فَقَطْ أَبْطَلَهَا
فَتَكَشَّشَتْ وَتَحَطَّمَتْ فِي إِثْرِهَا
بَهْرِيْمَةُ نَكَرَاءَ قَدْ تَرَكُوا الْمَدِيَّةَ...
عَمَدُوا لِقَصْفِ دَامَ سِتَّةَ أَشْهُرٍ
فِي لَيْلَةِ الْإِثْنَيْنِ مِنْ رَمَضَانَ قَدْ
تَارِيخُهَا فِي عَشْرَتَيْنِ وَخَمْسَةِ
مِنْهَا الْأَهَالِي كُلُّهُمْ قَدْ هَجَرُوا
وَمُجَاهِدُونَ مِنَ الْعِرَاقِ بِهَا تَرَى
بَلْ هُمْ أَقْلٌ وَعُدَّةٌ مَحْدُودَةٌ
فِيهَا مَعًا عَاشُوا بِعِزَّةٍ دِينِهِمْ
مَا بِالْكُفِّ بِأَشْأَوْسٍ مُتَشَوِّقَةٍ...
عُشَّاقِ حُورٍ يَرْكُضُونَ لِحَتْفِهِمْ
فَأَتَتْ مَلَا حِمْلَهُمْ يَشِيْبُ لَهَا الْفَتَى
وَمَرَّاحِلُ أَيَّامِهَا هِيَ جَبْهَةٌ
فَبَجْبَهَةِ قُدْرَاتٍ أَمْرِيكَا بَدَتْ
فَعَلَى مَدَارِ الْأَرْبَعِ الْأُولَى مَضَى

أَنْفَ الصَّلِيبِ وَكَسَرَهُ قَدْ بَاشَرُوا
وَقَعَاتُ مَجْدٍ بِالْمَفَاخِرِ تَذْخُرُ
... ق ٨٢، وَحَرْبُهَا دَامَتْ لِشَهْرٍ فَادْكُرُوا
فِي عِدَّةٍ مَحْدُودَةٍ لَا تُذَكِّرُ
أَوْهَامُ أَمْرِيكَا الَّتِي لَا تُقْهَرُ
... نَنَّا أَشْهُرًا وَدُخُولَهَا لَمْ يَجْسُرُوا
وَتَحَشُّدٍ ثُمَّ اقْتِحَامًا بَادَرُوا
بَقِيَتْ لِيَالٍ أَرْبَعٌ لَا أَكْثَرَ
مَعَ أَرْبَعِ مِائَةٍ وَأَلْفٍ حَرَّرُوا
بَقِيَتْ أُلُوفٌ تِسْعَةٌ قَدْ قُدِّرُوا
تِسْعًا مِائِينَ وَمِثْلَهُمْ مَنْ هَاجَرُوا
وَبِمَوْتِهِمْ فِيهَا دِفَاعًا قَرَّرُوا
فَلَأَبَوْا بِغَيْرِ تَرَايَا أَنْ يُقْبَرُوا
... نَ لِرَبِّهِمْ مُتَفَخِّخِينَ تَحْضَرُوا؟!
وَالْمَوْتُ مِنْهُمْ خَائِفٌ يَتَسَتَّرُ
سَبْعُونَ يَوْمًا مِنْ قِتَالٍ يُبْهِرُ
فَشَوَارِعُ فَتَاخُرٍ وَتَسَتَّرُ
سَقَطَ الْقِنَاعُ فَبَانَ عَجْزُ يُسْتَرُ
صَوْتُ الْمَدَافِعِ مَعَ رَصَاصٍ يُمِطِرُ



وَالْقَاصِفَاتُ مَعَ الرَّوَاجِمِ دَمَدَمَتْ
وَمَعَامِعٌ فِي كُلِّ أَطْرَافِ الْمَدِيدِ...
اللَّهُ أَكْبَرُ! لَوْ رَأَيْتُمْ تَاجَ أُمٍّ...
لَمْ تَسْتَطِعْ دَبَابَةً أَنْ تَقْتَحِمَ
إِلَّا اخْتِرَاقًا وَاحِدًا فِي فَجْرِ ثَا...
رْتَلًا إِلَى وَسَطِ الْمَدِينَةِ لَمْ يَقِفْ
مَكْثُوا فَقَطْ لِلْعَصْرِ حَتَّى أُخْرِقَتْ
وَكَذَا ثَلَاثُ مُدَرَّعَاتٍ أَنْزَلَتْ
فَتَسَاقَطَتْ مِنْهَا طَوَاقِمُهَا عَدَوْا
ثُمَّ اِعْتَلَاهَا أَسْدَدْنَا وَاسْتَعْرَضُوا
وَاسْتَخَدَمَ الْجُبْنَاءُ أَسْلِحَةً مُدَمَّةً...
تَتَفَسَّخُ الْأَعْضَاءُ بَعْدَ دَقَائِقٍ
لَكِنَّهُ سُرْعَانَ مَا ذَهَبَتْ بِهِ
هَذَا وَلَا مَدَدٌ فَقَدْ سُدَّتْ مَعَا
وَأَتَى انْقِطَاعُ الْإِتِّصَالِ مُبَكِّرًا
فَتَحَوَّلَتْ مِنْ جَبْهَةٍ لَشَوَارِعٍ
فَسَلُّوا جُبَيْلًا^{٨٣} عَنِ الْمَلَا حِمٍ وَاسْأَلُوا
وَالْعَسْكَرِيَّ مَعَ الصِّنَاعَةِ سَائِلُوا

وَحَرَائِقُ وَقَنَابِلُ وَقَنَابِلُ
...نَهْ وَاقْتِتَالُ نَاشِبٌ لَا يَفْتُرُ
...رِيكَ يُدَاسُ وَأَبْرَهَامُ تُنْتَرُ
أَوْ آلَةٌ بَلْ كُلُّهَا تَتَفَجَّرُ
...بِنِي لَيْلَةٍ حَيِّ الْجُعْفِيِّ أَذْكَرُ
لَكَأَنَّهَا أَفْيَالُ رُسْتَمٍ تُخْشَرُ!
مِنْهَا ثَلَاثُ وَبَاهُزِيمَةٍ غَادَرُوا
جَاوُوا فَأَسْرَعَتْ الْأُسُودُ تُكَبِّرُ
لَمْ يَعْرِفُوا أَيْنَ الْفِرَارُ تَحِيرُوا
قَفَزَا وَتَكْبِيرًا عَلَيْهَا صُورُوا
...مِرَّةً عَلَا مِنْهَا دُخَانٌ أَخْضَرُ
مِنْ شَمِّهِ، وَيَخَافُهُ مَنْ يَنْظُرُ
رِيحٌ أَتَتْ اللَّهُ أَكْبَرُ كَبُرُوا
كُلُّ الْمَنَافِدِ لَيْسَ ثَمَّةَ مَعْبَرُ
وَعَدَتْ صَوَارِيخُ الْقَوَازِفِ تَنْدُرُ
فِي خَامِسِ الْأَيَّامِ عَنْهَا اسْتَفْسَرُوا
شُهَدَاءَ مَعَ جَوْلَانَهَا لَمْ دَمَّرُوا؟
هَيَّا انْطُقُوا! لَمْ دَمَّرُواكُمْ؟ أَخْبِرُوا

^{٨٣} جبيل والشهداء والجولان والعسكري والصناعة؛ أسماء لبعض أحياء الفلوجة، وخصصناها بالذكر لأنها الأكثر دمارًا، وعلى رأسها حي جبيل، فقد هُدمَ بالكامل وتحوّل إلى تلال من الحجارة والتراب.

أَوْ مَآ أَدَاعَ بِخَامِسِ الْأَيَّامِ فِي
فَعَلَامَ لَمْ تَفْتَحْ شَ—وَارِعُكُمْ إِلَى
فَسَيْشْ هَدُونَ بِأَنْ حَرَبَ شَوَارِعَ
وَتَحَلَّلْتَ عَشْرَ—رُ مِنَ الْأَيَّامِ فِي...
مَتَى آخِرِينَ إِلَى الْبَيْتِ لِحَدِّعِهِمْ
كَيْ يَفْتَحُوا بَعْضَ الْمَنَافِدِ لِلْمَدَدِ
لَكِنَّهُمْ زَادُوا الْحِصَارَ مَعَ الشَّدَدِ
فَاسْتَفْرَدُوا مَعَ أَهْلِهَا فَتَكَشَّفَتْ
وَخَشِيَّةٌ فِي زِيٍّ إِنْسَانِيَّةٍ
لَمْ يَرْحَمُوا طِفْلاً وَلَا امْرَأَةً وَلَا
فَمِنْ الْأَهَالِي قَتَلُوا عَشْرِينَ مَعَ
وَكَنَصَ فِيهِمْ شُهِدَاؤُنَا وَلِبَعْضُهُمْ
كَالْمَغْرِبِيِّ أَبِي أُوَيْسٍ لَمْ يَزَلْ
وَلِبَعْضُهُمْ كُنَّا بِأَغْرَاضٍ لَهُمْ
مِنْهُمْ أَبُـو أَنَسٍ مِنَ الْأَكْرَادِ مَنْ
فَلَقَدْ شَمَمْنَا الْمِسْكَ مِنْهُ وَلَمْ يَزَلْ
فَجَمِيعُ مَنْ قَتَلُوا بِهَا عَشْرُونَ مَعَ
لَكِنَّمَا إِخْوَانُنَا رَدُّوا لَهُمْ

إِعْلَامِهِمْ وَقَفَ الْقِتَالِ مُصَوِّرٌ^{٨٤}؟
سَبْعِينَ يَوْمًا وَالِدُخُولُ مُعَذَّرُ؟
دَامَتْ لِأَسْبُوعٍ وَشَهْرَيْنِ اسْطَرُّوا
...هَا خِطَّةٌ كُنَّا بِهَا لَا نَنْفِرُ
لِنُرِيَهُمْ عَجْزًا بِهِ نَتَّظَاهِرُ
وَلِيَأْمَنُوا فَنَعُودَ فِيهَا نَظَاهِرُ
مَنْعُوا الدُّخُولَ أَوْ الْخُرُوجَ وَحَذَّرُوا
هَمَجِيَّةً تَتَرَيَّةً تَتَكَّرَرُ
وَقِنَاعِ نَبَلٍ كَاذِبٍ تَتَنَكَّرُ
شَيْخًا وَلَا الْجُرْحَى وَلَا مَنْ يُعَذَّرُ
مَائَةٍ وَأَلْفٍ وَالنَّدَالَةَ أَظْهَرُوا
لَمْ يُدْفَنُوا شَهْرَيْنِ لَمْ يَتَغَيَّرُوا
غَضًّا طَرِيًّا وَالْكُلُومُ تَقْطُرُ
قَدْ خُضِبَتْ بِدِمَائِهِمْ نَتَعَطَّرُ
فِي صَنْعَةِ الْمُتَفَجِّرَاتِ الْأَمَهَرُ
مُتَبَسِّمًا وَالرُّوحُ فِيهِ تُغْرِغُرُ
تَسْعُ مِئِينَ وَمِثْلُهُمْ قَدْ يَكْثُرُ
بِالصَّاعِ صَاعَاتٍ بِهَا مَا قَصَّرُوا

٨٤ في اليوم الخامس تَمَكَّنَت الدَّبَابَات من السَّيْطَرَة على أَهَمِّ الشَّوَارِع الرَّئِيسِيَّة، فخرَجَ مُتَحَدِّثٌ بِاسْمِ القُوَّات الصَّليبيَّة مُعلِّناً كَذِباً السَّيْطَرَة على الفلوجة بالكامل وإنهاء العمليات العسكريَّة فيها، ثُمَّ عَيَّمَ على المعركة في الإعلام تعتيماً لم يسبق له مثيل؛ حيث سَلِطَت الأضواء على هلاك ياسر عرفات، وغاب اسم الفلوجة تماماً وَكَأَنَّ شَيْئاً لم يحدث!



قَدْ قَتَلُوا أَضْعَافَ قَتْلَانَا كَذَا
فَتَجَرَّعَ الرُّومَانُ كَأْسًا حَنْظَلًا
لَيْسُوا كَمَا قَدْ صَوَّرَتْ هُلُيُودُهُمْ^{٨٦}
فَعَلَى يَدَيِّ اللَّهِ أَرْدَى تِسْعَةً
وَبِیَوْمِهَا الْعِشْرِينَ صَيِّدِي سَبْعَةً
هَذَا وَكُنْتُ بِهَا مُصَافًا أَعْرَجًا
أَحْكِي لَكُمْ بَعْضَ الْمَشَاهِدِ قَدْ جَرَتْ
فَمَعِيَ إِلَى نَزَالٍ^{٨٧} حَيْثُ تَنَزَّالَتْ
أَرَوِي لَكُمْ بَعْضَ الْوَقَائِعِ عِشَّتُهَا
نَزَالٌ كَانَ الْقَلْبُ^{٨٨} فِيهِ تَمَرَّكَزَتْ
وَجَمِيعُنَا تِسْعُونَ نَنْقُصُ تِسْعَةً
ذِكْرِي لِبَعْضِ كُمَاتِنَا مَا ضَرَّهُمْ
مِنْهُمْ أَبُو الْغَيْدَاءِ^{٨٩} قَائِدُهَا الَّذِي
فَكَانَتْهُ بَيْنَ الصَّحَابِ حَمَامَةٌ
لَمَّا أُصِيبَ بِأَرْضِ أَفْغَانٍ رَأَى
وَيُتُوبُ عَنْهُ أَبُو الرَّبِيعِ وَلَمْ يَطَأْ
عِشْرُونَ عَامًا فِي الْجَهَادِ لُؤْيِي فِي

عَشَرَاتِ آلَاتٍ بِهَا قَدْ دَمَرُوا
مِنْ جُنْبِهِمْ لَمْ يُغْنِهِمْ مَا طَوَّرُوا^{٨٥}
رَامِبُو وَلَا فَنَدَامُهُمْ لَمْ يَحْضُرُوا
فِي سَابِعِ الْأَيَّامِ صَيِّدِي الْأَوْفَرُ
عَنِّي سَالُوا فِي الْقَنْصِ إِنِّي مَافِرُ
فَبَلَاءُ إِخْوَانِي أَشَدُّ وَأَخْطَرُ
أَشْبَاهُهَا فِي كُلِّهَا فَتَصَوَّرُوا
أَبْطَالُنَا وَعُلُوجُهُمْ نَسْتَذْكُرُ
لِلْعِلْمِ وَالتَّارِيخِ لَا أَتَفَاخِرُ
أَمْرًاؤَنَا وَالْحَرْبُ مِنْهُ تُسَاعِرُ
لِلْغَوَاثِ وَالْإِمْدَادِ كُنَّا نَنْفِرُ
لِلْمِثْلِ لَا لِلْحَصْرِ هُمْ لَنْ يُحْصَرُوا
فِيهِ الْأَنَاقَةُ وَالرُّجُولَةُ تَظْهَرُ
وَكَانَتْهُ وَقْتَ النَّزَالِ غَضَنْقَرُ
حُورِيَّةٌ سُحَرِ الطَّيِّبِ الشَّاعِرُ
فِي مَوْطِيٍّ إِلَّا يُغَاظُ الْكَافِرُ
سُوحِ الْوَعْيِ مُتَنَقِّلًا لَا يَفْتَرُ

^{٨٥} لَمْ يُغْنِهِمْ مَا طَوَّرُوهُ مِنَ الْأَسْلِحَةِ وَالْمَعَدَّاتِ وَالْآلَاتِ.^{٨٦} هُلُيُودُهُمْ: السَّيْنَمَا الْأَمْرِيكِيَّةُ الشَّهِيرَةُ، وَرَامِبُو وَفَانْدَامُ مِنْ أَشْهُرِ أَبْطَالِهَا.^{٨٧} نَزَالٌ: حَيٌّ فِي وَسْطِ الْفُلُوجَةِ.^{٨٨} الْقَلْبُ: أَيُّ قَلْبِ الْجَيْشِ، فَفِيهِ كَانَ مَرْكَزُ الْقِيَادَةِ الْعَامَّةِ، وَاخْتِيرَ لِذَلِكَ كَوْنُهُ وَسْطَ الْمَدِينَةِ.^{٨٩} أَبُو الْغَيْدَاءِ: اسْمُهُ الْحَرَكِيُّ أَبُو الْغَادِيَّةِ، وَيُنَادِيهِ الْكَثِيرُ بِأَبِي الْغَيْدَاءِ، وَهُوَ الْأَمِيرُ الْعَامُّ لِمَعْرَكَةِ الْفُلُوجَةِ الثَّانِيَةِ وَكَانَ النَّائِبَ الْأَوَّلَ لِلشَّيْخِ أَبِي مُصْعَبٍ، وَعُرفَ فِي الْعِرَاقِ بِاسْمِ عَبْدِ الْهَادِي، وَهُوَ طَيِّبٌ [أَيُّ طَبِيبٍ]، وَشَاعِرٌ، وَقَائِدُ عَسْكَرِي فِدٍ، وَتَنْظِيمِي بَارِعٌ، وَكَانَ دَائِمًا يَتَمَيَّزُ بِأَنَاقَةِ مَنْظَرِهِ.



وَلُغَاتُهُ حَمْسٌ، صَمُوتٌ غَالِبًا^{٩٠}
يَأْبَى الْبُرُوزَ تَخَالُفُهُ لَا يَغْتَرُّ بِدِي
وَمَضَى الْمُهَاجِرُ^{٩١} عَسْكَرِي الْمَشْهَدِ
مُتَقَدِّمًا لِكُمَاتِهِ إِنْ آلَاءُ
فَتَرَى الدُّخَانَ مُلَبَّدًا بِسَوَادِهِ
وَمُحَرِّضًا عَمَرَ الْحَدِيدِ لِحُنْدِهِ
لَمْ يَتْرِكِ الْمَيِّدَانَ رَغَمَ جَرَّاحِهِ
مِنْ قَبْلِ مَقْتَلِهِ بِعَشْرِ قَالٍ إِنْ
فَلَقَدْ شَفِيتُ الصَّدْرَ قَدْ قَرَّتْ عُيُوءُ...
وَأَتَتْهُ فِي أَعْلَى السُّطُوحِ رَصَاصَةٌ
أَمَّا أَبُو الْعِزَامِ مِنْ تَنْظِيمِهِ
فَمُجَهَّزًا وَمُعَبِّئًا لِلرَّكْبِ أَوْ
وَكِرَامَةً حَدَّثَتْ لَهُ يَوْمَ التَّشْتِ...
وَعَلَى يَدَيْهِ الْإِنْخِيزَارُ^{٩٢} خِتَامُهَا
يَوْمَ التَّشْتِ زُلْزَلَتْ وَتَنَازَلَتْ
بَحْرٌ مِنَ الرُّومَانِ حَاصِرٌ حِينَنَا
دَامَ الْحِصَارُ لِيَالِيَا وَتَسَعَّرَتْ
بِتَلَاخِمٍ مِنْ ضَخْوَةِ لَعِشِيَّةٍ

مُتَوَاضِعٌ وَبِزْهُدِهِ يَتَسَوَّرُ
وَبِحَنْكَةٍ عِنْدَ الشَّدَائِدِ يَظْهَرُ
مَعَ قَازِفٍ نَحْوِ الْعِدَا يَتَبَخَّرُ
لَا حَتَّ لَهُمْ صَدُّوا الْهُجُومَ وَصَابَرُوا
كَمْ عَطَّبُوا مِنْ آلَةٍ كَمْ دَمَّرُوا!
هَذَا الْجَنَانُ أَمَامَكُمْ وَيُكَبِّرُ
وَلِكُلِّ مَعْمَعَةٍ أَرَاهُ يُشَمِّرُ
أَقْتُلْ فَلَا تَأْسَوْا وَلَا تَتَحَسَّرُوا
...بِئْسَ مِنْ جُنُودِ الْكُفْرِ لِي لَا تَتَأَرَّوْا
فِي خَدِّهِ أَرْدَاهُ عِلْجٌ مَآكِرُ
غَدَتِ الشَّوَارِعُ كُلُّهَا تَسْتَنْفِرُ
مُتَضَرِّعًا يَدْعُو ابْنُ نَجْمٍ^{٩٣} يَجَارُ
...تُتِ إِذْ نَجَا مِنْ قِتْلَةٍ لَا تُسَرُّ
فَبِنَا مَضَى فِي الْإِنْسِحَابِ يُعْبِرُ
فِيهِ الْكُمَاةُ وَفِيهِ مَكْرٌ أَعْسَرُ
فَعَدَتْ مَوَاقِعُنَا تَضِيقُ وَتَصْغُرُ
فِي إِثْرِهِ نَارُ الْكَرِيهَةِ تَصْنُفُ
عَشْرُونَ مَنَّا قَتَلُوا قَدْ أَعْدَرُوا

^{٩٠} بحسب علمي أنه يتقن خمس لغات على الأقل؛ منها: الإنجليزية والتركية والبشتونية، إضافة إلى العربية، إلا أنه كثير الصمت.

^{٩١} الشيخ أبو حمزة المهاجر، وكان الأمير العسكري للمعركة، واسمه فيها "أبو إبراهيم".

^{٩٢} ابن نجم: اسم أبي عزام عبد الله بن نجم.

^{٩٣} هو من آمن لنا طريق وخطة الانسحاب.



وَتَشَتَّتَ الْإِخْوَانُ فِي نَزَاهِمِ
 كُلُّ يَظُنُّ بِأَنَّهُ النَّاجِي الْخَلِي
 وَقَضَيْتُ لَيْلِي خَالِيًا بِخَلِيلَتِي
 تَحِي التُّرَابُ وَجُعْبَتِي فَوْقِي وَفِي
 مَا خِفْتُ مِنْ ضَرْبٍ وَلَا طَعْنٍ وَلَا
 سَحَرًا ضَجِيجُ الرُّومِ قَلَّ فَقَدْ سَرَتْ
 وَأَتَى الصَّبَاحُ وَسَادَ صَمْتُ مُرْعَبٍ
 عَكَفْتُ عَلَى هَامِ الْأُسُودِ لِنَهْشِهَا
 وَيَجُولُ قَنَاصُـونَ مِنْ دَفْنِي لَهُمْ
 وَالْمَقْدِسِيُّ أَبُو الْجَعَا فِرَ أَيْ حَسَنُ
 وَسَاكْتَفِي بِعُبُورِهِ لِلْفَرْعِ إِنْ
 (هِيَ يُو) ^{٩٤}! يُرِيدُ تَفَنُّنًا فِي قَنَاصِهِ
 رُدَّ الْجَوَابُ بِصَلِيَّةٍ فِي وَجْهِهِ
 وَتَرَى يَدَيْهِ تَحَدَّرَتْ مَرْخِيَّةً
 ذَا جَعْفَرٍ، أَنِّي يُشَقُّ غُبَارُهُ!
 وَأَغَارَ مِنْ سُودَانِنَا بَطْلٌ عَلَى
 مُتَسَلِّلًا بِعُبُوءٍ مِنْ صُنْعِهِ
 فَرَمَى بِهَا فَوْقَ السُّطُوحِ مُسَارِعًا

مَثْنَى فَرَادَى أَوْ رُبَاعَ تَبَعَثُوا
 كُلُّ نَجَا بِكَرَامَةٍ قَدْ تَوَثَّرُ
 صَلَّيْتُ مُضْطَجِعًا لِحَوْفِي أَقْصُرُ
 حُضْنِي الْحَبِيبَةَ وَالْمُسَدَّسُ أَسْهَرُ
 قَتْلٍ، أَخَافُ الذُّلَّ لَا أَسْتَأْسِرُ
 أَرَاتُهُمْ نَحْوَ الْقَوَاعِ عَدِ تَهْدُرُ
 لَا تَسْمَعَنَّ سَوَى الْكِلَابِ تَهْرَهُرُ
 لَا تَنْبَحَنَّ مَخَافَةً أَنْ يَنْشَرُوا
 مَا ضُرَّ مَنْ مِنْ بَطْنٍ وَخَشٍ يُحْشَرُ
 كُنَّا عَلَى أَفْعَالِهِ نَتَسَامَرُ
 مِنْ فَوْقِهِ نَادَاهُ عِلْجٌ أَشْـقَرُ:
 يَا وَيْحَهُ لَمْ يَدْرِ مَنْ هُوَ جَعْفَرُ!
 فَتَنَّا ثَرْتُ أَسْنَانُهُ تَتَطَايَرُ
 وَسِلَاحُهُ أَرْضًا هَوَى يَتَدَخْدَرُ
 يَا وَيْلَ مَنْ لِنِزَالِهِ يَتَجَاسَرُ!
 بَيْتٍ بِهِ قَنَاصَةٌ تَتَجَبَّرُ
 لَخَلِيطُهَا كَمْ مُضْحِكٌ ذَا الْمَنْظَرُ!
 مَعَ صَوْتِهَا نَحْوَ الْعُلُوجِ يُكَبِّرُ

^{٩٤} ناداه بالإنجليزية: "Hey! You"، وكان عادة العلوج أن يتغنَّوا في قتل المدنيين ليضحكوا، فكان يريد أن يلتفت إليه جعفر ليرميه في جبهته ظنًّا منه أنه متمكِّن منه، فقد كان جعفر لا يراه.



فَلَمَنْ نَجَا مِنْهُمْ عَادَا مِنْ رُغْبِهِ
 لِلَّهِ دُرُّ أَبِي رَوَاحَةَ صَارِخًا:
 وَفَتَى مِنَ الْأَنْبَارِ فَرَّ أَمَامَهُ
 جَاؤُوا لِتَنْفِيشِ الْبُيُوتِ فَدَاهُمُوا
 فَتَرَاهُ يَغْدُو خَلْفَهُمْ فِي الْفَرْعِ هُمْ
 وَتَرْغَرْدُ الْبَيْكَا مُهْلَهْلَةً لَهُ:
 فِي الْفَرْعِ أَرْدَى خَمْسَةً وَثَلَاثَةً
 وَرَمَاهُ قَنَاصٌ بِجَبْهَتِهِ فَلَمْ
 يَفْصَحَاحَةً مِنْ قَبْلِ لَمْ يَنْطِقْ بِهَا:
 فَرَّ الْجُنْدُ وَادَّ بِجَرَافٍ أَتَى
 وَبُقْرَبِهِ دَبَابَةٌ مِنْ خَلْفِهِهَا
 غَيْرَ الْحَدِيدِ فَلَا تَرَى مُتَحَرِّكًا
 بَدَوْوا بِتَهْدِيمِ الْبُيُوتِ بِأَسْرِهِا
 وَالطَّائِرَاتُ تَهْيَلُ أَطْنَانًا عَلَى
 فَكَأَنَّهُمْ جُنْدٌ لُهُوْلَا كُؤُوا أَتُوا
 ذَا دَأْبُهُمْ فِي إِثْرِ كُؤٍ تَلَا حِمٍ
 هَذَا وَهَذَا دَأْبُنَا حَتَّى انْقَضَى
 وَلَنَا بِهَا فِي كُلِّ حِينٍ آيَةٌ

نَحْوَ الدُّرُوعِ^{٩٥} بِسُرْعَةٍ وَتَقَهَّقُوا
 هَيَّا لِسَلْبِ طَعَامِهِمْ لَا تَسْخَرُوا
 سَبْعُونَ رُومِيًّا بِهَا بَلْ أَكْثَرُ
 بَيْتًا لَنَا دَخَلُوا الْعَرِينَ تَجَاسَرُوا
 كَالْحُمُرِ نَافِرَةً أَتَاهَا الْقُسُورُ
 أَتَلَجَتْ صَدْرِي يَا حَبِيبِي عَامِرُ
 فِي الْبَيْتِ قَبْلَ خُرُوجِهِ أَتَذَكَّرُ
 يَسْقُطُ وَنَادَى صَارِخًا يَسْتَبْشِرُ
 إِنِّي أَرَى الْفِرْدَوْسَ ظَلًّا يُكْرِرُ^{٩٦}
 فِي إِثْرِهِ دِرْعٌ فَدِرْعٌ آخِرُ
 دَبَابَةٌ وَالطَّائِرَاتُ تُصَوِّرُ
 قَدْ خَلَتْهَا بَعْضَ الْقِلَاعِ تُسِيرُ
 مَا هَمَّهُمْ حُرْمَاتُهَا مَا أَنْذَرُوا
 هَرَّ عَلَى كَلْبٍ عَلَى مَا تَبْصُرُ
 فُلُوجَتِي رَفَعُوا الصَّلِيبَ وَعَسَكُرُوا
 أَوْ مَا رَأَيْتُمْ كَمْ بُيُوتٍ دَمَّرُوا؟!
 سَبْعُونَ يَوْمًا فِي الْقِتَالِ نَصَابِرُ
 وَكَرَامَةٌ فِي كُلِّ يَوْمٍ تَظْهَرُ

^{٩٥} الدُّرُوعُ: أَلْيَاتٌ عَسْكَرِيَّةٌ.

^{٩٦} عامر العيساوي: شابٌّ من عامرية الفُلُوجَةِ، عمره ثمانية عشر عامًا، كان لا يحسن التَّحَدُّثَ إِلَّا بِلَهْجَتِهِ الْعَامِيَّةِ الرَّيْفِيَّةِ كَقَوْلِهِ: "قَابَتِ الشَّمْسُ، طَلَعَ الْغَمْرُ"، جَاءَتْهُ طَلْقَةً فِي جَبْهَتِهِ وَهُوَ يَغْدُو خَلْفَهُمْ فِي الْفَرْعِ، بَعْدَ أَنْ قَتَلَ مِنْهُمْ ثَلَاثَةً دَاخِلَ الْبَيْتِ وَخَمْسَةً فِي الشَّارِعِ، فَنَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ قَائِلًا: "إِنِّي أَرَى الْجَنَّةَ، وَاللَّهِ إِنِّي أَرَى الْجَنَّةَ"، وَظَلَّ يَرِدُّدُهَا بِفَصَاحَةٍ عَجِيبَةٍ وَهُوَ يَخْرُ صَرِيحًا، فَمَا غَبِطْتُ أَحَدًا مِثْلَهُ.



مَسْدُودَةٌ كُلُّ الْمَنَافِدِ حَوْلَنَا
نَفَدَ الطَّعَامُ مَعَ الْعَتَادِ وَلَمْ تَعُدْ
وَرَأَيْتَنِي مَعَ صَاحِبِ وَجْمَعَةٍ
لَا شَيْءَ غَيْرَ الْمَاءِ يُؤْكَلُ عِنْدَنَا
ثُمَّ اجْتَمَعْنَا فِي مَوَاقِعَ خَمْسَةِ
لِلَّهِ دَرُّ أَبِي الرَّبِيعِ مُفْتِشًا
لَا نَخْرُجَنَّ لِعَيْرِ أَمْرِ طَارِي
بَقْلِيلٍ طَلَقَاتٍ وَبَعْضِ قَنَابِلٍ
فَمَكِبَرٍ لِلصَّوْتِ ظِلٌّ مَرْدَدًا:
كَيْ مَا نَعْمَامِلَكُمْ بِإِنْسَانِيَّةٍ
فِيُجِيبُهُمْ عِنْدَ اللَّقَاءِ رِصَاصُنَا:
وَإِذَا أَتَوْا قُمْنَا لَهُمْ نَقْتُلْ بِهِمْ
عِشْرُونَ يَوْمًا قَدْ مَضَى وَلِتَسْعَ مَرٌّ...
ثُمَّ انْسَحَبْنَا فِي عِنَايَةِ رَبِّنَا
وَجَمِيعُنَا خَمْسُونَ إِلَّا خَمْسَةَ
وَمُخْلَفِينَ فَتَى يَمَانِيٍّ^{٩٧} وَكَأ...
وَقَدْ اخْتَفَى مِنْ قَبْلِ شَهْرٍ لَمْ نَعُدْ

حَتَّى الطُّيُورُ تَكْأَدُ لَا لَا تَعْبُرُ
حَتَّى الْمِيَاهُ بِحَيْنَا تَتَوَفَّرُ
نَصِلُ الصِّيَامَ وَكَأْسَ مَاءٍ نَقْطُرُ
بِالْكَأْسِ مُقْتَصِدِينَ لَا نَتَسَحَّرُ
جَمَعَ الشَّتَاتَ لَنَا لُؤْيُ الْقَسُورِ
بِعَصَابَةٍ كُلُّ الْبُيُوتِ يُخَاطِرُ!
مُقَاسِمِينَ عَتَادَنَا نَتَسَتَّرُ
مُتَأَهِّبِينَ بِجُوعِنَا نَتَضَوَّرُ
هَيَّا اخْرُجُوا مُسْتَسْلِمِينَ اسْتَأْسِرُوا
أَوْ نَدْخُلَنَّ نُبِيْدَكُمْ فَتَخَيَّرُوا!
فَلْتَخَسَّوْا! مَا مِثْلُنَا يَسْتَأْسِرُ
قَتْلَ الْخَنَافِسِ وَالذُّبَابِ وَنَنْحَرُ
... رَاتٍ بِهَا تَفْتِشُهُمْ قَدْ كَرَّرُوا^{٩٧}
بِسِلَاحِنَا مَا ضَرَرْنَا مَا طَوَّرُوا^{٩٨}
مِنْ وَسْطِهِمْ وَكَأَنَّهُمْ قَدْ خُذِرُوا
... نَ عَلَى يَدَيْهِ خِتَامُهَا إِذْ يَظْهَرُ
نَسْمَعُ لَهُ حِسًّا بِهَا أَوْ يُذَكَّرُ

^{٩٧} مَضَى عِشْرُونَ يَوْمًا مِنْذُ أَنْ اخْتَفَيْنَا فِي الْبُيُوتِ، وَقَدْ فَتَّشُوا خِلَالَهَا حَتَّى نَزَالَ بَيْتًا بَيْتًا تِسْعَ مَرَّاتٍ، وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ تَدُورُ مَعَهُمْ مَعْرَكَةٌ ضَارِبَةٌ وَنَنْحَازُ إِلَى جِهَةٍ أُخْرَى مِنَ الْحَيِّ، فَيَعِيدُوا التَّفْتِيشَ مِنْ جَدِيدٍ.

^{٩٨} مِنْ كَامِرَاتٍ لَيْلِيَّةٍ وَنَهَارِيَّةٍ وَأَجْهَزَةٍ إِنْذَارٍ وَمِرَاقِبَةٍ وَنَوَاطِيرٍ.
^{٩٩} أَبُو مُحَمَّدٍ الْيَمَنِيُّ الَّذِي اخْتَفَى مِنْذُ أَكْثَرِ مِنْ شَهْرٍ، وَلَمْ نَعْلَمْ عَنْهُ شَيْئًا، وَقَدْ كُنَّا نَظُنُّ أَنَّهُ أُسِيرَ لِنَتَفَاجَأَ بِخُرُوجِهِ مِنْ تَحْتِ أَنْقَاضِ مَنْزِلٍ مَكْبَرًا وَسُطِّ دُورِيَّةٍ رَاجِلَةٍ، وَيَقْتُلُ مِنْهُمْ سِتَّةً مُعَلِّيًا أَنْتَهَاءَ الْعَمَلِيَّاتِ الْعَسْكَرِيَّةِ فِي "نَزَالٍ".



مَعَ نِصْفِ أَحْمَصِهِ الَّذِي طَلَقَاتُهُ
 مِنْ تَحْتِ أَنْقَاضٍ وَيَنْقُضُ الْفَتَى
 فِي وَسْطِ رَاجِلَةٍ فَيَقْتُلُ سِتَّةً
 وَرَأَيْتُهُ مُتَجَنِّدًا مُتَبَسِّمًا
 ذَا مَا جَرَى فِي حَيِّ نَزَالٍ جَرَى
 وَيُنَبِّئُنِي شَوْقٌ إِلَيْهَا كُلَّمَا
 لَنْ نَنْسَيْنَ دِمَاءَ إِخْوَانٍ بِهَا
 فَلَنُلْهَبَنَّ الْأَرْضَ كُلَّ بَقَاعِهَا
 مَا بَيْنَ آوْنَةٍ وَأُخْرَى تَحْشُرُ
 تَكْبِيرُهُ كَالرَّغْدِ حِينَ يَزْجُرُ
 مِنْ قَبْلِ مَقْتَلِهِ فَنِعَمَ الْمَظْهَرُ
 وَكَأَنَّهُ مُتَأَمِّلٌ مَا يُسْرَرُ
 أَشْبَاهُهُ ١٠٠ فِي كُلِّهَا فَتَصَوَّرُوا
 أَهْوَاهَا فِي خَاطِرِي تُسْتَحْضَرُ
 فَلُوجَةُ الْأَبْطَالِ نِعَمَ الْمَعْشَرُ!
 بِدِمَائِنَا حَمَمًا نَثُورُ وَنَثَارُ

تَمَّتْ فِي يَوْمِ ١٦ شَوَّالِ ١٤٢٩ هـ

وَنَظَّمَهَا أَبُو مُحَمَّدٍ الْعَدْنَانِيُّ

وَلِلَّهِ الْحَمْدُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ.

المِحْنَةُ

قال أبو حمزة: كُتِبَتْ هذه القصيدةُ في حيِّ نَزَالٍ في الجهةِ المُقَابِلَةِ لِجَامِعِ
الْفِرْدَوْسِ، حيثُ دارَتْ في هذا المكانِ أشدُّ معاركِ الفلوجةِ ضراوةً، وهي مشاعرُ
سَطَرُهَا، وَلَعَلِّي أدَوُّنُ معركةَ الفلوجةِ وَمَا بِهَا مِنْ كَرَامَاتٍ في وقتٍ لاحقٍ إذا
تيسَّرَ لَنَا ذَلِكَ إن شاء الله.

أَطَّ الْفَوَّادُ بِمِحْنَةٍ تَتَعَاظُمُ *** إِنَّ الْبَلَاءَ يَدُوسُ بِالْإِخْوَانِ
إِخْوَانُ عَمْرِي فِي مَهَبِّ عَاتٍ *** يُغْمِي الْعَيُونَ بِلَمْحَةِ الْأَجْفَانِ

مَنْ أَيْنَ أَبْدَأُ فَالْخُطُوبُ ثَقِيلَةٌ *** وَسَمْتُ هُمُومِي فَوْقَ كُلِّ بَيَانٍ
كُنَّا وَكَانُوا تِلْكَ أَوَّلُ قِصَّتِي *** كَوْنٌ يُفَجِّرُ طَاقَةَ الْبِرْكَانِ

يَا سَامِعًا عَنْ قِصَّتِي وَعَذَابَهَا *** حَزَنِي يَفِيضُ وَيُغْرِقُ الشُّطَّانَ
أَوْ بَعْدَمَا كُنَّا نَجُوبُ ضَوَاحِي *** شَمَّ الْأَنْوَفَ أَعَزَّةً بِسَنَانٍ
نَتَنَفَّسُ الصَّعْدَاءَ فِي أَسْحَارِنَا *** وَنَعَانِقُ الْجَوَازَاءَ وَالْقَمَرَانَ

فَصَهِيلُ خَيْلِ اللَّهِ يَنْشُدُ مَجْدَنَا *** وَكَأَنَّ فِينَا خَالِدَ الْفَرَسَانِ
وَتُبَارَكَ الْهَيْجَاءُ حُفَّ مُوَحِدٍ *** تَتَسَابَقُ الذَّرَاتُ لِلْقَدَمَانِ

أَمِنْ النِّسَاءِ وَفِي الْحُدُورِ فَلَا *** يَخْفَنَ مِنَ الْأَعَادِي قَاصِيًا أَوْ دَانِيًا
أَطْفَالُنَا عَرَفُوا الْكَرَامَةَ عَزَّهَا *** لَا لَنْ تُهَابَ زِيَارَةِ الصُّلْبَانِ
بَدَتِ الْمَدِينَةُ شَكْلَهَا كَعُرُوسَةٍ *** وَتَزَيَّنَتْ لِشَرِيعَةِ الرَّحْمَنِ
غَبِطَتْ وَصَائِقُهَا بِهَاءَ رِجَالِهَا *** وَبَدَتْ تُمَشِّطُ شَعَثَهَا بِحَنَانِ
ثَارَ الْغَبَارُ مِنَ الرِّكَامِ مَذْلَةً *** وَتَصَاعَدَ الدِّخَانُ كَالشَّيْطَانِ

ماتت حقولٌ بالكرامة زُويت *** وغدا الفرات كالح الشيطان
 وتمايل الزيتون يسكب دَمْعَةً *** لا للمقام بواحة الأوثان
 الحزن ظلي والهموم ردائي *** والخطب أقبل بادي الأسنان
 دبابة بالموت تَقْذِفُ نَارَهَا *** تَحْتَ الجدار بقيّة الفرسان
 عصف يبيد ديار قوم أهلها *** رفضوا الخنوع لسلطة الكفران
 بيت لبیت هُدمت ومنازل *** دُكَّتْ بحقدٍ ظاهرٍ لعيان
 حِمَمُ الهلاك تُدمِّرُ المنصورة *** فَتَجَسَّدُ الحقد الصّليبي القاني
 قصف يطير حجارة المعمورة *** لكنّ ديني راسخ الأركان
 أفلا سمعت صراخه عُمراننا *** بعد الإصابة راجي الشجعان
 لا تتركوني يا بشيرٍ لحالي *** قُطِعَتْ لِسامي يومها قدما
 بجواره راحت عُيونُ مُحَمَّدٍ *** كلُّ يناشدُ رحمة الرحمن
 لما تفجّر للحبیب عُيُونُهُ *** أعطى السلاح لجعفر ببنان
 ومع المخازن قائلاً بثباته *** لا ترحم الكفار بالنيران
 فأمام عيني بعض أشلاء لهم *** وهناك يرقد فارس الميدان
 جسد الشهيد ولا سبيل لحقه *** همّ وأحزان لذي الوجدان
 ما ضرّ شاةً فارقتها روحها *** نفسي أروضها على الأشجان
 وإليك أكتب يا أخي مشاعري *** يهتر بي كالفتي السكران
 الخوف يطفو لا يكاد مفارقاً *** باب المييت ثم يُشرّف ثاني
 أغني به ذاك المضيق مكاننا *** إذ وصّفه سجن بلا سجان
 الصوت همسٌ والحروف ببخّة *** غير الخلاء ضرورة الإنسان
 همجية تترية مسعورة *** صالت بحقد أمة الصلبان
 فحروهم عقديّة مدروسة *** أفعالهم سبقت بقول لسان
 علماء ديني يا شرّاع سفيني *** تَلَفُ الشّراع مُصيبة الرّبان

لَا يَحْصُدُ الْإِنْسَانُ إِلَّا مَا بَذَرَ *** وَخَيْرُ الْبُذُورِ ذُرْوَةُ الْإِيمَانِ
 الْعَزُّ حَيٌّ وَالتَّرَاجُمُ بَيْنَكُمْ *** مَا مَاتَ مِنْ أَحْيَا الْعَقِيدَةِ ثَانِي
 فَقَّةُ الْجِهَادِ لَا حِيْضَ النَّسَا *** السَّيْفُ بَطَّالٌ بِلَا قِرَآنِ
 الظُّلْمُ دَوْمًا لَا فَنَاءَ لِعُذْرِهِ *** وَسِيْهَامُكُمْ سَمٌّ عَلَى الْإِخْوَانِ

الْحَقُّ أَبْلُجٌ وَالضَّلَالُ مُلْجَلِجٌ *** فإِلَى مَتَى نَنْسَاقُ كَالْخُرْفَانِ

كَفَرَ الشَّبَابُ بِالْكَهَانَةِ تَفْثِهَا *** هَجَرُوا بِعَزْمٍ صَنْعَةَ الْكَهَّانِ
 إِذْ بِالْخِيَانَةِ صَوَّبَتْ بِسِيْهَامِهَا *** غَدَرًا مِنَ الْعِلْمَاءِ وَالرَّهْبَانِ
 لِلْحَرِّ قَلْتُمْ خَارِجٌ أَوْ جَاهِلٌ *** فِي قَتْلِهِمْ أَجْرٌ أَيْدُوا الْجَانِي
 فَسَمَاحَةُ الدِّينِ الْحَنِيفِ تَقْتَضِي *** رَدَّ عَ الْخَوَارِجِ فِي جَمِيعِ زَمَانِ
 صَبْرًا فَمِيزَانُ الْعَدَالَةِ عِنْدَهُ *** عِنْدَ الْعَلِيمِ سَيَلْتَقِي الْخَصْمَانِ

أَخَذَ الْإِلَهُ عَلَيْكُمْ مِيثَاقَهُ *** بَيَانِ شَرَعِ اللَّهِ لَا الْكُتْمَانِ

فَبِذَمِّهِ لَمْ تَخَافُوا حُكْمَهُ *** بِخَسَا شَرِيْثُمُ دِيْنَكُمْ بِهَوَانِ
 اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَنَا فَتَجَهَّزُوا *** بِدِمَائِنَا جُودَنَا لِيَوْمِ دَانِي
 فَلَقَدْ قَرَأْنَا فِي كِتَابِ إِبْنِهَا *** وَهُوَ الْعَظِيمُ تَبَارَكَ الْمَنَانِ
 أَمْرًا صَرِيحًا بِالنَّفِيرِ لِعُدُونَا *** حَتَّى تَعَمَّ عِبَادَةُ الرَّحْمَنِ

نَاصِحُ الْأَحْرَارِ

قال أبو حمزة: كَانَ أَخِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الشَّامِيُّ مِنْ أَحَبِّ خَلْقِ اللَّهِ إِلَى نَفْسِي، وَكَانَ مِنْ أَصْدَقِهِمْ لِي مُودَّةً، فَكَانَ نِعَمَ الْأَخِ النَّاصِحِ وَالصَّدِيقِ الْمَخْلَصِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَنِ، فَمَا وَقَفْتُ مِنْهُ قَطُّ عَلَى شَيْءٍ سَاءَ بَنِي، فَقَدْتُهُ أَثْنَاءَ مَعَارِكِ الْفُلُوجَةِ الثَّانِيَةِ، وَكُنْتُ أَمَلُ أَنْ يَكُونَ مَا زَالَ حَيًّا، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ طُولِ مَدَّةِ فَقْدِهِ إِلَّا أَنَّ خَبَرَ اسْتِشْهَادِهِ خَرَجَ مِنْ أَحَدِ الْإِخْوَةِ الَّذِينَ اعْتَقَلَهُمُ الْأَمْرِيكَانُ فِي الْفُلُوجَةِ، وَكَانَ مَعَهُ إِذْ انْسَحَبَ الْإِخْوَةُ وَرَفُضَ هُوَ الْانْسِحَابَ، فَتَعَرَّضَ بَيْنَهُ لِقَصْفٍ عَنِيفٍ اسْتُشْهِدَ عَلَى إِثَرِهِ مَعَ كَوَكَبَةٍ مِنَ الْإِخْوَةِ، فَكَتَبْتُ فِيهِ أَقُولُ:

أَكْرَمَ أُخِيَّ بِرَفْعَةٍ وَكَرَامَةٍ	وَاخْلُدْ بِرَوْضِ عَالِي الْمَقْدَارِ
لَا يَرْحَلُ الْإِنْسَانُ كُلَّ حَيَاتِهِ	حَتَّمَا يَحْطُّ مِنْ عَنَا الْأَسْفَارِ
الْبُؤْسُ وَلِي لَنْ يَعُودَ زَمَانُهُ	الْيَوْمَ تَلْقَى نِعْمَةَ الْإِبْكَارِ
الْيَوْمَ تُدْرِكُ مَا طَفَقْتَ تَوْمُلُهُ	الْيَوْمَ تَلْقَى رَبَّنَا الْغَفَّارِ
مَا زِلْتُ أَذْكُرُ فَيْكَ أَنْتَ صِلَابَةٌ	وَجَهَادَكَ الْأَعْدَاءَ بِالْبِتَارِ
بِرِيَاضِ ثَغْرِ الرَّافِدِينَ جِلَادَكُمْ	وَعَلَى رُبِّي الشَّهْدَاءِ كُنْتَ تُجَارِي
تَعَبُ النَفُوسِ وَسِيلَةٌ لِتُرِيحِهَا	ذَاكَ السَّبِيلُ سَبِيلُ كُلِّ خِيَارِ
إِنْ غَابَ عَنِّي يَا أُخِيَّ ضِيَاؤُكُمْ	فَجَمِيلُ فِعْلِكَ بَاقِي الْأَسْرَارِ
يَدْبُ فِي نَفْسِ الصَّدِيقِ عَبِيرُهُ	فَتَشُورَ فِيهِ شَهَامَةُ الْأَغْيَارِ
رُحِمَ الْكَرِيمُ أَخَا الْمُودَةِ وَالتُّقَى	قَدْ كَانَ حَقًّا نَاصِحَ الْأَحْرَارِ
لَا يَعْرِفُ الْقَوْلَ الدِّينِيَّ لِسَانُهُ	أَدَبُ الْكَلَامِ طَرِيقَةُ الْأَطْهَارِ
إِنَّ السِّيُوفَ مَفَاتِيحَ لِنَجَاتِنَا	وَشِعَارُهُ بِالْجَهْرِ وَالْإِسْرَارِ

يَا نَفْسُ

قال أبو حمزة: لما اشتدَّ الخطب في حربِ الفلوجة الثانية وبدأ العدوُّ يقتربُ بجَرَافاته من بَيْتِنَا وأخذَ يهدمُ البيوتَ البيتَ تلو الآخر، وأيقنَ الجميعُ بدُنُوِّ الأجل، وجلسَ الإخوةُ في مواقعهم؛ هذا بـ(البيكا) بالقربِ من البابِ وآخر يراقبُ من الشباك؛ كرهت نفسي الموت، وبدأ أُمامي أهلي وولدي، وكنتُ أدّعي حبَّ الشَّهادة، فحزنتُ على نفسي وحاولتُ إصلاحها وتوبيخها، فقلتُ في الحال:

يا نفسُ طيبي باللقاء	ماذا ابتغيتِ بالبقاء؟
يا نفسُ حقاً قد أتى	كذباً تُريدين السَّماء؟
الطينُ أصلُك يا دُنا	أفلا تُجيبين النِّداء؟
نِداءُ ربي بالقِرى	عندَ النبي والبهاء
يا نفسُ هيَّا للهنا	وتحرّري من ذا العناء
ليس الشَّهيدُ بميتٍ	الروحُ ترقى في اجتناء
الروحُ تَلقى ربَّها	حيثُ الثَّوابُ والاصطفاء
في جوفِ طيرٍ سارحٍ	من الجنانِ كما تشاء
الموتُ أقبلَ زاحفاً	يجني بأغصانِ الرَّجاء
يضحكُ من طولِ الأمل	فهلُمَّ يا حقَّ القضاء

أَبُو عَبْدِ

قال أبو حمزة: الشيخُ أبو عبدو أسدٌ من أسود الإسلام وشيخٌ من شيوخهم ومن السابقين الأولين في قتال الطُّغاة المرتدِّين، من حَمَاة العِزِّ؛ فقد قاتَلَ النِّظامَ النُّصيريَّ شابًّا في ثورة الشَّام بحِماة، وعرفَ السُّجونَ مرارًا فما هادَنَ وما جَلَسَ حتى نفَرَ الشيخُ الذي قاربَ الستينَ عامًا إلى العراق، ورُزِقَ فيها الشهادةَ بمِعاركِ الفلوجة الثانية، وأحسبُ أنه يُبعثُ من بُطون السِّباع وحواصلِ الطَّير حيثَ تَرَكَ المحتلُّ وأذناؤه جسدهُ ملقىً أيَّامًا طَوَالًا بجانبِ دِبابَةٍ لهم.

لهفي على نبعِ الفِدا	بطلِ الشدائدِ جدُّ
قعدَ الشَّبابُ وما قعد	دومًا لدينهِ يعدو
كانَ المعلمُ والأخ	يحنو بحلمٍ.. لا يشدُّ
يرقى الشريفُ لحتفه	والعبدُ للحضيضِ يعدو
الناسُ تبعثُ جيفةً	والمسكُ طيِّبُكَ تغدو
اللهُ يرفعُكَ العلا	للدِّينِ كنتَ تجدُّ

اضْرِبْ يَا أَسَدَ الْفُلُوجَةِ

اضرب يا أسد الفلوجة *** واعدل لي رأسًا معوجة
 فرساني ركعوا من زمنٍ *** ذلًّا يبطون مبعوجة
 اضرب محتلاً لعراقي *** فحججهم صارت محجوجة
 ارفع هاماتك يا بطلاً *** فجباهي تنزف مشجوجة
 علم أبناءك أبنائي *** بأزيز رصاص أهزوجة
 علمني كي أغدو رجلاً *** لأصارع كفرًا وعلوجا
 فلوجة صارت لي أملاً *** أختًا لجنين المخلوجة
 لا ترهب محتلاً أبداً *** أشجعهم يخشى الفروجة
 لن يخبو نجم في فلكٍ *** قد شاد الأبطال بروجاً
 لوطني جاء ليحكمنا *** تباً للخُنثى المغنوجة
 أمريكا في فمها حيضٌ *** من كلِّ العالم ممجوجة
 أبناء معاذٍ والقعقاع *** قد لاحت للفجر بلوجا
 أبناء عراقٍ لا تهِنوا *** وصموداً أولاد العوجة
 فخيولُ الله قد انطلقت *** صبحاً للعزة مسروجة

الموارد

باب الفلوجة الأولى

الراوي	المورد	ملاحظة
أبو أنس الشامي	- الرواية الأصلية لأحداث الفلوجة - معركة الأحزاب	لم يراجع مراجعة وتعليق ميسرة الغريب
أبو حفص الليبي	معركة الأحزاب	رواها أبو أنس عنه
أبو حفص المقدسي	معركة الأحزاب	رواها أبو أنس عنه
أبو حمزة المهاجر	- الجامع لسير أعلام الشهداء - هموم وآلام.. ديوان شعري - اللقاء الصوّتي الأوّل	الطبعة الأولى لصرح الخلافة
أبو خطاب	- إصدار مرئي أسد الرافدين أبو أنس الشامي - مجلة ذروة سنام الإسلام العدد الأول	منتج في ١٤٢٥هـ محرم ١٤٢٦هـ
أبو عزام	- إصدار مرئي أسد الرافدين أبو أنس الشامي - مجلة ذروة سنام الإسلام العدد الأول	منتج في ١٤٢٥هـ محرم ١٤٢٦هـ
أبو مصعب الزرقاوي	- حوار مع الشيخ أبي مصعب الزرقاوي - كلمة {فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ} - مقالة (دَعُوا عَطِيَّةَ اللَّهِ؛ فَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُ)	حاوره أبو اليمان البغدادي
أحمد منصور	خبايا معركة الفلوجة وهزيمة أمريكا في العراق	تم التصرف في بعض المصطلحات والكلمات الفاسدة.
عبد الأعلى المضريّ	- الجامع لسير أعلام الشهداء	
قصة شهيد	صحيفة النبأ العدد ٢٢ - ٢٤ - ٣٦	
بول بريمر	مذكرات عامّ قضيتُهُ في العراق	معربة

باب بين المعركتين

ملاحظة	المورد	الراوي
الطبعة الأولى لصرح الخلافة	الجامع لسير أعلام الشهداء	أبو حمزة المهاجر
منتج في ١٤٢٥ هـ محرم ١٤٢٦ هـ	- إصدار مرئي أسد الرافدين أبو أنس الشامي - مجلة ذروة سنام الإسلام العدد الأول	أبو خطاب
منتج في ١٤٢٥ هـ محرم ١٤٢٦ هـ	- إصدار مرئي أسد الرافدين أبو أنس الشامي - مجلة ذروة سنام الإسلام العدد الأول	أبو عزام
منتج في ١٤٢٥ هـ محرم ١٤٢٦ هـ	- إصدار مرئي أسد الرافدين أبو أنس الشامي - مجلة ذروة سنام الإسلام العدد الأول	أبو ياسر
١٤٢٨ هـ	سلسلة خفايا من التاريخ	ميسرة الغريب
رمضان ١٤٢٥ هـ	جماعة التوحيد والجهاد تعلن بيعتها للشيخ المجاهد أسامة بن لادن	بيان جماعة التوحيد والجهاد

باب الفلوجة الثانية

ملاحظة	المورد	الراوي
	الزرقاوي كما صحبته	أبو جعفر الأنصاري
رواها أبو حمزة المهاجر عنه	الجامع لسير أعلام الشهداء	أبو جعفر المقدسي
الطبعة الأولى لصرح الخلافة	- الجامع لسير أعلام الشهداء - هموم وآلام.. ديوان شعري	أبو حمزة المهاجر
	وقعة الفلوجة	أبو محمد العدناني
	- مقالة (دَعُوا عَطِيَّةَ اللَّهِ؛ فَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُ) - حوار مع الشيخ أبي مصعب الزرقاوي - كلمة (وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْنَلَى نَمَّ تَكُونُ لَهَا الْعَاقِبَةُ)	أبو مصعب الزرقاوي
	الجامع لسير أعلام الشهداء	أبو عبد الملك
	اللفظ الساني في ترجمة العدناني	تركي البنعلي

أمريكا لم تنس معركة الفلوجة، إلا أنّ ما تحاول أمريكا جاهدة نسيانه أو تحريفه أنّ تلك المعركة لم تنته بعد، وأنها امتدت اليوم إلى كل بقعة ليس في العراق الأبيّ فحسب، بل وصلت إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير، وأنّ أحفاد الزرقاوي والشامي والمهاجر وأبي الغادية والعدناني وغيرهم -تقبلهم الله-، قد حفظوا ميراث الفلوجة وأبطالها جيّداً، وشيّدوا على مجدها دولة خلافة إسلامية أجبرت أمريكا الصليبية على حشد أكبر حلف صليبي في التاريخ لقتالها والقضاء عليها، ولكنها فشلت في ذلك وما زالت تفشل -بفضل الله تعالى-.

من مقالة (عقدة الفلوجة) صحيفة النبأ (370)

لفت الأنظار لها جاء في
معركتي الفلوجة
من أخبار

